

نَهْائِةُ الْأَدَبِ

فِي

فُنُونِ الْأَدَبِ

تَأَلَّفَ

شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ النَّوَوِيِّ

الْمُتَوَفَّى ٧٣٣ هـ

الجزء السابع

تحقيق

الدكتور علي بومالحم

منشورات

مكتبة علي بن أبي طالب

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع عشر

من القسم الخامس من الفن الثاني في الكتابة وما تفرع من أصناف الكتاب

ولنبداً بأشتقاق الكتابة، ولم سُميت الكتابة كتابة، ثم نذكر شرفها وفوائدها، ثم نذكر ما عدا ذلك من أخبار المحترفين بها، وما يحتاج كلُّ منهم إليه، فنقول وبالله التوفيق والإعانة:

أصل الكتابة مشتقٌّ من الكُتْب وهو الجمع، ومنه سُمِّيَ الكتاب كتاباً، لأنه يجمع الحروف، وسُميت الكُتَيْبَةُ كُتَيْبَةً^(١)، لأنها تَجْمَعُ الجيش، وقد ورد في المعارف: أن حروف المُعْجَم أنزلت على آدم عليه السلام في إحدى وعشرين صحيفة، وسنذكر من ذلك طَرَفًا عند ذكرنا لأخبار آدم عليه السلام في فن التاريخ، فهذا اشتقاقها.

وأما شرفها - فقد نص الكتاب العزيز عليه، فقال تعالى - وهو أولُ ما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن بغار حراء^(٢) في شهر رمضان المعظم -: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: الآيات ١ - ٥]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: الآيات ١ - ٤]، وقال تعالى في وصف الملائكة: ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ (١١)﴾ [الانفطار: الآية ١١]، إلى غير ذلك من الآي.

ومن شرف الكتابة نزولُ الكتب المتقدمة مسطورةً في الصحف كما ورد في الصحف المنزلة على شِيث وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وداود وغيرهم صلى الله

(١) الكُتَيْبَةُ: القطعة الكبيرة من الجيش، من المائة إلى الألف. والجمع كتائب. وهي من الكُتْب أي الجمع. وكذا الكتاب لأنه عبارة عن جمع حروف. (ابن منظور، لسان العرب).

(٢) غار حراء: الغار: الكهف. حراء: جبل ثلاثة أميال من بكة، كان النبي يختلف على ذلك الكهف الموجود في جبل حراء ويتعبد فيه. (ابن منظور، لسان العرب، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤).

عليهم كما أخبر به القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (٢) [الأعلى: الآيتان ١٨، ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠]، وما ورد في الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة أنه مكتوب على العرش وعلى أبواب الجنة ما صورته: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكفى بذلك شرفاً.

وأما فوائدها: فمنها رسم المصحف الكريم^(١) الموجود بين الدفتين في أيدي الناس، ولولا ذلك لاختلف فيه ودخل الغلط وتداخل الوهم قلوب الناس.

ومنها رَقْمُ الأحاديث المروية عن النبي ﷺ التي عليها بُنِيَت الأحكام، وتَمَيَّزَ الحلال من الحرام، وضبطُ كتب العلوم المنقولة عن أعلام الإسلام وتواريخ مَنْ أنقرض من الأنام فيما سَلَفَ مِنَ الأيام.

ومنها حفظُ الحقوق، ومنعُ تمرد ذوي العقوق^(٢)؛ بما يقع عليهم من الشهادات ويُسَطَّرُ عليهم من السجلات التي أمر الله تعالى بضبطها بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَيْهِ أَجَلٌ مُسَمًّى فَاصْتُبُوهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢].

ومنها المكاتبَةُ بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة، إذ لا ينضبطُ مثلُ ذلك برسول، ولا تُنالُ الحاجةُ به بمشافهةٍ قاصدٍ، ولو كان على ما عساه عليه يكون من البلاغة والحفظ لوجود المشقة، وبُعد الشقة^(٣).

ومنها ضبطُ أحوال الناس، كمناشير الجند، وتواقيع العمال، وإدرات^(٤) أرباب الصلّات في سائر الأعمال، إلى ما يجري هذا المجرى، فكان وجودها في سائر الناس فضيلةً، وعدمها نقیصةً إلا في رسول الله ﷺ، فإنها إحدى معجزاته لأنه ﷺ أمي أتى بما أعجز البلغاء، وأخرس الفصحاء، وفَلَّ حَدَّ^(٥) المعارضين من

(١) المُصْحَفُ الكريم: القرآن. وقد سمي مصحفاً لأنه أُصحف أي جعل جامعاً للصُّحُفِ المكتوبة بين الدفتين. (لسان العرب، مادة صحف).

(٢) ذوو العقوق: منكرو الحقوق. من عق والده عقوقاً أي شق عصا طاعته. وعق والديه: قطعهما ولم يصل رحمه منهما. ورجل عقق وعق: عاق. (لسان العرب، مادة عقق).

(٣) الشقة: المسافة التي يقطعها المسافر؛ السفر البعيد؛ بعد مسير إلى الأرض البعيدة. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ [التوبة: الآية ٤٢]. (لسان العرب، مادة شقق).

(٤) إدرات: جمع إدراة، أي أعطية.

(٥) فَلَ حَدَّ المؤرخين: تفوق عليهم وغلبهم. يقال: فَلَ حَدَّ السيف: ثلمه؛ ويكون ذلك في المصاولة والمصارعة. (ابن منظور، لسان العرب).

غير مدارسة كتب ولا ممارسة تعليم، ولا مراجعة لمن عُرف بذلك وأشتهر به.

والكتابة العربية أشرف الكتابات لأن الكتاب العزيز لم يُرَقَم بغيرها خلافاً لسائر الكتب المنزلة. وهذه الكتابة العربية أول من اخترعها على الوضع الكوفي سكان مدينة الأنبار^(١)، ثم نُقل هذا القلم إلى مكة فَعُرِفَ بها، وتعلّمه من تعلّمه، وكثُر في الناس وتداولوه، ولم تزل الكتابة به على تلك الصورة الكوفية إلى أيام الوزير أبي علي بن مُقْلَة^(٢)، فعربّها تعريباً غير كافٍ، ونقلها نقلاً غير شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البوّاب^(٣)، فكمّل تعريبها، وأحسن تبويبها؛ وأبدع نظامها، وأكمل التثامها، وحلّاها بهجّة وجمالاً، وأولاها بل أولى بها مئة وإفضالاً؛ وألبسها من رَقَم أنامله حُللاً، وجلّاها للعيون فكان أول من أحسن في ترصيعها وترصيفها عملاً؛ ولا زال يتنوّع في محاسنها، ويتنوّع في ترصيع عقود ميامنها؛ حتى تَفَرَّزت على أجمل قاعدة، وتَحَرَّرت على أكمل فائدة؛ وسنزيد ما قدّمناه من هذه الفصول وضوحاً وتبياناً، ونُقيّم على تفصيل مُجْمَلِها وبسط مُدْمَجِها أدلّة وبرهاناً.

ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام: وهي كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان والتصرف، وكتابة الحكم والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم؛ ومنهم من عَدّ في الكتابة كتابة الشُرط^(٤)، ولم نُرد ذكرها تنزيهاً لكتابنا عنها، ولا حكمة في إيرادها.

(١) الأنبار: مدينة عراقية تبعد عن بغداد عشرة فراسخ أول من عمرها سابور بن هرمز ملك الفرس، وسماها فيروز سابور، ثم جددها أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين وأطلق عليها اسم الأنبار، وجعلها عاصمة الدولة إلى أن تأسست بغداد. (ياقوت، معجم البلدان ج ١، ص ٢٥٧، ط. دار صادر، ١٩٨٤).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلّة (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ) استورزه الخلفاء العباسيون، ولم يوفق في وزارته فسجن وقطعت يمينه. اهتم بالخط ونقل الكتابة من الخط الكوفي إلى الخط النسخي، وأبرزها في هذه الحلة الحسنة، فكان له فضل السبق. وكان شاعراً وناثراً. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٩٨ - ٢٠١).

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال الكاتب المشهور. هذب طريقة ابن مقلّة في الخط وحسنها. عرف بابن البوّاب لأن أباه كان بواباً؛ وعرف أيضاً بابن الستري، لأن البوّاب يلازم ستر الباب توفي في بغداد سنة ٤١٣ هـ أو ٤٢٣ هـ. (ابن خلكان، الوفيات، ج ٣، ص ٢٨ - ٢٩).

(٤) الشُرط: جمع الشرطي، وهو رجل الأمن. دعوا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات مميزة يعرفون بها. (لسان العرب مادة شرط).

ولنبداً بذكر كتابة الإنشاء وما يتعلق بها.

ذكر كتابة الإنشاء وما أشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع في المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز؛ والتلعب بالألفاظ والمعاني والتوصل إلى بلوغ الأغراض والأمانى

ولنبداً من ذلك بوصف البلاغة وحدها والفصاحة:

فأما البلاغة - فهي أن يُبلِّغ^(١) الرجل بعبارته كنه ما في نفسه. ولا يسمّى البليغ بليغاً إلا إذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل، وهو المسمّى إيجازاً.

وينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز حذف، وهو أن يُحذف شيء من الكلام وتدلُّ عليه القرينة، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: الآية ٨٢] والمراد أهل القرية وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] والمراد ولكن البرُّ برٌّ من اتقى، وكقوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] والمراد من قومه، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤] والمراد لا يطيقونه؛ ونظائر هذا وأشباهه كثير.

وإيجاز قَصْر، وهو تكثير المعنى وتقليل الألفاظ، كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ما جُمع فيه شرائط الرسالة: ﴿فَأَصْدَقْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: الآية ٩٤] وسمع أعرابي رجلاً يتلوها فسجد وقال: سجدت لفصاحته، ذكره أبو عبيد. وقوله تعالى مما جُمع فيه مكارم الأخلاق: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [٢٠] ﴿أَلَا تَقْلُوبُوا عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [٢١] [الثمل: الآيتان ٣٠، ٣١] فجمع في ثلاث كلمات بين العنوان والكتاب والحاجة؛ وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الثمل: الآية ١٨] فجمع في هذا على لسان النملة بين النداء والتنبيه والأمر والنهي والتحذير والتخصيص والعموم والإشارة والإعذار؛ ونظير ذلك ما حكي عن الأصمعي^(٢) أنه سمع جارية تتكلم فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك!

(١) البلاغة: من بلغ الشيء، أي وصل إليه. وقد سبق الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول، الفصل الثاني، إلى هذا التعريف. وهو يختلف عن النويري في أنه لا يجعل الإيجاز أساساً للبلاغة، بل المساواة.

(٢) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب الباهلي (١٢٣ - ٢١٦ هـ). كان راوية للشعر والأخبار =

فَقَالَتْ: أَوْ يَعُدُّ هَذَا فَصَاحَةً بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ أَنِ ارْضَعِي فِي إِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ فِي الْيَدِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [الفَصَص: الآية ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [التحل: الآية ٩٠] قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمُعْدِقٌ^(١)، وإن أعلاه لمُثْمِرٌ، ما يقول هذا بَشْرٌ.

وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَحِيئًا﴾ [يوسف: الآية ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان أسم جامع لكل ما كَشَفَ لك من قناع المعنى، وهَتَكَ الحجاب عن الضمير، حتى يُفْضِيَ السامع إلى حقيقة اللفظ ويَهْجُم على محصله كائناً ما كان^(٢).

وقيل لجعفر بن يحيى^(٣): ما البيان؟ فقال: أن يكون اللفظ مُحِيطًا بمعناك كاشِفًا عن مَغْزَاك، وتخرجه من الشُّرْكة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليماً من التَّكَلُّف، بعيداً من سوء الصنعة، بريئاً من التعقيد، غَنِيًّا عن التأمل.

= ولغوياً كبيراً. أُلِفَ عددًا من الكتب أهمها كتاب الألفاظ، وكتاب النوادر، وكتاب أصول الكلام. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٤).

(١) مغدق: كثير الماء. من الغدق: المطر الكثير العام. وغَيْدَقَ المطر: كثر. والغدق أيضاً الماء الكثير وإن لم يكن مطراً. من غَدِقَ: غزر وكثر. (لسان العرب، مادة غدق).

(٢) وقع بعض التحريف في كلام الجاحظ. وهاك هو النص الوارد في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول (الصفحة ٨٢، من طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت سنة ١٩٨٨، الطبعة الأولى): «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليه القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع.

وواضح أن ثمة فرقاً كبيراً بين القول «حتى يفضي السامع إلى حقيقة اللفظ»، والقول «حتى يفضي السامع إلى حقيقته». فالجاحظ يعني حقيقة المعنى، وليس حقيقة اللفظ.

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. وزر لهارون الرشيد وعظمت منزلته عنده، وزوجه أخته العباسية. ولكنه غضب عليه أخيراً فقتله ونكب أسرته. كان جواداً ذواقاً للأدب والشعر. توفي في بغداد سنة ١٨٧هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢ - ٣٠٥).

وقال آخر: خير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ليسرّع إلى الفهم تلقّيه، وموجّزًا ليخفّ على اللسان تعاهده.

وقال أعرابي: البلاغة التقرب من معنى البُغية، والتبّعُد من وحشي الكلام وقرب المأخذ، وإيجاز في صواب، وقصد إلى الحجة، وحسن الاستعارة. قال علي رضي الله عنه: البلاغة الإفصاح عن حكمة مُستغلّقة، وإبانة علم مُشكِل.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عورات الجهالات، بأحسن ما يمكن من العبارات.

وأما الفصاحة: فهي مأخوذة من قولهم: أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة. وقالوا: لا يسمّى الفصيح فصيحاً حتى تخلّص لغته عن اللكنة الأعجمية ولا توجد الفصاحة إلا في العرب. وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في المعاني، ويستدلّون بقولهم: لفظ فصيح، ومعنى بليغ. ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد في الألفاظ والمعاني والأكثرين عليه.

ذكر صفة البلاغة

قيل لعمر بن عبّيد^(١): ما البلاغة؟ قال: ما بلغك الجنة، وعدّل بك عن النار؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فما بصرك مَوَاقِعَ رُشدك وعواقب غيِّك؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يُحسن أن يسكت لم يُحسن أن يسمّع، ومن لم يُحسن أن يسمع لم يُحسن أن يسأل، ومن لم يُحسن أن يسأل لم يُحسن أن يقول؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي ﷺ: «إنا معشر النّبيّين بكاء» - أي قليلو الكلام، وهو جمع بكىء - وكانوا يكرهون أن يزيد منطوق الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فكأنك تريد تخيّر اللفظ في حسن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسنة رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالمواعظ الناطقة عن الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب.

(١) هو عمرو بن عبّيد بن باب، المتكلم المعتزلي الزاهد المشهور. تتلمذ على الحسن البصري ثم انفصل عنه مع رفيقه واصل بن عطاء وأسس مذهب الاعتزال. عرف بسعة علمه وتقاه؛ كان يدخل على المنصور ويعظه ولكنه لا يقبل عطاياه. توفي سنة ١٤٢ هـ فرثاه المنصور. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٣٢).

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل^(١). وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: ألا يؤتى القائل من سوء فهم السامع، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل.

وقيل للخليل بن أحمد^(٢): ما البلاغة؟ فقال: ما قُرْب طَرَفَاه، وبُعْد منتهاه. وقيل لبعض البلغاء: من البليغ؟ قال: الذي إذا قال أسرع، وإذا أسرع أبدع وإذا أبدع حرك كل نفس بما أودع.

وقالوا: لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك.

وسأل معاوية صُحارًا العبدي^(٣): ما هذه البلاغة؟ قال: أن تجيب فلا تبطيء وتصيب فلا تخطيء.

وقال الفضل: قلت لأعرابي: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل.

وقال قدامة^(٤): البلاغة ثلاثة مذاهب: المساواة وهو مطابقة اللفظ المعنى لا زائدًا ولا ناقصًا؛ والإشارة وهو أن يكون اللفظ كاللمحة الدالة؛ والدليل وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، ليظهر لمن لم يفهمه، ويتأكد عند من فهمه.

قال بعض الشعراء: [من الكامل]

يَكْفِي قَلِيلَ كَلَامِهِ وَكَثِيرَهُ بَيْتٌ إِذَا طَالَ التَّضَالُ مُصِيبٌ

(١) نسب الجاحظ هذا التحديد للفرس. يقول: قيل للفراسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. (البيان والتبيين، ج ١، ص ٩١).

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، عبقرى مذ وضع أسس عدة علوم عربية هي النحو والمعجم والعروض والموسيقى. أمد سيبويه تلميذه بعلم النحو، وألف معجم «العين»، وكتاب العروض الذي تضمن خمسة عشر بحرًا. ولم يُصَفَ عليها سوى بحر واحد ابتكره الأخفش هو الخبيب. توفي سنة ١٧٥ هـ.. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٥ - ١٩).

(٣) هو صحرار بن عياش العبدي (٤٠ هـ) كان عالمًا بالأنساب وخطيبًا مصفعا. وقد سبق الجاحظ إلى ذكر رأيه في البلاغة مع شيء من التوسيع. (البيان والتبيين، ج ١، ص ٩٨).

(٤) هو قدامة بن جعفر، عاش في القرن العاشر الميلادي، ووضع كتبًا في النقد والبلاغة والمنطق أهمها كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وقد طبع حديثًا، وكتاب جواهر الألفاظ. عاصر المكتفي بالله العباسي، وتوفي في بغداد سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م. (الزركلي، الأعلام).

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد: البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكل وجه منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ورب إشارة أبلغ من لفظ^(١).

وقال رجل للعنابي^(٢): ما البلاغة؟ قال: كل ما أبلغك حاجتك، وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حُبسة ولا أَسْتَعَانَة فهو بليغ؛ قالوا: قد فهمنا الإعادة والحُبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع الكلام: اسمع متي، وأفهم عني، أو يمسح عُثُونَه، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته، أو يسأل من غير سُعلة، أو ينهر في كلامه.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

مليءٌ ببُهر والتفاتٍ وسُعلةٍ ومَسحةٍ عُثُونٍ وفتلِ الأصابعِ

ومن كلام أحمد بن إسماعيل الكاتب المعروف بنطاحة^(٣)، قال: البليغ من عرف السقيم من المعتل، والمقيّد من المطلق، والمشارك من المفرد، والمنصوص من المتأول، والإيماء من الإيحاء، والفصل من الوصل، والتلويح من التصريح.

ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يُقَلّ الحزّ ويطبّق المَفْصِل. وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجز الذي يُقَلّ الكلام ويصيب نصوص المعاني بالجزّار الرفيق الذي يقلّ حزّ اللحم ويصيب مفاصله؛ وقولهم: يضع الهناء مواضع الثقب، أي لا يتكلم إلا فيما يجب الكلام فيه. والهناء: القطران. والثقب: الجرب. وقولهم: قرطس فلان فأصاب الغرّة، وأصاب عين القرطاس. كل هذه أمثال للمصيب في كلامه الموجز في لفظه.

(١) جعل الجاحظ أدوات البيان خمساً أي بإضافة واحدة على التي أوردها النويري هي الحساب. وقد استبدل النويري الدلالة بالنُصْبَة التي استعملها الجاحظ. (البيان والتبيين، ج ١، الفصل الأول).

(٢) العنابي: هو كلثوم بن عمر، شاعر ومتكلم معتزلي. غضب عليه الرشيد فهرب إلى اليمن. وعاد إلى بغداد في عهد المأمون، وتوفي فيها سنة ٨٢٣ م والنص موجود في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول.

(٣) هو أبو علي أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخصب، عرف بابن نطاحة، واشتهر بالكتابة والأدب. كان كاتب عبد الله بن طاهر، وقتله محمد بن طاهر؛ أهم كتبه «ديوان الرسائل» و«طبقات الكتاب» و«صفة النفس». (الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٦، بيروت ١٩٨٤).

فصول من البلاغة

قيل: لما قدم قُتيبة بن مسلم^(١) خراسانَ واليًا عليها، قال: من كان في يده شيء من مال عبد الله بن حازم فليُنِذَهِ، ومن كان في فيه فليُلفِظْهُ، ومن كان في صدره فليُنْفِثْهُ. فعجِبَ الناس من حُسن ما فُصِّلَ.

وكتب المعتصم إلى ملك الروم جوابًا عن كتاب تهَدَّدَ فيه: الجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾ [الرَّعد: الآية ٤٢].

وقيل لأبي السَّمال الأسدي أيام معاوية: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهي. وقيل لشبيب بن شَبَّة عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الدخال راجيًا، والخارج راضيًا.

وقال حسن بن ثابت في عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: [من الطويل]
إذا قال لم يترك مقالًا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فضلًا
وكفى وشفى ما في النفوس فلم يدع لذي إربة في القول جدًّا ولا هزلًا
قال سهل بن هارون^(٢): البيان ترْجُمانُ العقول، وروض القلوب؛ البلاغة ما فهمته العامة، ورضيَّته الخاصة؛ أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظه؛ خير الكلام ما قلَّ وجلَّ، ودلَّ ولم يُمَلِّ؛ خير الكلام ما كان لفظه فحلًّا، ومعناه بكَرًّا.

وقال ابن المعتز^(٣): البلاغة أن تبْلُغَ المعنى ولم تُطِلْ سَفَرَ الكلام؛ خير الكلام ما أسفر عن الحاجة؛ أبلغ الكلام ما يؤنس مَسْمَعه، ويؤنس مَضِيعه؛ أبلغ الكلام ما

(١) هو قُتيبة بن مسلم الباهلي. ولَّاه عبد الملك بن مروان على خراسان، فأقام فيها ثلاث عشرة سنة بعد المهلب بن أبي صفرة. وفتح خوارزم وسمرقند وبخارى. ولما ولي سليمان بن عبد الملك خرج عليه قُتيبة فانقلب جنده عليه وقتلوه بفرغانة سنة ٩٦ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٩ - ٢٥٣).

(٢) سهل بن هارون (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) كاتب وشاعر فارسي الأصل شعوبي النزعة، عاصر الجاحظ (٢٥٥ هـ) وأورد له رسالة في كتاب البخلاء يمدح فيها البخل. كما ذكره مرارًا في كتاب البيان والتبيين مستشهدًا بأقواله في البيان والبلاغة. وله مؤلف اسمه «تعلّة وعفرة» على غرار كتاب كليلّة ودمنة ألفه للمأمون الذي قدمه وعينه رئيسًا لخزانة الحكمة. (الزركلي، الأعلام).

(٣) هو عبد الله بن المعتز (٢٤٦ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٨ م). شاعر ونائر وناقد، امتاز شعره بسهولته وسلاسته. بويح بالخلافة فلم يمكث في سُدتها سوى يوم واحد إذ قتله القواد الأتراك. أهم كتبه «البدیع» و«السرقاّت» و«طبقات الشعراء». (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٧٠).

حُسْن إيجازُه، وقلَّ مجازُه، وكثر إعجازُه، وتناسبت صدورُه وأعجازُه؛ البلاغة ما إشار إليه البحرِيُّ حيث قال: [من الخفيف]

* وركبن اللَّفْظَ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد *

جُمَل من بلاغات العجم وحكمها

قال أبرويزُ لكتابه: إذا فُكِّرْتَ فلا تَعَجَّل، وإذا كُتِبْتَ فلا تَسْتَعِزْ بالفضول فإنها علاوةٌ على الكفاية، ولا تَقْصُرْ عن التحقيق فإنها هُجْنَةٌ في المقالة، ولا تُلبِسْ كلامًا بكلام، ولا تَبَاعِدَنَّ معنى عن معنى، وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. ووافق كلامه قولُ أبْنِ المعتزِّ: ما رأيت بليغًا إلا رأيت له في المعاني إطالةً وفي الألفاظ تقصيرًا. وهذا حُتٌّ على الإيجاز. وقال أبرويزُ أيضًا لكتابه: اعلم أن دعائم المقالات أربع إن التمس إليها خامسةً لم توجد، وإن نقص منها واحدة لم تتم وهي سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء؛ فإذا طلبت فأنجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقِّق^(١).

وقال بهرام جُور: الحُكْم ميزان الله في الأرض. ووافق ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ أَلْمِيزَانَ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ٧] وقال أنوشروان لابنه هُرمُز^(٢): لا يكون عندك لعمل البر غايةً في الكثرة، ولا لعمل الإثم غايةً في القلة. ووافق من كلام العرب قولُ الأفوه^(٣): [من البسيط]

والخير تزداد منه ما لقيت به والشر يكفيك منه قلما زاد

وقال أزدشير بن بابك: من لم يرض بما قسم الله له طالت مَعَتِبَتُهُ، وفُحْش جِرْصُهُ، ومن فحش جِرْصه ذَلَّتْ نَفْسُهُ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ الحسد، ومن عَلَبَ عَلَيْهِ الحسدُ لم يزل مغمومًا فيما لا ينفعه، حزينًا على ما لا يناله. وقال: من شغل نفسه بالمني لم يَخْلُ قلبه من الأسى.

وقال بعضهم: الحقوق أربعة: حقُّ الله، وقضاؤه الرضا بقضائه، والعمل

(١) حقق: فتنش عن الحقيقة، وتحري صحة الأخبار.

(٢) أبرويز وبهرام جور وأنوشروان وهرمز، من سلاطين آل ساسان الفرس قبل الفتح الإسلامي. ذكرهم مؤرخو العرب في كتبهم أمثال الطبري والمسعودي. (تويني، تاريخ البشرية، ج ٢ ص ٤٢ - ٤٥).

(٣) هو الأفوه الأودي صلاة بن عمرو بن مَذْحِج، ويكنى أبا ربيعة. (الشعر والشعراء، ص ١٢٩).

بطاعته، وإكرام أوليائه؛ وحقٌ لنفسك، وقضاؤه تعهدها بما يصلحها ويصحبها ويحسب موادَّ الأذى عنها؛ وحقٌ للناس، وقضاؤه عمومهم بالمودة، ثم تخصيص كلِّ أمرٍ من منعمهم بالتوقير والتفضيل والصلة؛ وحقٌ للسلطان، وقضاؤه تعريفه بما خفي عليه من منفعة رعيّة، وجهادٍ عدوٍّ، وعمارة بلد، وسدِّ ثغر. وقال بُزْجُمَهْر^(١): إلزام الجهول الحجة سِير، وإقراره بها عسير.

صفة الكاتب وما ينبغي أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم بن محمد الشيباني: من صفة الكاتب اعتدالُ القامة، وصغرُ الهامة وخفةُ اللهازم^(٢)، وكثافة اللحية، وصدقُ الحس، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل وخطفُ الإشارة، وملاحاةُ الرّي. وقال: من كمال آلة الكاتب أن يكون بهيِّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرَ المروءة، عطرَ الرائحة، دقيقَ الذهن، صادقَ الحسِّ حسنَ البيان، رقيقَ حواشي اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الاستعارة، لطيفَ المسلك مُستقرّةَ المركب^(٣)، ولا يكون مع ذلك قُضْفاضُ الجُتّة، متفاوتُ الأجزاء، طويلَ اللحية عظيمَ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفتنة.

قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وَشَمُول^(٤) كأنما أعتصروها من معاني شمائل الكتاب

هذا ما قيل في صفة الكاتب.

وأما ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه، فقد قال إبراهيم الشيباني: أوّل ذلك حسنُ الخط الذي هو لسان اليد، وبهجةُ الضمير، وسفيرُ العقول، ووحْيُ الفكر، وسلاحُ المعرفة، وأُسُّ الإخوان عند الفرقة، ومحادثتهم^(٥) على بُعد المسافة ومستودعُ السِرِّ، وديوانُ الأمور.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: الآية ١]: إنه الخط

(١) بزرجمهر: حكيم فارسي، وزر لكسرى ولكن الملك غضب عليه فقتله. ذكره ابن المقفع ونسب إليه باباً من أبواب كلیلة ودمنة يبين فضله في رعاية العلم ونقل الحكمة من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي. ونظم خليل مطران قصيدة رائعة عنوانها «مصرع بزرجمهر».

(٢) اللهازم: جمع لهزمة، أي أصل الحنك. (٣) مستقرّة المركب: قحم المركب وكريمه.

(٤) شمول: الخمر.

(٥) محادثتهم: يعني بها مراسلتهم.

الحسن.

وقد اختلف الكتاب في نَقْطِ الخطِّ وشكْلِهِ، فمنهم من كَرِهَهُ.

قال سعيد بن حُمَيْد الكاتب:

لأنَّ يُشَكِّلَ الحرفُ على القارئ أحبُّ إليَّ من أن يعابَ الكاتب بالشكل.
وعُرضَ خطُّ عليّ عبد الله بن طاهر^(١) فقال: ما أحسنه لولا أنه أكثر
شُوْنِيْزُهُ^(٢).

ونظر محمد بن عباد إلى أبي عُبيد وهو يقيّد البسملة فقال: لو عرّفته ما شكّلته.
ومنه من حمّده فقال: حلّوا عواطلَ الكتب بالتحديد، وحصّنها من شبهِ التصحيف
والتحريف.

وقيل: إعجامُ الكتب يَمْنَعُ من أستعجامها، وشكلُها يصونها عن إشكالها.

قال الشاعر^(٣): [من الكامل]

وكانَ أَحْرَفَ خطّه شَجَرٌ والشكلُ في أغصانه ثَمَرُهُ

وأما ما قيل في حسن الخطِّ وجودةِ الكتابةِ ومدحِ الكُتّابِ والكِتابِ.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسن يزيد الحق وضوحًا.

وقال: حُسن الخطِّ إحدى البلاغتين.

وقال عُبيد الله بنُ العباس: الخط لسان اليد. وقال جعفر بن يحيى: الخطُّ
سِمْنُطُ^(٤) الحكمة، به تُفَصِّلُ شذوْرُها، ويَنْتَظِمُ منشوْرُها؛ وقال أبو هلال العسكري^(٥):
[من الكامل]

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي. كان سيّدًا نبيلًا عالي الهمة
شهيمًا اعتمد عليه المأمون وولاه الدينور وحارب الخوارج في خراسان، كما تولى الشام مدة
ومصر مدة. وكان إلى ذلك أدبيًا ظريفًا وجيد الغناء. توفي في نيسابور سنة ٢٣٠ هـ. (ابن
خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٧١ - ٢٧٥).

(٢) شُوْنِيْزُهُ: الحبة السوداء (فارسية).

(٣) الشاعر هو أحمد بن إسماعيل بن نطاحه. وقد مرت ترجمته في هامش الصفحة ٩.

(٤) السِّمْنُطُ: خيط النظم، الجمع سموط.

(٥) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، أديب وناقد ولغوي، اشهر كتبه «كتاب الصنائع
أي الشعر والنثر. نسبته إلى عسكر مُكرّم في الأهواز، توفي سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م.
(الزركلي، الأعلام).

الكُتُبُ عَقْلُ شُورادِ الكَلَمِ والخَطُّ خَيْطُ في يَدِ الحِكَمِ
والخَطُّ نَظَمُ كُلِّ مُنْتَشِرٍ منها وَقَصَلُ كُلِّ مُنْتَظَمِ
والسَيْفُ وَهُوَ بِحَيْثُ تَعْرِفُهُ فَرَضُ عَلَيْهِ عِبَادَةُ القَلَمِ

وقد اختلف الناس في الخط واللفظ، فقال بعضهم: الخط أفضل من اللفظ لأن اللفظ يفهم الحاضر، والخط يفهم الحاضر والغائب.

قالوا: ومن أعاجيب الخط كثرة اختلافه والأصل فيه واحد، كاختلاف صور الناس مع اجتماعهم في الصبغة. قال الصولي^(١): سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة؟ قال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولاؤه؛ وأستقامت سطورُه، وضاهى صعودُه حدودُه؛ وتفتحت عيونه، ولم تشبه راؤه ونونه؛ وأشرق قرطاسُه، وأظلمت أنقاسُه^(٢)، ولم تختلف أجناسُه؛ وأسرع إلى العيون تصوُّرُه، وإلى القلوب ثمرُه؛ وقُدرت فصولُه، وأندمجت وُصولُه، وتناسب دقيقُه وجليلُه؛ وتساوت أطناهُ، وأستدارت أهدابُه؛ وخرج عن نَمَطِ الوراقين، وبعد عن تصنع المحررين؛ وقام لكتابه مقام النسبة والجلية وكان حينئذ كما قلتُ في صفة الخط: [من المتقارب]

إذا ما تَخَلَّلَ قَرطاسَه وساوره القَلَمُ الأَرَقَشُ^(٣)
تَضَمَّنَ مِنْ خَطِّه حُلَّةً كمثل الدنانير أو أنقَشُ
حروف تكون لعين الكَلِيلِ نشاطاً ويقرؤها الأَخْفَشُ^(٤)

وقال ابن المعتز: [من الطويل]

إذا أخذ القَرطاسَ خِلَتَ يَمِينُهُ تُفَتِّحُ نَوْرًا أو تَنظُمُ جَوْهَرًا

وقيل لبعضهم: كيف رأيت إبراهيم الصولي^(٥)؟ فقال: [من البسيط]

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول. وصول جده الأبعد وإليه ينسب وليس إلى بلدة صول المعروفة. أديب كبير اتصل بالخلفاء وندمهم ولعب وإياهم الشطرنج كالراضي والمقتدر والمكتفي. أهم تصانيفه «أدب الكاتب»، «أخبار أبي تمام»، «أخبار السيد الحميري»، «أخبار القرامطة». توفي سنة ٣٣٦ هـ بالبصرة. (الأعلام، للزركلي).

(٢) أنقاس: جمع نقس، وهو المداد. (٣) الأرقش: الذي فيه نقط سوداء وبياض.

(٤) الأخفش: الضعيف البصر.

يؤلف اللؤلؤ المنشور منطوقه وينظم الدرّ بالأقلام في الكتب
وقال آخر^(١): [من السريع]

أضحكت قرطاسك عن جنة مسودة سطحًا ومبيضة
أرضًا كمثّل الليلة المقمرة
وقال آخر: [من الطويل]

كتبت فلولا أن هذا مُحلّل فوالله ما أدري أزهرُ خميلة
وذاك حرامٌ قستُ خطك بالسحر بطرسك أم درّ يلوح على نحر^(٢)
فإن كان زهرًا فهو صنع سحابة وإن كان درًا فهو من لُجج البحر
وقال آخر: [من السريع]

وكاتب يرُقّم في طريسه فالدّر ما تنظّم أقلامه
روضًا به ترتع الحاظه والسحر ما تنيرُ ألفاظه
وقال آخر: [من البسيط]

وشادن من بني الكتاب مقتدر على البلاغة أحلى الناس إنشاء
فلا يجاريه في مَيدانه أحد يريك سحبان في الإنشاء إن شاء^(٣)
وقال آخر: [من البسيط]

إن هزّ أقلامه يومًا ليُغمِلها أنساك كلّ كمي هزّ عامله^(٤)
وإن أمرّ على رقّ أنامله أقرّ بالرقّ كتاب الأنامله^(٥)

(١) هو أبو العباس بن محمد بن صول. أحد الشعراء المجيدين. وله نثر بديع. اتصل بالفضل بن سهل، ذي الرئاستين، وتولى الكتابة في الدواوين حتى وفاته بسرّ من رأى سنة ٢٤٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٥ - ٢٩).

(٢) هو أحمد بن إسماعيل المعروف بابن نطاحة، كما جاء في أدب الكتاب (مرت ترجمته على هامش الصفحة ٩).

(٣) الطرس: جمع أطراس وطروس، الصحيفة.

(٤) سحبان: هو سحبان وائل، ضرب به المثل في البيان البلاغة والخطابة، ترجم له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين في أماكن عدة، ما ذكره في كتاب الحيوان، المقدمة في مدح الكتب.

(٥) عامل الرمح: وسطه.

(٦) الرق: (١) الصحف يكتب عليها؛ (٢) العبودية.

وقال أبو الفتح كُشاجِم^(١): [من الخفيف]

وَإِذَا نَمْنَمْتُ بِنَائِكَ خَطًّا مُغْرِبًا عَنْ بِلَاغَةِ وَسَادِ
عَجِبَ النَّاسُ مِنْ بَيَاضِ مَعَانٍ تُجْتَنَّى مِنْ سَوَادِ ذَلِكَ الْمِدَادِ

وقال الممشوق^(٢) الشامي شاعر اليتيمة: [من المنسرح]

لَا يُخْطِرُ الْفِكْرَ فِي كِتَابَتِهِ كَأَنَّ أَقْلَامَهُ لَهَا خَاطِرُ
الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ يَجْرِيَانِ مَعًا لَا أَوَّلَ فِيهِمَا وَلَا آخِرُ

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الكتاب نعم الذخر والعُقْدة^(٣)، ونعم المجلس والعمدة، ونعم النُشْرة^(٤) والنُّزْهة، ونعم المُشْتَغَلُ والجِرْفَة، ونعم الأنيس ساعة الوُحدة ونعم المعرفة ببلاد الغُربة، ونعم القَرين والدُّخيل، والوزيرُ والنَّزِيلُ؛ والكتاب وعاء مُلِيء علمًا، وظَرْفُ حُشْيِي ظَرْفًا، وإنَاء شُجْنٍ مُزَاحًا وَجْدًا، إن شئتَ كان أُتِينَ من سَحَابٍ وَاثِلٍ، وإن شئتَ كان أَعْيَا من بَاقِلٍ^(٥)، وإن شئتَ ضَحَكْتَ من نوادره وَعَجِبْتَ من غرائب فوائده، وإن شئتَ أَلْهَيْتَكَ نوادره، وإن شئتَ شَجَّحْتَكَ مَوَاعِظُهُ وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهِ، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرَسَ، وببارد حَارَ وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ، وبرومي هِنْدِيٍّ، وفارسي يُونَانِيٍّ، وبقديم مُؤَلَّدٍ، وبميت مُمْتِعٍ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَالنَاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ وَالرَفِيعَ وَالْوَضِيعَ، وَالْغَثَّ وَالسَّمِينِ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضِدَّهُ؛ وَبَعْدَ: فَمَتَى رَأَيْتَ بَسْتَانًا يُحْمَلُ فِي رُذْنٍ^(٦)؟ وَرَوْضَةٌ تُقَلَّبُ فِي حِجْرٍ؟ يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ، وَيَتَرَجَّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ، وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنَسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهَوَّى، «أَمِنْ مِنَ الْأَرْضِ» وَأَكْتُمُ لِلْسَرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَأَضْبِطْ لِحِفْظِ الْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْوَدِيعَةِ، وَأَحْضِرْ لِمَا أَسْتَحْفِظُ مِنَ الْأُمِّيِّينَ، وَمِنْ الْأَعْرَابِ الْمَغْرِبِيِّينَ، بَلْ

(١) هو أبو الفتح محمود كُشاحم السندي، عمل طبَّاخًا في بلاط سيف الدولة الحمداني، وتعاطى التنجيم، وتوفي سنة ٩٦١ م. له كتاب «أدب النديم» الذي طبع في القاهرة سنة ١٨٠٣ م. ونسب إليه كتب البزيرة» في الصيد وهو مخطوط في غوط. (المنجد).

(٢) الممشوق أو المشوق الشامي هو عبد المحسن بن محمد الصوري. (اليتيمة، ج ١، ص ٢٣٥، المطبعة الحنفية). لعله عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري، ولد وعاش ومات في صور.

(٣) العقدة: ما يحفظ به الإنسان ويحكم إغلاقه.

(٤) النشرة الرقية التي يعالج بها المريض، سميت نشرة لأنها تنشر الداء وتكشفه وتزيله.

(٥) شخص ضرب به المثل بالعي. (٦) الرذن: أصل الكم، جمعه أردان.

من الصَّبيان قبل أعتراض الأشغال، ومن العُميان قبل التَّمَتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العناية تامة لم تُنْتَقِصْ والأذهانُ فارغة لم تُقْتَسَمْ، والإراداتُ وافرة لم تتشعب، والطينةُ لينة فهي أَقْبَلُ ما تكون للطابع، والقضيْبُ رَطْبُ فهو أَقْرَبُ ما يكون للغُلُوق، حينَ هذه الخصالُ لم يُلْبَسْ جديدها، ولم تتفرَّقْ قواها، وكانت كقول الشاعر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكَّنَا

وقال ذو الرُّمَّة^(١) لعيسى بن عمَر^(٢): أَكْتُبْ شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ لأن الأعرابي يَنْسَى الكلمة قد تعب في طلبها يوماً أو ليلة، فيضع موضعها كلمة في وزنها لم يُنْشِذْها الناس، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدَلُ كلاماً بكلام. قال: ولا أعلم جازاً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقلَّ خيانةً، ولا أقلَّ إبراماً وإملاًلاً، ولا أقلَّ خلافاً وإجراماً ولا أقلَّ غيبةً، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرفاً، ولا أقلَّ صلَفاً وتكلفاً، ولا أبعدَ من مراء، ولا أترك لشُعب، ولا أزهدَ في جدال، ولا أكفَّ عن قتال من كتاب؛ ولا أعلم شجرة أطول عمراً، ولا أجمعَ أمراً، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجْتَنئى ولا أسرعَ إدراكاً، ولا أوجدَ في كلِّ إِيَّانٍ^(٣) من كتاب؛ ولا أعلم نَتَاجاً في حادثة سنّه وقرب ميلاده، وحضور ذهنه. وإمكان موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب؛ وقد قال الله تبارك اسمه لنبيه ﷺ: ﴿أَتَرَأَى رُبَّكَ الْأَكْرَمَ ۖ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ﴾ [العلق: الآيتان ٣، ٤] فوصف نفسه تعالى جَدّه بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، وأعتد ذلك من نعمه العظام، وفي أيّاديه الجِسام^(٤).

(١) ذو الرُّمَّة: هو الشاعر غيلان بن عتبة، بدوي تردد على البصرة والكوفة، وأغرم بحب مية وشيب بها، وعاصر جرير أو الفرزدق. وترك ديوان شعر يحوي ثلثي لغة العرب. توفي سنة ١١٧هـ ودفن في البادية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٩).

(٢) عيسى بن عمر: هو أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري. عرف بتقصيره في كلامه واستعمال الغريب فيه، وبقراءته. أخذ عنه سيويه النحو وقد ألف فيه كتاباً سماه «الجامع» وأخذ عنه الخليل بن أحمد والأصمعي القراءات. توفي سنة ٢٤٩هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٤).

(٣) الإيَّان: الوقت والحين.

(٤) هذا النص مستل من كتاب الحيوان للجاحظ مع شيء من التصرف. وقد ورد في الجزء الأول =

ذكر شيء مما قيل في آلات الكتابة

قال إبراهيم بن محمد الشَّيباني فيما يحتاج إليه الكاتب :

من ذلك أن يصلح الكاتب آلبه التي لا بدَّ منها، وأداته التي لا تتمُّ صناعته إلا بها، وهي دواته، فلينعم ريتها وإصلاحها، ثم يتخير من أنابيب القصب أقله عُقْدًا وأكثفه لحماً، وأصلبه قشراً، وأعدله استواءاً، ويجعل لقرطاسه سكيناً حاداً لتكون عوناً له على بري أقلامه، ويبريها من جهة نبات القصب، فإن محلَّ القلم من الكاتب كمحلَّ الرمح من الفارس. وقد حصَّ الفضلاء القلم بأوصاف كثيرة، ومزايا خطيرة فلنذكر منها طرَفًا.

ذكر شيء مما قيل في القلم

قال الله تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: الآية ١]، وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [الزمر: ١٧]، ﴿الْعَلَقِ﴾ [العلق: الآيتان ٣، ٤].

وقال الحكماء: القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرِّ القلوب. وقالوا: عقول الرجال تحت أسنة أقلامها. ينوء^(١) الأقلام يصوب غيث الحكمة. القلم صائغ الكلام، يُفرِّغ ما يجمعه القلب، ويصوغ ما يسبكه اللب.

وقال جعفر بن يحيى: لم أر باكيًا أحسنَ تبسمًا من القلم.

وقال المأمون: لله درَّ القلم كيف يحوك وشي المملكة!

وقال ثُمَامَةُ بن أَشْرَس^(٢): ما أثمرته الأقلام، لم تطمع في درسه الأيام. بالأقلام تُدبَّرُ الأقاليم. كتاب المرء عنوان عقله، ولسان فضله. عقل الكاتب في قلمه.

وقال ابن المعتز: القلم مُجَهَّزٌ لجيوش الكلام، يُخَدِّمُ الإرادة كأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتح نوار بستان.

= فيه، وفي المقدمة، وفي الصفحة ٣٢ - ٣٥ من طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت الأولى، سنة ١٩٨٦.

(١) النوء: النجم إذا مال للمغيب، جمعه أنواء ونوآن، أو المطر وكانوا يعتقدون أن الأمطار والرياح والبرد تتعلق بحركة الأنواء أو النجوم.

(٢) ثُمَامَةُ بن أَشْرَس: متكلم معتزلي كبير، اتصل بالمأمون وحظي عنده. وقال بحرية الإنسان، وكان سيئ الظن بالعامَّة ويكره معاوية كرهاً شديداً. وكان إلى ذلك بذى اللسان ميالاً للانتقام من خصومه. استغل حظوته لدى المأمون لنصرة المعتزلة ومذهبهم. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٢ - ٦٧).

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: منها جَوْدَةُ بري القلم وإطالة جَلْفَتِهِ^(١)، وتحريفُ قَطْعَتِهِ، وحُسْنُ التَّائِي لامتطاء الأنامل، وإرسالُ المَدَّة بعد إشباع الحروف، والتحرُّز عند فراغها من الكسوف، وتركُ الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف.

وقال العتّابي: سألني الأَصْمَعِيُّ في دار الرشيد: أيّ الأنابيب للكتابة أصلحٌ وعليها أَصْبَرُ؟ فقلت له: ما نَشِيف بالهجير^(٢) ماؤه، وسَرَه من تلويحه غشاؤه؛ من التَّبْرِية^(٣) القشور، الدُّرِّيَّة الظهور، الفَضِيَّة الكسور؛ قال: فأَي نوع من البري أَصوبٌ وأَكْتَبُ؟ فقلت: البرية المستوية القَطْعة التي عن يمين سنها برية تؤمن معها المَجَّة عند المدة والمطَّة، للهواء في شَقِّها فتيق، والريحُ في جوفها خَرِيقٌ^(٤)، والمداد في خُرطومها رقيق. قال العتّابي: فبقي الأَصْمَعِيُّ شاخصاً إليّ ضاحكاً، لا يُجِير مسألة ولا جواباً.

وكتب عليّ بن الأَزهري إلى صديق له يستدعي منه أقلاماً: أما بعد: فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غَلِبَت على الاسم، ولزمت لزومَ الوَسم^(٥)؛ فحَلَّت محل الأنساب، وجرت مَجْرى الألقاب؛ وجدنا الأقلام الصُّخْرِيَّة^(٦) أجرى في الكواغد^(٧) وأمرٌ في الجلود، كما أَنَّ البحريَّة منها أسلسُ في القراطيس، وأَلْيَنُ في المعاطف وأشدُّ لتعريف الخط فيها، ونحن في بلد قليل القصب رديئه، وقد أَحْبَبْتُ في أن تتقدَّم في اختيار أقلام صُخْرِيَّة، وتتنوَّق^(٨) في أَقْتِنائِها قِيلَك، وتطلَّبَها من مظائِها ومنابتها من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تَتِيَمَنَ^(٩) بِأَخْتِيَارِك منها الشديدة الصُّلْبَةُ النقيَّة الجلود، القليلة الشحوم، الكثيرة اللحوم، الضيقة الأجواف، الرزينة المُمَحِّل فإنها أبقى على الكتابة، وأبعدُ من الحَفَا، وأن تقصد بَأَنْتِقَائِكَ للِرِّقَاق القُضبان المقوِّمات المتون، المُلَسِّ المعاقِد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يَبْسًا وهي قائمة على أصولها، لم تُعَجَل عن إِيَّانِ ينعها، ولم تؤخِّر إلى الأوقات المخوفة عليها من

(١) جلفة القلم: ما بين مبراه إلى سنة.

(٢) الهجير: شدة الحر.

(٣) التبرية: نسبة إلى التبر أي الذهب.

(٤) الخريق: الذي يتخلله الهواء أو يخرقه.

(٥) الوسم: أثر الكي.

(٦) الصخرية: نسبة إلى الصخرة: وهي أرض وسط الحرة كثيرة الحجارة.

(٧) الكواغد: جمع كاغد أي القراطيس أو الورق.

(٨) تتنوق: تتأنق.

(٩) تتيمن: الأصح تتيمن أي تقصد.

خَصَرَ^(١) الشتاء وَعَقَنَ الأنداء^(٢)؛ فإذا أَسْتَجْمَعَتْ عندك أمرت بقطعها ذراعًا ذراعًا قَطْعًا رقيقًا، ثم عبأت منها حُزْمًا فيما يصونها من الأوعية، ووجهتها مع من يؤدي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها وتكتب معها بعدتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

وأهدى ابن الحُرُون^(٣) إلى بعض إخوانه أقلامًا وكتب إليه:

إنه لما كانت الكتابة - أبقاك الله - أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة أتحننتك من آلتها بما يخف حمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويجل خطرُه، وهي أقلام من القصب النابت في الصحراء الذي تَشِف بحرّ الهجير في قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ فهي كاللآلئ المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة في السَدَف^(٤)؛ تَبْرِيةُ القشور، دُرّيةُ الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهراً كالوُشْي المحبّر، ورونقاً كالديباج المنير.

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي - يصف فيه أقلاماً أهداها في جملة أصناف -

جاء منه:

وأضفتُ إليها أقلاماً سليمةً من المعاييب، مبرأةً من المثالب؛ جَمّة المحاسن بعيدةً عن المطاعن؛ لم يُر بها طول ولا قصر، ولم يَنْقُصها ضعف ولا خور؛ ولم يَشْنُها لينٌ ولا رخاوة، ولم يعبها كَزَاة^(٥) ولا قساوة؛ فهذه آخذةٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفيةٌ للممادح بسائر صفاتها؛ صُلْبَةُ المعاجم، لَيِّنَةُ المَقَاطع؛ مُوفِيةُ القدود والألوان، محمودَةُ المَحَبَر والعِيَان؛ قد أَسْتَوَى في الملاسة خارجُها وداخلُها، وتَنَاسَب في السلاسة عاليها وسافلُها؛ نبتت بين الشمس والظلّ، واختلف عليها الحرّ والقرّ؛ فَلَفَحَها وَقَدَّانُ^(٦) الهواجر، وسفعتها سمائم شهر ناجر^(٧)؛ ووقدّها الشَّفَانُ بَصَرْدُهُ^(٨)، وقذفها الغمام بِبَرْدِهِ؛ وصابتها الأنواء بِصَيِّبِها^(٩)، وأستهلت عليها السحائب

(١) خصر الشتاء: برده.

(٢) الأنداء: جمع الندى. قطرات الماء المتكاثفة.

(٣) ابن الحرون: هو محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبح بن الحرون من أهالي بغداد.

(٤) السدف: ظلمة الليل. (٥) الكزاة: اليبس والانتقاض.

(٦) وقدان: حر.

(٧) ناجر: كل شهر فيه حرارة شديدة يدعى ناجراً لأن الإبل تنجر فيه أي يشتد عطشها.

(٨) وقدّها الشفان بصرده: وقد: ضرب. الشفان: الريح الباردة مع المطر. الصرد: البرد.

(٩) الصيب: المطر.

بشآبيبها^(١)؛ فاستمرت مرائرها^(٢) على إحكام، وأستحصد سَخْلُها بالإبرام^(٣)؛ جاءت شَتَّى الشَّيات^(٤)، متغايرة الهيئات، متباينة المحالِّ والبُلدان؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأنلف بكرم نجارها؛ فمن أنابيب ناسبت رماح الخَطِّ في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحرير في لمعانها؛ بطيئة الحفا^(٥)، مُمرَّة القُوَى؛ لا يُشظيها^(٦) القَطُّ، ولا يُشعث^(٧) بها الخط؛ ومن مصرية بيض، كأنها قُباطي^(٨) مصر نقاء، وغُرْقَى البَيض^(٩) صفاء؛ غذاها الصعيد من ثراه بلبه وسقاها النيل من نيره وعذبه؛ فجاءت ملتئمة الأجزاء، سليمة من الالتواء؛ تستقيم شقوقُها في أطوالها، ولا تنكَب عن يمينها ولا شمالها؛ تقترن بها صفراء كأنها معها عِقِيان^(١٠) قُرْن بلحَين^(١١)، أو ورق خلط بعين^(١٢)؛ تختال في صُفر ملاحفها، وتميس في مُذهب مطارفها^(١٣)؛ بلون غياب الشمس، وصيغ ثياب الوزس^(١٤)، ومن منقوشة ترُوق العين، وتونق النفس؛ ويهدي حسنها الأزيحية إلى القلوب، ويحلَّ الطرب لها حَبوة الحكيم اللبيب؛ كأنها أختلافُ الزهر اللامع، وأصنافُ الثمر اللين؛ ومن بحرية مَوْشِيَّة اللَّيْط^(١٥) رائقة التخليط^(١٦)؛ كأنَّ داخلها قطرة دم، أو حاشية رداء مُعلم، وكأنَّ خارجها أَرْقَم، أو متنٌ واد مُفعم، نثرت ألوانا تُزرى بورد الخدود، وأبدت قامات تفضح أود^(١٧) القُدود. [من الطويل]

وقد أكثر الشعراء القول في وصف القلم، فمن ذلك قول أبي تمام الطائي: [من الطويل]

لك القلم الأعلى الذي بشبَّاته تصاب من الأمر الكلى والمفاصلُ

-
- (١) شآبيب: جمع شُبوب: الدفعة من المطر.
 (٢) مرائرها: واحدة مريرة وهي الحبل المفتول، شبه بها القصب.
 (٣) السحل: الحبل المفتول على طاقة واحدة. والإبرام: الحبل المفتول على طائتين.
 (٤) شتى الشيات: مختلفة الألوان.
 (٥) بطيئة الحفا: لا يبريها أو ينقصها الجري على القرطاس والاحتكاك به. يقال: حفا شاربه أو شعره إذا بالغ في أخذه أو قصه.
 (٦) يشظيها: يفتتها إلى شظايا أو قطع صغيرة. (٧) يشعث: يفرق.
 (٨) القباطي: ثوب أبيض رقيق يصنع في مصر. (٩) غرقى البيض: يياض البيض.
 (١٠) العقيان: الذهب الخالص. (١١) اللجين: الفضة.
 (١٢) ورق خلط بعين: نقود ورقية على شكل دينار (عين).
 (١٣) المطارف: الثياب المصنوعة من الخز. (١٤) الورس: نبات أصفر.
 (١٥) الليط: القشر.
 (١٦) التخليط: التخطيطن.
 (١٧) الأود: الانحناء والتثني.

لُعاب الأفاعي القاتلاتِ لُعابُهُ
له ريقَةٌ طُلٌّ ولكنَّ وَقَعَهَا
فصيح إذا استنطقته وهو راكب
إذا ما أمتطى الخمسَ اللُّطافَ وأفرغت
أطاعته أطرافُ القنا وتقوّضت
إذا أَسْتَغْزَرَ الذهنَ الجليَّ وأقبلت
وقد رفدته الجِئْصِران وسَدَّدت
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهَف

وقال آخر: [من البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب
نالوا بها من أعاديهم وإن بُعدوا
ثم أَسْتَمَدُوا بها ماءَ المنيات
ما لم ينالوا بحذِّ المَشْرِفِيَّاتِ^(٢)
وقال ابن المعتز: [من الخفيف]

قلم ما أراه أم فَلَكْ يَجْري بما شاء قاسم وَيَسِير
خاشع في يديه يَلْقَمُ قرطاً سَا كَمَا قَبْلَ البِساطِ شُكُور^(٣)
ولطيفُ المعنى جليل نحيف وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتفٍ وعيشٍ تَضُمُ تلك السطور
نَقَشْتُ بالدجى نهاراً فما أدري أخطُ فيهن أم تصوّر

وقال محمد^(٤) بن علي: [من البسيط]

في كفه صارمٌ لائتٌ مَضاربه يسوسنا رَغَبًا إن شاء أو رَهَبًا
السيف والرمح خُدَامٌ له أَبَدًا لا يَبْلُغان له جِدًّا ولا لعبًا
تجري دماءُ الأعادي بين أسطره ولا يُحَسُّ له صوت إذا ضَرَبَا
فما رأيت مداداً قبل ذاك دَمًا ولا رأيت حسامًا قبل ذا قَصْبَا

(١) الأري: غسل النحل. يقصد مداد القلم. (٢) يعني أن الكلام أشد فتكاً من السيوف.

(٣) يشبه جريان القلم على القرطاس بجريان السفينة في البحر.

(٤) الأصح نسبة هذه الأبيات إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (سبقت ترجمته) من قصيدة يمدح بها محمد بن علي.

وقال ابن الرومي: [من المتقارب]

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكمّي
له شاهد إن تأمّلتَه
أداةُ المنية في جانبيه
ألم تر في صدره كالسنان

بأخوف من قلم الكاتب
ظهرت على سره الغائب
فمن مثله رهبةُ الراهب
وفي الردف كالمرفف القاضب؟

وقال الرفاء^(١): [من السريع]

أخرسُ ينبيك بإطراقه
يُذري على قرطاسه دمعه
كعاشق أخفى هواه وقد
تبصره في كل أحواله
يُرى أسيرًا في دواة وقد

عن كل ما شئت من الأمر
يُبدي لنا السرّ وما يدري
نمت عليه عبرةٌ تجري
غريان يكسو الناس أو يُعري
أطلق أقوامًا من الأشر

وقال آخر: [من السريع]

وذو عفافٍ راعٍ ساجدٍ
ملازم الخمس لأوقاتها

أخو صلاح دمعه جاري
مجتهد في خدمة الباري

وقال ابن الرومي: [من البسيط]

إن يخدمَ القلمَ السيفُ الذي خضعت
فالموت والموت لا شيء يغالبه
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرئت

له الرقابُ ودانت خوفه الأمم
ما زال يتبع ما يجري به القلم
أن السيوف لها مذ أرهفت خدَم

وقال أبو الطيّب الأزدّي: [من الرمل]

قلمٌ قلمٌ أظفار العدى
أشبه الحية حتى أنه

وهو كالإصبع مقصوص الظفر
كلما غمّر في الأيدي قُصّر

(١) الرفاء: هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الموصلّي الشاعر المعروف. كان في صباه يرفو ويطرز في دكان الموصل، ولكنه كان مولعًا بالأدب وينظم الشعر. قصد سيف الدولة الحمداني في حلب ومدحه وبعد موته قصد بغداد ومدح الوزير المهلبّي. يمتاز شعره بالطبيعة والعذوبة وحسن التشبيهات والأوصاف. توفي في بغداد سنة ٣٦٤ هجرية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٠٤ - ١٠٦).

وقال أبو الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي: [من الطويل]

وأسمَرَ طاوي الكَشْحِ أخْرَسَ ناطقَ له زَمَلانٌ^(١) في بطون المَهَارِقِ^(٢)

ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الأمور الكلية^(٣)

قال شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي في كتابه «حسن التوسل»: فأول ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله تعالى، ومداومة قراءته، وملازمة درسه وتدبر معانيه حتى لا يزال مصوراً في فكره، دائراً على لسانه، ممثلاً في قلبه، ذاكرة له في كل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها؛ وكفى بذلك معيناً له في قصده، ومغنياً له عن غيره، قال الله تعالى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله؛

ومن ذلك أن سائلاً قال لبعض العلماء: أين تجد في كتاب الله تعالى قولهم: الجار قبل الدار؟ قال: في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمَرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التخريم: الآية ١١] فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة. وأين قول العرب: «القتل أنفى للقتل» لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٩]. وأكثر الناس على جواز الاستشهاد بذلك ما لم يحوّل عن لفظه، ولم يغيّر معناه.

فمن ذلك ما روي في عهد أبي بكر رضي الله عنه: هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك ظني به، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت بكم، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم ﴿وَسِعِلْهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْبَلُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٢٧].

(١) الزملان: مشي الدابة.

(٢) المهارق: واحدة مُهْرَق، وهي الصحف.

(٣) ما هو محصور بين مربعين يعني أنه لم يرد في الأصل. وقد استل من كتاب اسمه «حسن التوسل».

وروي أن علياً رضي الله عنه قال للمغيرة بن شعبة^(١) لما أشار عليه بتولية معاوية: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ [الكهف: الآية ٥١].

وكتب في آخر كتاب إلى معاوية: وقد علمت مواقع سيوفنا في جدك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: الآية ٨٣].

وقول الحسن بن علي عليه السلام لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: الآية ١١١]، وروي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكتب الحسن إلى معاوية: أما بعد، فإن الله بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ورسولاً إلى الناس أجمعين ﴿لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٧٠].

وكتب محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي^(٢) إلى المنصور في صدر كتاب لما حاربته: ﴿طَسَرَ ۝ يَلَاكُ ۝ إِلَيْكَ الْكِتَابُ الْيَمِينُ ۝﴾ [الشعراء: الآيتان ٢، ١]، ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأٍ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصاص: الآيات ٣ - ٦]. ونُقِصَ عليه المنصور في جوابه عن قوله: «إنه ابن رسول الله ﷺ» بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠].

ونُقِلَ عن الحسن البصري^(٣) رحمه الله ما يدل على كراهية ذلك، فقال حين بلغه أن الحجاج أنكر على رجل استشهد بآية: أَنَسِيَ نَفْسَهُ حِينَ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مِرْوَانَ: بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر فَرَدَّ عليهم ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ

(١) المغيرة بن شعبة: صحابي ثقيفي كوفي، أسلم يوم الخندق، وشهد الحديبية، ولاه عمر بن الخطاب البصرة، شارك في معارك القادسية ونهاوند وذهبت عينه يوم اليرموك. عرف بالدهاء، وحكم الكوفة وأخذ الفتن بين الشيعة والخوارج. توفي بالطاعون سنة ٦٦٦ هـ. (المنجد).

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي (٧٦٢ م). لقب بالنفس الزكية، أمضى حياته يطالب الأمويين والعباسيين بالخلافة بشجاعة وهمة حتى قتل سنة ٧٦٢ م في المدينة. (المنجد).

(٣) الحسن البصري: (٦٤٢ - ٧٢٨ م)، ولد في المدينة ونشأ في وادي القرى، واستقر في البصرة حيث توفي. انصرف إلى الوعظ والعبادة في جامع البصرة وعرف بورعه وتقاه وتقشفه. أثبت له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مجموعة كبيرة من المواعظ والحكم واعتبره أصحاب الفرق الدينية رئيسهم كالمعتزلة والمتصوفة والمرجئة لأنه جمع كل فن في علم وزهد وورع وعبادة، ورفض مبايعة يزيد بن معاوية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٥٤).

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا» [النساء: الآية ٧٣]؟ وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لأنه أنكر على غيره ما فعله هو. وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز أن يُستشهد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٠] ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامة الحجة، وقطع النزاع، وإرغام الخصم كما روي أن الحجاج قال لبعض العلماء: أنت تزعم أن الحسين رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ، فأنتني على ذلك بشاهد من كتاب الله عز وجل، وإلا قتلتك؛ فقرأ: ﴿وَبَلَدًا حُجَّتْنَا أَتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) وَكَرِّمْنَا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٥] وعيسى هو ابن بنته؛ فأسكت الحجاج. وقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة، والأدلة القاطعة؛

وأقرب ما اتفق من ذلك أن صلاح الدين^(١) رحمه الله كتب إلى بغداد كتاباً يعدد فيه موافقه في إقامة دعوة بني العباس بمصر، فكتب جوابه بهذه الآية: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧) [الحجرات: الآية ١٧].

وكتب أمير المسلمين يعقوب بن عبد المؤمن إلى الأذقونش^(٢) ملك الفرنج جواباً عن كتابه إليه - وكان قد أبرق وأرعد فكتب في أعلاه :-

﴿أَتَجْعَلُ إِلَهُيَ فَلَئِنْ لَبِثْتَهُمْ بِحُجُودٍ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَخَرَجْتَهُمْ مِّنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧) [الثلث: الآية ٣٧].

(١) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ هـ = ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ م - ١١٩٣ م) هو مؤسس الدولة الأيوبية، ولد في تكريت ونشأ وتوفي في دمشق، وسيطر على بلاد الشام ومصر وحارب الصليبيين وهزمهم في وقعة حطين سنة ١١٨٧ وفتح القدس. عرف بشجاعته وكرمه وقناعته وتواضعه وكان رفيق الناس، ورجل سياسة وحرب. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو ألفونس الثاني ملك البرتغال (١٢١١ - ١٢٢٣ م). حارب العرب وغلبهم في عدة مواقع أهمها موقعة «قصر الملح». (المنجد).

ومما جَوَزُوا الاستشهاد به ما لا يقصد به إلا التلويحُ إلى الآية دون أفراد الكلام نحو قول القاضي الفاضل^(١) مما كُتِبَ به إلى الخليفة عن الملك الناصر صلاح الدين في الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ [المائدة: الآية ٢٥] وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة. وأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريدَ به فلا يجوز، وينبغي العدل عنه ما أمكن.

ويتلو ذلك الاستكثارُ من حفظ الأحاديث النبوية - صلوات الله وسلامه على قائلها - وخصوصًا في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقه ما لا بدَّ من معرفته من أحكامها، ليحتج بها في مكان الحاجة، ويستدل بموضع الدليل، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص سُلِمَ له، والفصاحة إذا طُلِيت غايثها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم. وينبغي أن يراعى في الحلّ لفظ الحديث ما أمكن، وإلا فمعناه.

ويتلو ذلك قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفته العربية، فإنه لو أتى الكاتب من البلاغة بأنم ما يكون ولحن ذهبت محاسن ما أتى به وانهدمت طبقة كلامه، وألغى جميع ما حسنه، ووقف به عند ما جهله.

ويتعلق بذلك قراءة ما يتهيأ من مختصرات اللغة، كالفصيح، وكفاية المتحفظ وغير ذلك من كتب الألفاظ ليتسع عليه مجال العبارة، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، ويضطر إلى نعته.

ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتهم ومكاتباتهم، وما ادّعاه كلّ منهم لنفسه أو لقومه، وما نقضه عليه خصمه، لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها، وتلقّي الحوادث بما شاكلها والاقتداء بطريقة من فلج^(٢) على خصمه، واقتفاء^(٣) آثار من اضطر إلى عذر، أو إبطال دعوى أو إثباتها، والأجوبة الدامغة^(٤)؛ فتأمله في موضعه فإنك ستقف منه على ما أستغنى به عن ذلك.

(١) القاضي الفاضل (١١٣٥ - ١٢٠٠) وزير صلاح الدين الأيوبي رافقه في رحلاته وتولى تدبير الدواوين، وبعد وفاته توسط لحل النزاع بين أولاده. (الزركلي، الأعلام).

(٢) فلج: ظفر.

(٣) اقتفاء: تتبع.

(٤) الدامغة: المبطلّة والمحققة.

ثم النظرُ في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم، وتسمية الأيام التي كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمنافسات، لما في ذلك من العلم بما يُستشهد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه في مكاتبة من ذَكَرَ يوماً مشهوراً، أو فارساً معيناً وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في فن التاريخ على ما ستقف عليه؛ فإن صاحب هذه الصناعة إذا لم يكن عارفاً بأيام العرب، عالمًا بما جرى فيها لم يدر كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها، وحسبه ذلك نقصاً في صناعته وقصوراً.

ثم النظر في التواريخ ومعرفة أخبار الدول، لما في ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياساتهم، وذكر وقائعهم ومكايدهم في حروبهم، وما أتفق لهم من التجارب؛ فإن الكاتب قد يُضطر إلى السؤال عن أحوال من سلف، أو يرد عليه في كتاب ذكر واقعة بعينها، أو يُحتج عليه بصورة قديمة فلا يَعْرِف حقيقتها من مجازها؛ وقد أوردنا في فن التاريخ ما لا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن.

ثم حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها، وأستكشاف غوامضها والتوفُّر على ما أختاره العلماء بها منها، كالحماسة^(١)، والمُفضَّلِيَّات^(٢)، والأصمعيَّات^(٣)، وديوان الهذليين، وما أشبه ذلك، لما في ذلك من غزارة المواد، وصحة الاستشهاد، والاطلاع على أصول اللغة، ونوادير العربية؛ وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء، وقد حكى أن الإمام الشافعي رحمه الله كان يحفظ ديوان هُذَيْل؛ فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ ذلك وتدبر معانيه سهل عليه حَلُّه، وظهرت له مواضع الاستشهاد به، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرة حِفْظِهِ منه، ووضعِهِ في مكانه ونقلِهِ في الاستشهاد والتضمنين إلى ما كأنه وضع له، كما اتفق للقاضي أبي بكر^(٤) الأرجاني في تضمين أنصاف أبيات العرب في

(١) كتاب للشاعر العباسي أبي تمام الطائي (٨٠٤ - ...) م، جمع فيه منتخبات شعرية من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي.

(٢) كتاب للشاعر والنحوي الكوفي المفضل الضبي (٧٨٤ - ...) م، ضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى العصر العباسي.

(٣) كتاب ألفه الراوية واللغوي الكبير عبد الملك الأصمعي (٧٤٠ - ٨٢٨ م) وضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى عصره.

(٤) هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرجان نسبة إلى مسقط رأسه في الأهواز. عمل قاضياً لتستر وعسكر مكرم وله شعر كثير. وكان فقيهاً إلى جانب كونه شاعراً وقد أشار إلى ذلك بقوله:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع في العصر أو أنا أفقه الشعراء =

بعض قصائده، فقال: [من الوافر]

وأهدِ إلى الوزير المدح يجعل
ورافق رفقة حلّوا إليه
لك المِرباع^(١) منها والصفايا^(٢)
فآبوا بالنُّهاب وبالسبايا^(٣)
وقل للراحلين إلى ذراه
ألستم خيرَ من ركب المطايا^(٤)
ولا تسلكُ سوى طريقي فإني
«أنا أبْنُ جلا وطلاع الثنايا»^(٥)
وقال بديع الزمان الهمذاني:

أنا لِقربِ دار مولاي «كما طرب النشوان مالت به الخمر» ومن الارتياح إلى لقائه
«كما أتنفض العصفور بلله القطر» ومن الامتزاج بولائه «كما ألتقت الصهباء والبارد
العذب» ومن الابتهاج بمزاره «كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب».

وكما قال أبْن القرطبي وغيره في رسائلهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكذلك حفظُ جانب جيد من شعر المحدثين، كأبي تمام ومسلم بن الوليد
والبحرّي وابن الرومي والمتنبي، للطف مأخذهم، ودوران الصناعة في كلامهم، ودقة
توليد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة.

وكذلك النظرُ في رسائل المتقدمين دون حفظها لما في النظر فيها من تنقيح
القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق، والنسج على منوال المجيد، والاقتداء
بطريقة المحسن، واستدراك ما فات القاصر، والاحتراز مما أظهره النقد، وردّ ما
بهرجه السبك؛ فأما النهي عن حفظ ذلك فلثلا يتكل الخاطر على ما في حاصله،
ويستند الفكر إلى ما في مودعه، ويكتفي بما ليس له، ويتلبس بما لم يُعط «كلايس

= عاش بين سنتي (٤٦٠ - ٥٤٤ هـ). (ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ١، ص ١٣٤ - ١٣٧).

(١) المرباع، ربع الغنمة، وهي من نصيب الرئيس.

(٢) الصفايا: ما يصطفيه الرئيس من الغنائم.

(٣) هو صدر بيت من قصيدة عمرو بن كلثوم وعجزه:

«وأنبأ بالملوك مصفدينا»

(٤) هو صدر بيت لجريز من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان، وعجزه:

«وأندى العالمين بطون راح»

(٥) هو صدر بيت للشاعر سحيم بن وثيل، تمته:

«متى أضع العمامة تعرفوني»

استشهد به الحجاج في خطبته الشهيرة عندما ولي على العراق.

ثوبني زور»؛ وأما من قصد المحاضرة بذلك دون الإنشاء فالأحسنُ به حفظُ ذلك وأمثاله.

وكذلك النظرُ في كتبِ الأمثالِ الواردةِ عن العربِ نظمًا ونثرًا كأمثالِ الميداني^(١) والمفضل بن سلمة الضبي وحمة الأصبهاني وغيرهم، وأمثالِ المحدثين الواردةِ في أشعارهم، كأبي العتاهية وأبي تمام والمنتبي، وأمثالِ المؤلِّدين؛ وقد أوردنا من ذلك في باب الأمثالِ جُملاً.

وكذلك النظرُ في الأحكامِ السلطانية، فإنه قد يأمرُ بأمرٍ فيعرفُ منها كيف يخلصُ قلمه إلى حكمِ الشريعةِ المطهرة من تولية القضاء والحسبة وغير ذلك؛ وقد قدّمنا في هذا الكتابِ من ذلك طرفًا جيّدًا. قال: فهذه أمورُ كلية لا بدّ للمترشِّح لهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها، والإكبابِ على مطالعتها، والاستكثارِ منها لينفق من تلك المواد، وليسلك في الوصول إلى صناعته تلك الجواد، وإلا فليعلم أنه في وادٍ والكتابة في وادٍ.

قال: وأما الأمورُ الخاصةُ التي تزيد معرفتها قدره، ويزين العلم بها نظمَه ونثره، فإنها من المكمّلاتِ لهذا الفن وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقّحة، والبدية المُجيبية، والروية المتصرّفة، لكنّ العالمَ بها متمكّن من أزيمة المعاني، يقول عن علم، ويتصرّف عن معرفة، وينتقد بحجة، ويتخير بدليل، ويستحسن ببرهان، ويصوغ للكلام بترتيب؛ فمن ذلك علم المعاني والبيان والبديع، والكتبُ المؤلّفة في إعجازِ الكتابِ العزيز، ككتب الجرجاني^(٢) والرّماني^(٣) والإمام فخر الدين السكاكي^(٤) والخفاجي^(٥) وأبن الأثير^(٦)

(١) هو كتاب ضخّم جمع فيه مؤلفه أحمد النيسابوري الميداني نحو ستة آلاف مثل ونيف ودعاه «مجمع الأمثال». وله كتاب آخر في الشرعيات والعلويات والسفليات عنوانه «السامي في الأسامي» وكان الميداني (.... - ١١٢٤ م) أديبًا ومؤرخًا. (المنجد).

(٢) أهم مؤلفات عبد القاهر الجرجاني (.... - ١٠٧٨ م) في البلاغة كتاباه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

(٣) أهم كتب علي بن عيسى الرماني (٩٨٠ - ٩٩٤ م) «النكت في إعجاز القرآن» و«الأسماء والصفات».

(٤) أهم كتب السكاكي (١١٦٠ - ١٢٢٨ م) في البلاغة والبيان والمنطق كتاب «مفتاح العلوم».

(٥) أشهر كتب عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي الشاعر (١٠٣٢ - ١٠٧٣ م) «سر الفصاحة».

(٦) أهم كتب ابن الأثير (.... - ١٢٣٩ م) في البيان والبديع كتابه «المثل السائر» وهو كتاب ضخّم يعتبر مرجعًا هامًا في علوم البلاغة.

وغيرهم؛ وذكر في كتابه جُملاً بهذه المعاني وأورد أيضاً أموراً أخرى تتصل بذلك من خصائص الكتابة وهي الاقتباس والاستشهاد والحل، وأتى على ذلك بشواهد وأمثلة، وسأذكر في هذا الكتاب ملخص ما أوردته في ذلك باختصارٍ وزيادةٍ عليه.

فأما علوم المعاني والبيان والبدیع، فمنها: ذكر الفصاحة، والبلاغة والحقيقة والمجاز، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، والخبر وأحكامه، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحذف والإضمار، ومباحث إن وإتما، والنظم والتجنيس، والطباق، والمقابلة، والسجع، وردّ العجز على الصدر، والإعنات والمذهب الكلامي، وحسن التعليل، والالتفات، والتمام، والاستطراد، وتأکید المدح بما يشبه الذم، وتأکید الذم بما يشبه المدح، وتجاهل العارف، والهزل الذي يراد به الجذ، والكنيات، والمبالغة، وإعتاب المرء نفسه، وحسن التضمين والتلميح، وإرسال المثل، وإرسال مثلين، والكلام الجامع، واللف والنشر والتفسير، والتعديد - ويسمى سياقة الأعداد - وتنسيق الصفات، والإيهام - ويقال له: التورية - والتخييل، وحسن الابتداءات، وبراعة التخليص، وبراعة الطلب وبراعة المقطع، والسؤال والجواب، وصحة الأقسام، والتوشيح، والإيغال، والإشارة والتذليل، والترديد، والتفويغ، والتسهييم، والاستخدام، والعكس، والتبديل والرجوع، والتغاير، والطاعة والعصيان، والتسميط، والتشطير، والتطريز، والتوشيح والإغراق، والغلو، والقسم، والاستدراك، والمؤتلفة والمختلفة، والتفريق المفرد والجمع مع التفريق، والتقسيم المفرد، والجمع مع التقسيم، والزواج، والسلب والإيجاب والأطراد، والتجريد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، ونفي الشيء بإيجابه والإيداع، والإدماج، وسلامة الاختراع، وحسن الاتباع، والذم في معرض المدح والعنوان، والإيضاح، والتشكيك، والقول بالموجب، والقلب، والتندير، والإسجال بعد المغالطة، والافتنان، والإيهام، وحصر الجزئي وإلحاقه بالكلّي، والمقارنة والإبداع، والانفصال، والتصرف، والاشتراك، والتهكم، والتدبيح، والموجه وتشابه الأطراف. هذا مجموع ما أوردته منها، واستشهد عليه بأدلة، وأورد أمثلة سنشرح منها ما يكفي به اللبيب، ويستغني به اللبيب^(١).

وأما الفصاحة والبلاغة، فقد تقدّم الكلام فيهما في أول الباب، فلا فائدة في إعادته.

(١) سيعالج النويري هذه الموضوعات في سائر أقسام هذا الجزء من نهاية الأرب.

وأما الحقيقة والمجاز - فالحقيقة في اللغة فعيلة بمعنى مفعولة، من حق الأمر يُحقّه بمعنى أثبتّه، أو من حققته إذا كنت منه على يقين. والمجاز من جاز الشيء يجوزّه إذا تعدّاه، فإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وُصف بأنه مجازٌ على أنهم قد جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولاً، لأنه ليس بموضع أصلي لهذا اللفظ ولكنه مجازه ومتعدّاه يقف فيه كالواقف بمكان غيره ثم يتعدّاه إلى مكانه الأصلي. ولهما حدود في المفرد والجملة، فحدّهما في المفرد: أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهي حقيقة، كالأسد للحيوان المفترس، واليد للجراحة ونحو ذلك. وإن أريد بها غيره لمناسبة بينهما فهي مجاز^(١)، كالأسد للرجل الشجاع واليد للنعمة أو للقوة، فإن النعمة تُعطى باليد، والقوة تظهر بكمالها في اليد وحدّهما في الجملة: أن كلّ جملة كان الحكم الذي دلّت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة كقولنا: خلق الله الخلق؛ وكلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل بضرب من التأويل فهي مجاز، كما إذا أضيف الفعل إلى شيء يضاهي الفاعل، كالمفعول به في قوله عز وجل: ﴿فِي عِشَةِ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: الآية ٢١] ﴿وَمِنْ مَلَأُوا دَائِقِيَ﴾ [الطارق: الآية ٦]؛ أو المصدر، كقولهم: شعرٌ شاعر؛ أو الزمان، كقول النعمان بن بشير لمعاوية: [من الطويل]

* وليك عما ناب قومك نائم *

أو المكان، كقولك: طريق سائر؛ أو المسبّب، كقولهم: بنى الأمير المدينة؛ أو السبب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلِثْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: الآية ٢]. فمجاز المفرد لغوي، ويسمى مجازاً في المثبت، ومجاز الجملة عقلي، ويسمى مجازاً في الإثبات. قال: فالمجاز قد يكون في الإثبات وحده، وهو أن يُضيف الفعل إلى غير الفاعل الحقيقي كما ذكرناه، وقد يكون في المثبت وحده، كقوله تعالى: ﴿فَأَخِيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: الآية ٩] جعل خضرة الأرض ونضرتها حياة، وقد يكون فيهما جميعاً، كقولك: أحيتني رؤيتك، تريد سرّتي، فقد جعلت المسرة حياة وهو مجاز في المثبت وأسندتها إلى الرؤية وهو مجاز في الإثبات.

قال: واعلم أنهم تعرّضوا في اعتبار كون اللفظ مجازاً إلى اعتبار شيئين:

(١) حدد السكاكي الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له أصلاً. وحدد المجاز بأنه الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق. (مفتاح العلوم، ص ١٦٩ - ١٧٠).

الأول: أن يكون منقولاً عن معنى وُضِع اللفظ بإزائه، وبهذا يتميز عن اللفظ المشترك.

الثاني: أن يكون هذا النقل لمناسبة بينهما، فلا توصف الأعلام المنقولة بأنها مجاز إذ ليس نقلها لتعلق نسبة بين المنقول عنه ومن له العلم، وإذا تحقق الشرطان سمي مجازاً، وذلك مثل تسمية النعمة والقوة باليد، لما بين اليد وبينهما من التعلق وكما قالوا: رَعينا الغيث، يريدون الثبت الذي الغيث سببه، وصابتنا السماء، يريدون المطر، وأشباه ذلك ونظائره.

وأما التشبيه - فهو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه^(١)، كالشجاعة في الأسد، والثور في الشمس. وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجِه الخفي إلى الجلي، وإدناؤه البعيد من القريب. وهو حكم إضافي لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة.

ثم التشبيه على أربعة أقسام: تشبيه محسوس بمحسوس، وتشبيه معقول بمعقول، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.

فأما تشبيه محسوس بمحسوس فلاشتراكهما إما في المحسوسات الأولى: وهي مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس، كتشبيه الخد بالورد والوجه بالنهار، وأطيظ الرحل بأصوات الفرائيج والفواكه الحلوة بالسكر والعسل ورائحة بعض الرياحين بالمسك والكافور، واللّين الناعم بالحريز، والخشِن بالمسح^(٢). أو في المحسوسات الثانية: وهي الأشكال المستقيمة والمستديرة، والمقادير، والحركات كتشبيه المستوي المنتصب بالرمح، والقذ اللطيف بالغصن، والشيء المستدير بالكرة والحلقة، والعظيم الجثة بالجبل، والذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم. أو في الكيفيات الجُسمانية، كالصلابة والرخاوة. أو في الكيفيات النفسانية، كالغرائز والأخلاق. أو في حالة إضافية، كقولك: هذه حجة كالشمس، وألفاظ كالماء في السلاسة وكالتسليم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة. وربما كان التشبيه بوجه عقلي،

(١) حدد القزويني التشبيه بقوله إنه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. والمراد بالتشبيه ههنا ما لم يكن على وجه الاستعارة الحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد (الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٨٩، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٩٩١).

(٢) المسح: جمعه أمساح ومسوح، الكساء في الشعر.

كقول فاطمة بنت الخُزُشب الأنماريّة حين وصفت بنيتها الكلمة فقالت: هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها^(١).

وأما تشبيه المعقول بالمعقول فهو كتشبيه الوجود العاري عن الفوائد بالعدم، وتشبيه الفوائد التي تبقى بعد عدم الشيء بالوجود، كقول الشاعر: [من الخفيف]

رب حيّ كميت ليس فيه أمل يرتجى لنفع وضر
وعظام تحت التراب وفوق الأرض منها آثار حميد وشكر

وأما تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨].

وأما تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها، ولذلك قيل: من فقد حساً فقد علماً، فإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيبه به يكون جعلاً للفرع أصلاً والأصل فرعاً ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والمِسْك بالثناء فقال: الشمس كالْحَجَّةِ في الظهور، والمسك كالثناء في الطيب، كان ذلك سَخَفًا من القول.

فأما ما جاء في الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدّر المعقول محسوساً، ويُجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالغة، فيصح التشبيه حينئذٍ وذلك كما قال الشاعر: [من الخفيف]

وكأنّ النجوم بين دجاها سُنَنٌ لاح بينهنّ ابتداء

فإنه لما شاع وصف السُنَّة بالبياض والإشراق، واشتهرت البدعة وكل ما ليس بحق بالظلمة تخيل الشاعر أن السنن كأنها من الأجناس التي لها إشراق ونور، وأن البدع نوع من الأنواع التي لها اختصاص بالسواد والظلمة، فصار ذلك كتشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ، فجاز له التشبيه، وهو لا يتم إلا بتخييل ما ليس بمتلونٍ متلوناً

(١) يقول القزويني في أقسام التشبيه باعتبار طرفيه: «أما طرفاه فهما إما حسيان كما في تشبيه الخد بالورد والقدر بالرمح والفيل بالجبل في المبصرات والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات، والنكهة بالعنبر في المشمومات، والريق بالخمر في المذوقات، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات، وأما عقليان كتشبيه العلم بالحياة. وإما مختلفان، والمعقول هو المشبه كما في تشبيه المنية بالسبع، أو بالعكس كما في تشبيه العطر بالخلق الكريم». (الإيضاح، ص ١٩٣).

ثم يتخيله أصلاً فيشبهه به، وهذا هو الذي تُؤوّل في قول أبي طالب الرقيّ: [من الكامل]

ولقد ذكرتكَ والظلام كأنه يومُ النوى وفؤاد من لم يعشَق^(١)

فإنّه لما كانت الأوقات التي تحدّث فيها المكاره توصف بالسواد كما يقال: أسودّت الدنيا في عينه، جعل يومَ النوى كأنه أشهرُ بالسواد من الظلام، فعرفه به وشبهه، ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشَق لأن من لم يعشَق عندهم قاسي القلب والقلب القاسي يوصفُ بشدّة السواد، فأقامه أصلاً، فقس على هذا المثال.

قال: واعلم أنّ ما به المشابهة قد يكون مقيداً بالانتساب إلى شيء، وذلك إما إلى المفعول به كقولهم: «أخذ القوسَ باريها» وإلى ما يجري مجرى المفعول به وهو الجارّ والمجرور كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد: «كالراقم على الماء» وإما إلى الحال، كقولهم: «كالحادي وليس له بعير» وإما إلى المفعول والجارّ والمجرور معاً، كقولهم: «هو كمن يجمع السيفين في غمد» و«كمبغني الصيد في عرينة الأسد»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْنَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: الآية ٥] فإن التشبيه لم يحصل من مجرد الحمل، بل لأمرين آخرين، لأن الغرض توجيهُ الذم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمّن المنافع العظيمة ثم لا ينتفع به لجهله، وكقوله لبيد: [من الطويل]

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلّوها وعذّوا بلاقع

فإنّه لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلول أهل الديار فيها، ووَشِك رحيلهم منها. قال: وكلّما كانت التقييدات أكثر كان التشبيه أوغل في كونه عقلياً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَغْبَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفُهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَتْ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أَنَّهُمْ أَمَرْنَا لَيلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: الآية ٢٤]. فإن التشبيه منتزَع من مجموع هذه الجمل من غير أن يمكن فصل

(١) نسب القزويني هذا البيت للشاعر أبي طالب الرقي وضربه شاهداً على وجه الشبه التخيلي. وقد نقل النوبري تفسيره والتعليق عليه حرفياً. واستشهد ببيت آخر على هذا النوع في وجه الشبه للشاعر ابن بابك وهو التالي:

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرها
(الإيضاح، ص ١٩٧).

بعضها عن بعض، فإنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه. قال:

ثم ما به المشابهة إن كان مركباً فإنه على قسمين:

الأول: ما لا يمكن إفراد أحد أجزائه بالذكر، كقول القاضي التَّنُوخِي: [من

السريع]

كأنما المَرِيخُ والمشتري قدَّامه في شامخ الرُّفْعَه
منصرف بالليل من دعوة قد أُسْرِجَتْ قدَّامه شمعه^(١)
فإنك لو أقتصرت على قوله: كأن المَرِيخَ منصرفاً من دعوة، أو كأن المشتري
شمعة لم يحصل ما قصده الشاعر، فإنه إنما قصد الهيئة التي يلبسها المَرِيخُ من كون
المشتري أمامه.

الثاني: ما يمكن إفراده بالذكر ويكون إذا أزيل منه التركيب صحيح التشبيه في
طرفيه إلا أن المعنى يتغير، كقول أبي طالب الرَّقِي: [من الكامل]

وكان أجرامَ النجوم لوامعا درر نُثِرْنَ على بساط أزرق^(٢)
فلو قلت: كأن النجوم درر، وكان السماء بساط أزرق، وجدت التشبيه مقبولا
ولكن المقصود من الهيئة المشبهة بها قد زال. قال: وربما كان التشبيه في أمور كثيرة
لا يتقيد بعضها ببعض، وإنما يكون مضموماً بعضها إلى بعض وكل واحد منها منفرد
بنفسه، كقولك: زيد كالأسد بأساً، والبحر جوداً، والسيف مضاءً والبدر بهاءً؛ وله
خاصيتان: إحداهما أنه لا يجب فيه الترتيب، والثانية أنه إذا سقط البعض لم يتغير
حكم الباقي.

ومن المتأخرين من ذكر في التشبيه سبعة أنواع:

الأول: التشبيه المطلق، وهو أن يشبه شيئاً بشيء من غير عكس ولا تبديل
كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: الآية ٣٩]،
وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: الآية ٢٤]، وقوله

(١) استشهد القزويني بهذين البيتين على التشبيه الذي طرفاه مركبان، ولا يصح تشبيه كل جزء من
أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر.

(٢) واستشهد القزويني بهذا البيت على التشبيه الذي طرفاه مركبان ويصح تشبيه كل جزء من أجزاء
أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر. (الإيضاح، ص ٢١٣ - ٢١٤).

تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧]. وقول النبي ﷺ: «الناس كأسنان المُشْطِ».

الثاني: التشبيه المشروط، وهو أن يشبه شيئاً بشيء لو كان بصفة كذا، ولولا أنه بصفة كذا، كقوله: أُشْبِهَ وجهَ مولانا بالعيدِ المقبلِ لو كان العيدُ تبَقَّى ميامنه وتَدوم محاسنه، وكقوله: وجهه هو كالشمسِ لولا كسوفها، والقمرِ لولا خسوفه.

وكقول البديع: [من البسيط]

قد كان يحكيك صوبُ الغيثِ منسكباً لو كان طَلَقَ المحيّا يُمطرُ الذهبا
والدهرُ لو لم يُخْنِ والشمسُ لو تَطَقَّتْ والليثُ لو لم يُصَدِّ والبحرُ لو عُدَّبا

وكقول الآخر^(١): [من الكامل]

عَزَماته مثلُ النجومِ ثواقباً لو لم يكن للثاقباتُ أفول

الثالث: تشبيه الكناية، وهو أن يشبه شيئاً بشيء من غير أداة التشبيه، كقول المتنبي: [من الوافر]

بدت قمرًا وماست خُوطَ بانٍ وفاحت عنبرًا ورَثَّ غزالا

وقول الواواء^(٢) الدَّمَشَقِيّ: [من البسيط]

فأمطرت لؤلؤًا من نرجسٍ فسقت وردًا وعَضَّتْ على العُتَابِ بالبَرْدِ

الرابع: تشبيه التسوية، وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه، وصفة من الصفات المقصودة، ويشبههما بشيء واحد، كقوله: [من المجتث]

صُدُغَ الحبيبِ وحالي كلاهما كالليالي
وثغره في صفاء وأدْمَعِي كاللآلي

(١) نسب هذا البيت للشاعر رشيد الدين الطواط، (٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) اسمه محمد بن محمد بن عبد الجليل البلخي، أديب مترسل شاعر. ولد ببلخ وتوفي في خوارزم. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الواواء: لقب الشاعر الدمشقي محمد بن أحمد الغساني، وكنيته أبو الفرج. شاعر مطبوع حلو الألفاظ، رقيق المعاني، كان في بادئ أمره منادياً بدار البطيخ في دمشق. له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٩٩٥ م. (الأعلام، للزركلي).

الخامس: التشبيه المعكوس، وهو أن تشبّه شيئين كلّ واحد منهما بالآخر كقول الشاعر: [من السريع]

الخمير تفاح جرى ذائبًا كذلك التفاح خمير جُمَد
فاشرب على جامدٍ ذَوْبُهُ ولا تَبِعْ لَذَّةَ يومٍ بغد
وكقول الصّاحب بن عبّاد^(١): [من الكامل]

رَقَّ الزَّجَاجُ وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنه خميرٌ ولا قدح وكأنه قدحٌ ولا خمير
وكقول بعضهم في النثر: كم من دم أهرقناه في البرّ، وشخصٍ أهرقناه في البحر؛ فأصبح البرّ بحرًا من دمائهم، والبحر برّا بأشلائهم.

السادس: تشبيه الإضمار، وهو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدلّ ظاهر لفظه أنّ مقصوده غيره، كقول المتنبي: [من المتقارب]

ومن كنتَ جارًا له يا عليّ لم يقبل الدرّ إلّا كبارا
فيدلّ ظاهره على أنّ مقصوده الدرّ، وإنّما غرضه تشبيه الممدوح بالبحر.

السابع: تشبيه التفضيل، وهو أن يشبّه شيئًا بشيءٍ ثم يرجع فيرجح المشبّه على المشبّه به، كقوله: [من الوافر]

حسبت جماله بدرًا مضيئًا وأين البدر من ذاك الجمال
وكقول ابن هندو^(٢): [من السريع]
مَنْ قاس جَدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شيئين
أنت إذا جدت ضاحك أبدًا وذاك إن جاد دامع العين
قال: وقد تقدّم تشبيه شيء بشيء.

(١) الصّاحب بن عبّاد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ - ٩٩٥ م) هو إسماعيل بن عبّاد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزير لمؤيد الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة، ولقب بالصّاحب لصحبته إياه في صباه. غلب عليه الأدب فأجاد الرسائل والشعر. وله ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) ابن هندو: ورد هكذا في معجم الأدباء لياقوت الحموي الجزء الخامس، ص ١٦٨ طبع الطبعة الهندية. ولم يرد في معاجم الأعلام.

فأما تشبيه شيء بشيئين فكقول أَمْرِي القيس: [من الطويل]

وتَعطو برَخَص غير شَثْنِ كَأَنَّهُ أسارِيعُ رملٍ أو مساويكِ إِسْجَلِ^(١)

وأما تشبيه شيء بثلاثة أشياء فكقول البحتري: [من السريع]

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عن لَوْلُؤٍ منضُذٍ أو بَرَدٍ أو أَقَاحٍ

وأما تشبيه شيء بأربعة أشياء فكما قال المولى شهاب الدين أبو الثناء محمود

الحلبلي الكاتب: [من الرجز]

يَفْتَرُّ طِرْسَكٍ عن سطور جاذها الـ ففكر السليم بَصُوبٍ مِسْكِ أَذْفَرِ^(٢)

فكَأَنَّمَا هو روضةٌ أو جدول أو سَمْطٌ دَرٌّ أو قِلَادَةٌ عَنبرِ

وأما تشبيه شيء بخمسة أشياء فكقول الحريري:

يَفْتَرُّ عن لَوْلُؤٍ رطبٍ وعن بَرَدٍ وعن أَقَاحٍ وعن طَلَعٍ وعن حَبَبِ^(٣)

وأما تشبيه شيئين بشيئين فكقول أَمْرِي القيس: [من الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرها العُنَابُ والحَشَفُ البالي

وأما تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر: [من المجث]

لَيْلٌ وِبَدَرٌ وَغَصَنٌ شَعَرٌ وَوَجَةٌ وَقَدْ

خَمَرٌ وَدَرٌّ وَوَرْدٌ رِيْقٌ وَثَغَرٌ وَخَدٌ

وأما تشبيه أربعة بأربعة فكقول أَمْرِي القيس: [من الطويل]

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْنِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءٌ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ^(٤)

وكقول أبي نواس: [من السريع]

تَبْكِي فَتَذْرِي الدَّرَّ من نرجس وتَلْطِمُ الوردَ بعُنان

(١) تعطو: تتناول. الرخص: الناعم. الشثن: الغليظ. الأساريع: دود أحمر. الأسحل: شجر المساويك.

(٢) الطرس: الورق يكتب عليه. (٣) يفتري: يتسم.

(٤) يشبه امرؤ القيس أعضاء حصانه بأعضاء أربع حيوانات هي الطيبي والنعام والذئب والثعلب. الايطل: الخاصرة. الارخاء: شدة العدو. التقريب: وضع الرجلين مكان اليدين في العدو. التتفل: ولد الثعلب.

وأما تشبيه خمسة بخمسة فكقول أبي الفرج الواواء الدمشقي: [من البسيط]
 قالت متى البين يا هذا فقلت لها إما غدا زعموا أو لا فبعد غد
 فأمطرت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العُباب بالبرد
 وشبه قاضي القضاة نجم الدين بن البارزي سبعة أشياء بسبعة أشياء وهي: [من
 الطويل]

يُقطِّعُ بالسَّكِينِ بِطَيْخَةٍ ضَحَى على طَبَقٍ في مَجْلِسٍ لَانِ صاحبه
 كشمسٍ بَبْرَقَ قَدْ بَدَرًا أَهْلَةً لدى هَالَةٍ في الأفقِ شَتَّى كواكبه
 قال: والغرض من التشبيه قد يكون بيان إمكان وجود الشيء عند ادعاء ما لا
 يكون إمكانه بيتًا، كقول ابن الرومي: [من البسيط]

وكم أب قد علا بابن ذُرَى شَرَفٍ كما عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 وكقول المتنبي: [من الوافر]
 فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

أو بيان مقداره، كما إذا حاولت نفي الفائدة عن فعل إنسان قلت: هذا كالبابض
 على الماء، لأن الخلوة الفعل عن الفائدة مراتب مختلفة في الإفراط والتفريط والوسط،
 فإذا مُثِّلَ بالمحسوس عُرِفَتْ مرتبته، ولذلك لو أردت الإشارة إلى تنافي الشيتين
 فأشرت إلى ماء ونار فقلت: هذا وذاك هل يجتمعان؟ كان تأثيره زائداً على قولك:
 هل يجتمع الماء والنار؟ وكذلك إذا قلت في وصف طول يوم: كأطول ما يتوهم، أو
 لا آخر له، أو أنشدت قوله^(١): [من البسيط]

في ليلِ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرَضُ وَالطَّوْلُ كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْصُولُ^(٢)
 لم تجد فيه من الأنس ما تجده في قوله: [من الطويل]
 وَيَوْمَ كَظَلَ الرَّمْحُ قَصْرَ طَوْلِهِ دُمُ الرِّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاكَ الْمَزَاهِرُ
 وما ذاك إلا للتشبيه بالمحسوس، وإلا فالأول أبلغ، لأن طول الرمح متناهٍ وفي
 الأول حَكَمَتْ أَنَّ لَيْلَهُ مَوْصُولُ بِاللَّيْلِ، وكذلك لو قلت في قصر اليوم: كأنه ساعة،

(١) البيت للشاعر حندج بن حندج المري. (٢) صول: مدينة في بلاد الخزر.

أو كلمح البصر، لوجدته دون قوله: [من الوافر]

ظللنا عند دار أبي أنيس بيوم مثل سالفَةِ الذُّباب^(١)

وقوله: [من الطويل]

ويومٍ كلبهام القطاة مُزَيْنَ إليَّ صباه غالبٌ لي باطله

قال: وقد يكون غرض التشبيه عائداً على المشبه به، وذلك أن تقصد على عادة التخيل أن توهم في الشيء القاصر عن نظيره أنه زائد، فتشبه الزائد به، كقوله: [من الكامل]

وبدا الصبح كأنَّ غرَّتَه وجه الخليفة حين يُمتدِّح^(٢)

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصبح، لأن تشبيه الوجه بالصبح أصل متفق عليه لا يُنكر ولا يُستكثر، وإنما الذي يستكثر تشبيه الصبح بالوجه. قال: ثم الغرض بالتشبيه إن كان إلحاق الناقص بالزائد امتنع عكسه مع بقاء هذا الغرض، وإن كان الجمع بين شيئين في مطلق الصورة والشكل واللون صحَّ العكس كتشبيه الصبح بغرة الفرس الأدهم لا للمبالغة في الضياء، بل لوقوع منير في مظلم وحصول بياض قليل في سوادٍ كثير.

قال: والتشبيه قد يجيء غريباً يحتاج في إدراكه إلى دقة نظر، كقول ابن المعتز:

[من الرجز]

* والشمس كالمرآة في كفّ الأشلّ *

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمل في اضطراب نور الشمس، ويقرب منه قول الآخر: [من الطويل]

كأن شعاع الشمس في كلِّ غُدوة على ورق الأشجار أولَّ طالع

دنائيرُ في كفِّ الأشلّ يضمُّها لقبض وتهوي من فروج الأصابع^(٣)

(١) سالفَةُ الذُّباب: عتقه.

(٢) صاحب هذا البيت هو الشاعر محمد بن وهيب الحميري من قصيدة يمدح بها المأمون.

(٣) يشبه أشعة الشمس على أوراق الأشجار بالدنائير التي في كف الأشلّ في شكلها ولونها واضطرابها.

وكقول المتنبي: [من السريع]

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقةً ليس لها حاجب
كأنها بُودقةٌ أنقِيَتْ يجول فيها ذهب ذائب^(١)

ومن لطيف ما جاء في هذا المعنى من التشبيه قول الأخطل في مصلوب: [من البسيط]:

أو قائمٌ من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطّيه من الكسل^(٢)

شبهه بالتمطّي، لأنّ التمتطي يمدّ يديه وظهره ثم يعود إلى حالته الأولى، فزاد فيه أنّه مواصل لذلك، وعلّله بالقيام من النعاس لما في ذلك من اللوثة والكسل.

قال: والتشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعاني، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعا فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه، وإنّما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له، والذي يقع منه في حيّز عند أهل هذا الفنّ هو الذي يجيء على حدّ الاستعارة، كقولك لمن يتردّد في الأمر بين أن يفعل أو يتركه: «أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى» والأصل فيه أراك في تردّدك كمن تقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى.

وأما الاستعارة: فهي أدعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبه من الشئين^(٣) لفظاً وتقديراً. وإن شئت قلت: هو جعل الشيء الشيء أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه.

فالأول: كقولك: لقيت أسداً وأنت تعني الرجل الشجاع.

والثاني: كقول لبيد: [من الكامل]

* إذا أصبحت بيد الشمال زمأمها *

أثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه على ما يأتي بيان ذلك.

(١) البودقة والبوتقة هي القالب الذي يصفى فيه الذهب والفضة عند الصاغة. وهو لفظ مولد معرب في كلمة بوته.

(٢) اللوثة: الاسترخاء. يشبه حركة المصلوب بتمطي المستيقظ من النوم.

(٣) الاستعارة بنظر القزويني مجاز لغوي قائم على التشبيه. (الإيضاح، ص ٢٤١ - ٢٤٦).

وحَدَّ الرِّمَانِي الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللُّغة على سبيل النقل للإبانة.

وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة من شيء قد عُرف بها إلى شيء لم يُعرف بها. وذكر الخفاجي كلامَ الرِّمَانِي وقال: وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مریم: ٤] استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نُقل إليه بأن المعنى لما أكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس شيئًا فشيئًا حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله إلى غير حالته المتقدمة؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان، ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها، لأنها الأصل، وليس يخفى على المتأمل أن قوله عز وجل: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أبلغ من كثر شيب الرأس، وهو حقيقة هذا المعنى.

ولا بد للاستعارة من حقيقة هي أصلها، وهي مستعار منه، ومستعار ومستعار له^(١)، فالنار مستعار منها، والاشتعال مستعار، والشيب مستعار له. قال: وأما قولنا مع طرح ذكر المشبه^(٢)، فأعلم أننا إذا طرحناه كقولنا: رأيت أسدًا، وأردنا الرجل الشجاع فهو استعارة بالاتفاق، وإن ذكرنا معه الصيغة الدالة على المشابهة كقولنا: زيد كالأسد أو مثله أو شبيهه فليس باستعارة؛ وإن لم نذكر الصيغة وقلنا: زيد أسد فالمختار أنه ليس باستعارة إذ في اللفظ ما يدل على أنه ليس بأسد فلم تحصل المبالغة، فإذا قلت: زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة، فإنَّ الأوَّل خرج بالتنكير عن أن يحسن فيه كاف التشبيه، فإنَّ قولك: زيد كأسد كلامٌ نازل بخلاف الثاني.

قال ضياء الدين بن الأثير: وهذا التشبيه المضمّر الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما، وذلك خطأ محض.

قال: وسأوضح وجه الخطأ فيه وأحقق القول في الفرق بينهما فأقول: أما التشبيه المظهر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره لأنّه لا خلاف فيه، ولكن نذكر التشبيه المضمّر الأداة فنقول: إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنّه تشبيه مضمّر الأداة قيل

(١) المستعار منه هو المشبه به. والمستعار له هو المشبه والمستعار هو وجه الشبه.

(٢) يعني ضرورة حذف المستعار له أو المشبه كقولنا رأيت أسدًا. فإذا أثبتناه وقلنا رأيت زيدًا الأسد لم تكن ثمة استعارة.

فيه: زيد أسد، أي كالأسد، فأداة التشبيه فيه مضمرة مقدرة، وإذا أظهرت حسن ظهورها، ولم تقدح في الكلام الذي أظهرت فيه، ولم تزل عنه فصاحته؛ وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه دون المنقول فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه، وإذا ظهرت زال عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من الحسن والفصاحة.

قال: ولنضرب لذلك مثلاً بوضحه فنقول: قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو: [من الكامل]

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيبي وأبطأ الدّعص^(١)

وهذا لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيه، فلا يقال: عجل قد كالقضيبي وأبطأ ردف كالدّعص؛ فالفرق إذن بين التشبيه المضمّر أداة التشبيه فيه وبين الاستعارة أن التشبيه المضمّر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها. والاستعارة أخص من المجاز إذ قصد المبالغة شرط في الاستعارة دون المجاز، وأيضاً فكل استعارة من البديع وليس كل مجاز منه. والحق إن المعنى يعار أولاً ثم بواسطته يعار اللفظ؛ ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان التشبيه مقررّاً بينهما ظاهراً، وإلا فلا بد من التصريح بالتشبيه، فلو قلت: رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمناً إشارة إلى قول النبي ﷺ: «مثل المؤمن كمثل النخلة» أو «كمثل الخامة» لكنت كالمُغزّ التارك لما يفهم. وكلما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسناً بحيث تكون اللفظ من التصريح بالتشبيه، فإنك لو رمت أن تظهر التشبيه في قول ابن المعتز: [من الرمل]

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عُتاباً

أحتجت أن تقول: أثمرت أصابع راحته التي هي كالأغصان لطالب الحسن شبه العُتاب من أطرافها المخضوبة، وهذا ممّا لا خفاء بعُثائه.

وربما جمع بين عدة استعارات إلحاقاً للشكل بالشكل لإتمام التشبيه فتزيد الاستعارة به حسناً، كقول امرئ القيس في صفة الليل: [من الطويل]

فقلت له لما تمطى بضلبيه وأردف أعجازاً وناء بكلّكل^(٢)

(١) فرعاء: طويلة الشعر. الدّعص: جمع ادعاص ودعصة كثيب الرمل. شبه القد بالقضيبي، وشبه الردف بكثيب الرمل.

(٢) يشبه امرؤ القيس، الشاعر الجاهلي، الليل بالجمال. لقد أناخ الليل عليه كما أناخ الجمل على الأرض متباطئاً متثاقلاً. يمدد ظهره أولاً ومؤخره ثانياً ثم ينوء ب صدره على الأرض.

فصل فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

قال: الأعلام لا تدخلها الاستعارة لما تقدّم في المجاز. وأما الفعل فالاستعارة تقع أولاً في المصدر، ثم تقع بواسطة ذلك في الفعل، فإذا قلت: نطقت الحال بكذا فهذا إنمّا يصحّ لأنك وجدت الحال مشابهة للنطق في الدلالة على الشيء، فلا جرّم أنك أستعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته إلى الفعل. والأسماء المشتقة في ذلك كالفعل؛ فظهر أنّ الاستعارة إنمّا تقع وقوعاً أولياً في أسماء الأجناس. ثم الفعل إذا كان مستعاراً فاستعارته إمّا من جهة فاعله، كقوله: نطقت الحال بكذا ولعبت بي الهموم، وقول جرير: [من الكامل]

تحبي الروامسُ رَبْعَهَا فثَجِدْهُ بعد البلى وتميته الأمطار^(١)
وقول أبي حية^(٢): [من البسيط]

وليلةٍ مرضت من كل ناحية فما تضيء لها شمس ولا قمر
أو من جهة مفعوله، كقول ابن المعتز: [من الرمل]

جُمِعَ الحقُّ لنا في إمام قتل الجوع وأحيا السّماحا
أو من جهة مفعوليه، كقول الحريري: [من المتقارب]

وأقري المسامعَ إمّا نطقْتُ بيانا يقود الحرّون الشّموسا
أو من جهة أحد مفعوليه، كقول الشاعر^(٣): [من البسيط]

نُفِرِيهِمْ لَهْذَمِيَّاتٍ نُقِدَ بِهَا ما كان خاطّ عليهم كلُّ زَرادٍ
أو من جهة الفاعل والمفعول، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٠]. قال: ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدها، أما ترشيحها فهو أن ينظر

(١) الروامس: جمع رمس، وهو الريح. يقول إن الرياح تكشف التراب المغطي لآثار الربع فتظهرها، وعندما يهطل المطر يخفيها من جديد.

(٢) أبو حية: (١٨٣ هـ = ٨٠٠ م)، شاعر مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية اسمه الهيثم بن الربيع بن زرارة النميري شاعر مجيد بصري، مدح خلفاء عصره وكان أهوج به لوثه. (الأعلام، للزركلي).

(٣) هو القطامي: (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، واسمه عمير بن شبيب بن عمرو بن عباد التغلبي، الملقب بالقطامي. شاعر غزل فحل، لقب بصريع الغواني. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

فيها إلى المستعار، ويراعي جانبَه، ويوليَه ما يستدعيه، ويضمُّ إليه ما يقتضيه، كقول
كثير: [من الطويل]

رمتني بسهم ريشه الهدب لم يُصب بظاهر جسمي وهو في القلب جارح^(١)
وكقول النابغة: [من الطويل]

وصدر أراح الليل عازب همّه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
فالمستعار في كل واحد منهما وهو الرمي والإراحة منظور إليهما في لفظ السهم
والعازب، وكما أنشد صاحب الكشف: [من الوافر]

ينازعني ردائي عند عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فأعتجر منه بشطر^(٢)

أراد بردائه سيفه، ثم نظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار. وأما تجريدها فهو أن
يكون المستعار له منظوراً إليه، كقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾
[النحل: الآية ١١٢] فإن الإذاقة لما وقعت عبارة عما يدرك من أثر الضرر والألم تشبيهاً
له بما يدرك من الطعم المرّ البشع، واللباس عبارة عما يَغشى منهما ويلبس فكانه
قال: فأذاقها الله ما غشيها من ألم الجوع والخوف، وكقول زهير: [من الطويل]

لدى أسد شاكي السلاح مقذّف له ليد أظفاره لم تُقلّم
فلو نظر إلى المستعار لقال: أسد دامي المخالب أو دامي البرائن، ونظر زهير
في آخر البيت إلى المستعار أيضاً، ومنه قول كثير: [من الكامل]

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال
استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يُلقي عليه
ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء.

قال: ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية^(٣)، وهي أن لا يصريح بذكر المستعار بل
بذكر بعض لوازمه تنبيهاً به عليه، كقولهم: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس.

(١) يقول إنها وجهت إليه نظرة كالسهم ريشه أهذاب العين، فجرح قلبه دون جسمه.

(٢) اعتجز: أضرب. ويريد بالرداء السيف.

(٣) عرف القزويني الاستعارة المكنية بقوله: «قد يضمّر التشبيه في النفس فلا يصرح في أركانه سوى
لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به...» (الإيضاح، ص ٢٦٤).

وكقول أبي ذؤيب: [من الكامل]

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تنبيهًا على أَنَّ الشجاع أسد، والمنية سبع، والعالم بحر، وهذا وإن كان يشبه الاستعارة المجردة إلا أَنَّهُ أغرب وأعجب، ويقرب منه قول زهير: [من الطويل]

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزَّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتِ كُلِّ لَهْذَمٍ^(١)

أراد أن يقول: من لم يرض بأحكام الصلح رضي بأحكام الحرب، وذلك أنهم كانوا إذا طلبوا الصلح قبلوا زجاج الرماح وجعلوها قدامها مكانَ الأستة، وإذا أرادوا الحرب أشرعوا الأستة؛ وقد سُمِّيَ هذا النوع المماثلة أيضًا.

قال: وقد ينزلون الاستعارة منزلة الحقيقة، وذلك أنهم يستعبدون الوصف المحسوس للشيء المعقول ويجعلون كأنَّ تلك الصفة ثابتةٌ لذلك الشيء في الحقيقة، وأنَّ الاستعارة لم توجد أصلًا، مثاله أستعارتهم العلوَّ لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علوًا مكانيًا، كقول أبي تمام: [من المتقارب]

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنُّ الْحَسُودُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ

وكقوله أيضًا: [من الطويل]

مَكَارِمَ لَجَّتْ فِي عُلُوِّ كَأَنَّمَا تَحَاوُلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ

ولذلك يستعبدون اسم شيء لشيء من نحو شمس أو بدر أو أسد ويبلغون إلى حيث يُعتقد أنه ليس هناك أستعارة، كقول ابن العميد: [من الكامل]

قَامَتْ تَظَلَّلْنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي

قَامَتْ تَظَلَّلْنِي وَمِنْ عَجَبٍ شَمْسٌ تَظَلَّلْنِي مِنَ الشَّمْسِ^(٢)

وكقول آخر: [من الوافر]

أَيَا شَمْعًا يَضِيءُ بِلَا أَنْطِفَاءٍ وَيَا بَدْرًا يُلُوحُ بِلَا مُحَاقٍ

فَأَنْتَ الْبَدْرُ مَا مَعْنَى أَنْتَقَاصِي؟ وَأَنْتَ الشَّمْعُ مَا مَعْنَى أَحْتَرَاقِي؟^(٣)

(١) الزجاج: مفردة زج، وهو الحديد الموضوعة في أسفل الرمح.

(٢) وقفت حبيبتة التي تشبه الشمس في جمالها، حيلة فحجبت عنه أشعة الشمس.

(٣) يشبه حبيبتة بالشمعة التي تضيء، والبدر الذي يطلع دون غياب أو انتقاص. المحاق: آخر =

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة لما كان لهذا التعجب معنى، ومدار هذا النوع على التعجب.

وقد يجيء على عكسه، كقول الشاعر: [من المنسرح]

لا تعجبوا مِن بلى غلالته قد زرَّ أزراره على القمر^(١)

فصل في أقسام الاستعارة

قال: وهي على نوعين:

الأول: أن تعتمد نفس التشبيه، وهو أن يشترك شيان في وصف وأحدهما أنقص من الآخر، فتعطي الناقصَ أَسْمَ الزائد مبالغةً في تحقُّق ذلك الوصف له كقولك: رأيت أسداً وأنت تعني رجلاً شجاعاً، وعنت لنا ظيئةً وأنت تريد امرأةً.

والثاني: أن تعتمد لوازمه عندما تكون جهة الاشتراك وصفاً، وإنما ثبت كماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر فتثبت ذلك الشيء للمستعار له مبالغة في إثبات المشترك، كقول لبيد: [من الكامل]

وغداة ريح قد كشفتُ وقرّة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها^(٢)

وليس هناك مشار إليه يمكن أن يُجرى أَسْمَ اليد عليه كما جرى الأسد على الرجل لكنّه خيّل إلى نفسه أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعة الإنسان المتصرف فيما زمامه ومقادئه بيده، لأن تصرف الإنسان إنما يكون باليد في أكثر الأمور فاليد كالألة التي تكملُ بها القوة على التصرف، ولما كان الغرض إثبات التصرف - وذلك مما لا يكملُ إلا عند ثبوت اليد - أثبت اليد للشمال تحقيقاً للغرض، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال^(٣)، وكذلك قول تأبط شراً: [من الطويل]

إذا هزّه في عظم قرن تهلّلت نواجدُ أفواه المنايا الضواحي

= الشهر القمري، يختفي فيه القمر ولا يظهر.

(١) إذا كانت غلالته بالية فإن جسمه يشبه القمر في جماله.

(٢) القرّة: شدة البرد.

(٣) يقول القزويني في شرح بيت لبيد: وعدها ريح قد كشفت... الخ. لقد جعل للشمال يداً.

وحكم الزمام في استعارته للقرّة حكم اليد في استعارتها للشمال، فجعل القرّة زماماً...
[الإيضاح، ص ٢٦٤].

لَمَّا شَبَّهَ المَنَيا عِنْدَ هَزِّهِ السِّيفِ بِالمَسْرُورِ - وَكَمَالِ الفَرَحِ وَالسُّرُورِ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِالصُّحُكِ الَّذِي تَتَهَلَّلُ فِيهِ النُّوَاجِدُ - أَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلوَصْفِ المَقْصُودِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَيا مَا يُنْقَلُ إِلَيْهِ أَسْمُ النُّوَاجِدِ، وَهَكَذَا الكَلَامُ فِي قَوْلِ الحِمَاسِيِّ: [مِن الطَّوِيلِ]

سَقَاهُ الرَّدَى سِيفٌ إِذَا سُلَّ أَوْمَضَتْ إِلَيْهِ ثَنَايَا المَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرَقَبٍ

وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُمْ: فَلَانَ مُرْحَى العِنَانِ، وَمُلْقَى الزَّمَامِ.

قَالَ: وَيَسْمَى هَذَا النُّوعُ اسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً، وَهُوَ كِائِبَاتُ الجَنَاحِ لِلذَّلِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإِسْرَاءُ: الآيَةُ ٢٤]. قَالَ: إِذَا عُرِفَ هَذَا فَالنُّوعُ الأوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

الأوَّلُ: أَنْ يَسْتَعَارَ المَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ، وَذَلِكَ إِمَّا بِأَنْ يَشْتَرِكَا فِي الذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي الصِّفَاتِ، كَاسْتِعَارَةِ الطَّيْرَانِ لغيرِ ذِي جَنَاحٍ فِي السَّرْعَةِ، فَإِنَّ الطَّيْرَانِ وَالعَدُوَّ يَشْتَرِكَانِ فِي الحَقِيقَةِ وَهِيَ الحَرَكَةُ الكَائِنَةُ إِلَّا أَنَّ الطَّيْرَانَ أَسْرَعُ. أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي الذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ شَمْسًا وَيَرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مَرْيَمُ: الآيَةُ ٤] فَالمُسْتَعَارُ مِنَ النَّارِ، وَالمُسْتَعَارُ لَهُ الشَّيْبُ، وَالجَامِعُ الانْبِسَاطُ، وَلَكِنَّهُ فِي النَّارِ أَقْوَى؛ وَإِمَّا غَيْرَ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: الآيَةُ ٤١] المُسْتَعَارُ لَهُ الرِّيحُ، وَالمُسْتَعَارُ مِنَ المَرءِ وَالجَامِعُ المَنْعُ مِنْ ظُهُورِ النَتِيجَةِ.

الثَّانِي: أَنْ يَسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لشيءٍ مَعْقُولٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ الوَصْفِ، فَيَتَنَزَّلُ النَّاْقِصُ مَنزَلَةً الكَامِلِ كَاسْتِعَارَةِ اسْمِ العَدَمِ لِلوُجُودِ إِذَا اشْتَرَكَا فِي عَدَمِ الفَائِدَةِ، أَوْ اسْتِعَارَةِ اسْمِ الوُجُودِ للعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثارُهُ المَطْلُوبَةُ مِنْهُ، كَتَشْبِيهِ الجَهْلِ بِالمَوْتِ لِاشْتِرَاكِ المَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ الإِدْرَاكِ وَالعَقْلِ، وَكَقَوْلِهِمْ: فَلَانَ لَقِيَ المَوْتَ إِذَا لَقِيَ الشَّدَائِدَ، لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي المَكْرُوهِيَّةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ﴾ [الأَعْرَافُ: الآيَةُ ١٥٤] وَالسَّكُوتُ وَالزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَسْتَعَارَ المَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَاسْتِعَارَةِ النُّورِ الَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ لِلحُجَّةِ، وَاسْتِعَارَةِ القِسْطَاسِ للعَدْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنْبِيَاءُ: الآيَةُ ١٨] فَالْقَذْفُ وَالدْمَغُ مُسْتَعَارَانِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [العَجَر: الآيَةُ ٩٤] اسْتِعَارَةٌ لِبَيَانِهِ عَمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ كَظُهُورِ مَا فِي الزَّجَاجَةِ عِنْدَ

أنصداعها، وكلُّ خوض في القرآن العزيز فهو مستعار من الخوض في الماء، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ١١] جعل لهما طاعة وقولاً.

الرابع: أن يستعار اسمُ المعقول للمحسوس على ما تقدّم ذكره في التشبيه كقوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: الآيتان ٧، ٨] فالشهيقي والغيط مستعاران، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى نَضَعَ الْكُرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمّد: الآية ٤] والأقوال في الاستعارة كثيرة، وقد أوردنا فيها ما يُستدلُّ به عليها.

وأما الكناية - قال: اللفظة إذا أُطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها فلا يخلو: إما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي وإما أن لا يكون كذلك.

فالأول: هو الكناية، ويقال له: الإرداف أيضاً.

والثاني: المجاز.

فالكناية عند علماء البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني لا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفّه في الوجود فيومي به إليه، ويجعله دليلاً عليه^(١)، مثال ذلك قولهم: طويل النجاد وكثير رَمَادِ القدر، يعنون به أنه طويلُ القامة، كثيرُ القِرَى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثَمَرٌ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٩٠] كنى بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر.

وقول الشاعر^(٢): [من الطويل]

بعيدة مهوى الفُرطِ إما لتوفل أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمٍ

(١) حد السكاكي الكناية بقوله: «الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة» (المفتاح، ص ١٨٩).

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي. زعيم مدرسة الغزل الإباحي في العصر الأموي. ولد بمكة في الليلة التي قتل بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ. ومات سنة ٩٣ هـ باحترق سفينته بالبحر. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١١١ - ١١٣).

أراد يذكر طُولَ جِيدها فأتى بتابعه وهو بُعد مهوى القرط، وكقول ليلى الأَخِيلِيَّة^(١): [من الكامل]

ومخرِّقٌ عنه القميصُ تخاله وسطَ البيوت من الحياء سقيما
كَنَتْ عن جوده بخرق القميص من جذب العُفاة له عند أزدحامهم لأخذ العطاء،
وأمثال ذلك. قال:

والكناية تكون في المَثْبِت كما ذكرنا، وقد تكون في الإثبات وهي ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعاني لشيء فيتركون التصريح بإثباته له، ويثبتونه لما له به تعلُّق، كقولهم: المجدُّ بين ثوبيه، والكرم بين برديه، وقول الشاعر^(٢): [من الكامل]

إن المروءةَ والسماحةَ والندى في قُبَّةٍ ضُربت على أبنِ الحَشْرِجِ
قال: وأعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود، فتريد بقولك: كثيرُ الرماد حقيقته وتجعل ذلك دليلاً على كونه جواداً، فالكناية ذكر الرديف وإرادة المردوف.

وأما التعريض - فهو تضمين الكلام دلالةً ليس لها ذكر، كقولك: ما أقبح البخل! لمن تُعرِّض ببخله، وكقول محمد بن عبد الله بن الحسن: لم يُعْرِق في أمهات الأولاد، يعرِّض بالمنصور بأنه ابن أمة، وأمثال ذلك.

وأما التمثيل - فإنما يكون من باب المجاز إذا جاء على حد الاستعارة، مثاله قولك للمتحيِّر: فلان يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى، فلو قلت: إنه في تحيِّره كمن يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى لم يكن من باب المجاز، وكذلك قولك لمن أخذ في عمل لا يتحصَّل منه مقصودٌ: أراد تنفخ في غير ضَرَم، وتخطَّ على الماء.

قال: وأجمعوا على أنَّ للكناية مزيةً على التصريح لأنك إذا أثبت كثرة القِرى بإثبات شاهدها ودليلها فهو كالدعوى التي معها شاهد ودليل، وذلك أبلغ من إثباتها بنفسها.

(١) هي ليلى الأَخِيلِيَّة العُقَيْلِيَّة، اشتهرت بمراثيها الحزينة أحبت ثوبة بن العمير ورثته، اتصلت بعبد الملك بن مروان والحجاج. توفيت سنة ٨٠ هـ. ولها ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو زياد الأعجم. وابن الحشرج أمير نيسابور. وهو زياد بن سليم أو سليمان مولى عبد القيس، شاعر أموي جزل الشعر. لقب بالأعجم لعجمة في لسانه عاش في خراسان ومات فيها سنة ١٠٠ هـ مدح هشام بن عبد الملك وعبد الله بن جعفر. (الزركلي، الأعلام).

وأما الخبر وأحكامه - فقد قال: الخبر هو القول المقتضي تصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو الإثبات. وتسمية أحد جزئيه بالخبر مجازية. ثم المقصود من الخبر إن كان هو الإثبات المطلق فيكون بالاسم، كقوله تعالى: ﴿وَكَبَّهُمْ بِسِطِّ ذُرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] وإن لم يتم ذلك إلا بإشعار زمانه فيكون بالفعل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآية ٣] فإن المقصود لا يتم بكونه معطياً للرزق بل بكونه معطياً للرزق في كل حين وأوان، والإخبار بالفعل أخص من الإخبار بالاسم، وإذا أنعمت النظر وجدت الاسم موضوعاً على أن تثبت به المعنى للشيء من غير إشعار بتجدده شيئاً فشيئاً، بل جعل البسط مثلاً صفة ثابتة ثبوت الطول أو القصر في قولك: زيد طويل أو قصير، بخلاف ما إذا أخبرت بالفعل فإنه يشعر بالتجدد وأنه يقع جزءاً فجزءاً، وإذا أردت شاهداً على ذلك فتأمل هذا البيت^(١): [من البسيط]

لا يَأْلَفُ الدرهم المضروب صُرْتَنَا إلا يَمُرُّ عليها وهو منطلق

فجاء بالاسم، ولو أتى بالفعل لم يحسن هذا الحسن. والفعل المتعدي إلى جميع مفعولاته خبر واحد، حتى إذا قلت: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة خلف المسجد ضرباً شديداً تأديباً له كان الخبر شيئاً واحداً وهو إسناد الضرب المقيّد بهذه القيود إلى زيد، فظهر من ذلك أن قولك: جاءني رجلاً مغاير لما دلّ عليه قولك: جاءني رجل ظريف، وإنك لست في ذلك إلا كمن يضّم معنى إلى معنى. وحكم المبتدأ والخبر أيضاً كذلك، فقول بشار^(٢): [من الطويل]

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تَهَاوَى كواكبه^(٣)

خبر واحد. وإذا قلت: الرجل خير من المرأة فاللام فيه قد تكون للعموم أو للخصوص بأن ترجع إلى معهود، أو لتعريف الحقيقة مع قطع النظر عن عمومها وخصوصها. وإذا قلت: زيد المنطلق، أو زيد هو المنطلق أفاد أنحصار المخبر به في المخبر عنه، فإن أمكن الحصر ترك على حقيقته، وإلا فعلى المبالغة. وإذا قلت:

(١) هذا البيت للنضر بن جؤبة بن النضر.

(٢) هو بشار بن برد العقيلي. شاعر عباسي ضربه بالولادة بصري المولد، قدم بغداد ومدح المهدي، ثم رمي بالزندقة فضرب سبعين سوطاً فمات ودفن في البصرة سنة ١٦٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٨).

(٣) النقع: الغبار. شبه السيوف بالكواكب، وشبه الغبار بالليل.

المنطلق زيد فهو إخبار عما عُرِفَ بما لم يُعَرَفَ، فكأن المخاطب عَرَفَ أن إنساناً أنطلق ولم يعرف صاحبه، فقلت: الذي تعتقد أنه منطلق زيد.

وأما الذي - فهو للإشارة إلى مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة كقولك: ذهب الرجل الذي أبوه منطلق، وهو تحقيق قولهم: إنه يُستعمل لوصف المعارف بالجمُل. والتصديق والتكذيب يتوجهان إلى خبر المبتدأ لا إلى صفته، فإذا كذبت القائل في قوله: زيد بن عمرو كريم، فالتكذيب لم يتوجه إلى كونه ابنَ عمرو بل إلى كونه كريماً.

وأما التقديم والتأخير - قال: إذا قُدِّم الشيء على غيره فإما أن يكون في نية التأخير، كما إذا قُدِّم الخبر على المبتدأ؛ وإما أن يكون في نية التأخير ولكن أنتقل الشيء من حكم إلى آخر، كما إذا جئت إلى أسمين جاز أن يكون كل واحد منهما مبتدأ فجعلت أحدهما مبتدأ، كقولك: زيد المنطلق، والمنطلق زيد. قال الجرجاني: قال صاحب الكتاب^(١): كأنهم يقدمون الذي بيأنه أهم لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم، مثاله: أن الناس إذا تعلق غرضهم بقتل خارجي مفسد ولا يبالون من صدَرَ القتل منه، وأراد مريد الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول: قتل الخارجي زيد، ولا يقول: قتل زيد الخارجي لأنه يعلم أن قتل الخارجي هو الذي يعنيه، وإن كان قد وقع قتل من رجل يبعد في اعتقاد الناس وقوع القتل من مثله قُدِّم المخبر ذكر الفاعل فيقول: قتل زيد رجلاً لاعتقاد الناس في المذكور خلاف ذلك. انتهى كلام الجرجاني^(٢).

قال: ولنذكر ثلاثة مواضع يُعرف بها ما لم يُذكر:

الأول: الاستفهام - فإذا أدخلته على الفعل وقلت: أضربت زيداً؟ كان الشك في وجود الفعل، وإذا أدخلته على الاسم وقلت: أأنت ضربت زيداً؟ كان الفعل محققاً والشك في تعيين الفاعل. وهكذا حكم النكرة، فإذا قلت: أ جاءك رجل؟ كان المقصود: هل وُجد المجيء من رجل؟ فإذا قلت: أرجل جاءك؟ كان ذلك سؤالاً عن

(١) يعني بصاحب الكتاب سيبويه لأنه سُمي مؤلفه في النحو «الكتاب». ولد في البصرة وتوفي قرب شيراز سنة ٧٧٠ م. واسمه عمرو بن عثمان. وهو إمام البصريين في النحو كما أن الكسائي إمام الكوفيين في هذا العلم. (المنجد).

(٢) هو عبد القاهر الجرجاني وقد تكلم على هذا الموضوع في كتابه أسرار البلاغة في سياق حديثه عن النظم.

جنس من جاء بعد الحكم بوجود المجيء من إنسان؛ وقس عليه الخبر في قولك: ضربت زيدًا، وزيدًا ضربت، وجاءني رجل، ورجل جاءني؛ ثم الاستفهام قد يجيء للإنكار، فإن كان في الكلام فعل ماضٍ وأدخلت الاستفهام عليه كان لإنكاره، كقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ [الصافات: الآية ١٥٣] وإن أدخلته على الاسم فإن لم يكن الفعل مترددًا بينه وبين غيره كان لإنكار أنه الفاعل، ويلزم منه نفْي ذلك الفعل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَذُنٌ لَكُمْ﴾ [يونس: الآية ٥٩] أي لو كان إذن لكان من الله، فلمَّا لم يوجد منه دلٌّ على أن لا إذن، كما تقول: متى كان هذا، في ليلٍ أم نهار؟ أي لو كان لكان في ليلٍ أو نهار، فلمَّا لم يوجد في واحد منهما لم يوجد أصلًا، وعليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ حَرَّمَ آيَاتِهِ الَّذِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]. وإن كان مرددًا بينه وبين غيره كان إما للتقرير والتوبيخ، وعليه قوله تعالى حكاية عن قول نُمرود: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَيْنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٢]. وإما لإنكار أنه الفاعل مع تحقيق الفعل، كقولك لمن انتحل شعرًا: أنت قلت هذا؟^(١)

وإن كان الفعل مضارعًا، فإن أدخلت حرف الاستفهام عليه كان إمَّا لإنكار وجوده، كقوله تعالى: ﴿أَنْتَ كَذُوبٌ﴾ [هود: الآية ٢٨]. أو لإنكار أنه يقدر على الفعل، كقول امرئ القيس: [من الطويل]

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

أو لإزالة طمع من طمع في أمر لا يكون، فَيَجْهَلُهُ في طمعه، كقولك: أيرضى عنك فلان وأنت على ما يكره؟ أو لتعنيف من يضيع الحق، كقول الشاعر: [من الطويل]

أَتَرَكْ إِنْ قَلْتُ دِرَاهِمَ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنْ نِي إِذْنٍ لِّلنَّاسِ^(٢)

أو لتنديم الفاعل، كما تقول لمن يركب الخطر: أخرج في هذا الوقت؟

وإن أدخلته على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعل إما للاستحقار كقولك: أنت تمنعني؟ أو للتعظيم كقولك: أهو يسأل الناس؟ أو للمبالغة إما في

(١) تحدث عبد القاهر الجرجاني على التقديم والتأخير في كتابه أسرار البلاغة، ص ٤٠ وما بعدها. والتوري يتابعه في كلامه هنا على هذا الموضوع.

(٢) البيت للشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير. من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن فريد الشيباني.

كرمه، كقولك: أهو يمنع سائله؟ وإما في خساسته، كقولك: أهو يسمح بمثل هذا؟. وقد يكون لبيان استحالة فعل ظُنْ ممكناً، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ [الزخرف: الآية ٤٠]، وكذلك إذا أدخلته على المفعول، كقوله تعالى: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ وَإِلَيْكَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤]، و﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٤٠]، و﴿أَبْشَرْنَا مَنَّا وَجِدًا نَنْعُهُ﴾ [القمر: الآية ٢٤].

الثاني: في التقديم والتأخير في النفي - إذا أدخلت النفي على الفعل فقلت: ما ضربتُ زيداً فقد نفيت عن نفسك ضرباً واقعاً بزيد، وهذا لا يقتضي كونَ زيدٍ مضروباً.

وإذا أدخلته على الاسم فقلت: ما أنت ضربتُ زيداً اقتضى من باب دليل الخطاب كونَ زيدٍ مضروباً، وعليه قول المتنبي: [من الطويل]

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسه شعراً^(١)

ولهذا يصح أن تقول: ما ضربتُ إلا زيداً، وما ضربتُ زيداً ولا ضربه أحد من الناس، ولا يصح أن تقول: ما أنا ضربتُ إلا زيداً، وما أنا ضربتُ زيداً ولا ضربه أحد من الناس.

أما الأول فلأن نقض النفي بـلَا يقتضي أن تكون ضربته، وتقديمك ضميرك وإيلاءه حرف النفي يقتضي ألا تكون ضربته فيتدافعان^(٢).

وأما الثاني فلأن أول الكلام يقتضي أن يكون زيدٌ مضروباً، وآخره يقتضي ألا يكون مضروباً فيتناقضان. إذا عُرِفَ هذا في جانب الفاعل فإنه مثله في جانب المفعول، فإذا قلت: ما ضربتُ زيداً لم يقتض أن تكون ضارباً لغيره، وإذا قلت: ما زيداً ضربتُ اقتضى ذلك، ولهذا صح ما ضربتُ زيداً ولا أحداً من الناس ولا يصح ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس.

وحكم الجار والمجرور حكم المفعول، فإذا قلت: ما أمرتك بهذا لم يقتض أن تكون قد أمرته بشيء غير هذا، وإذا قلت: ما بهذا أمرتك اقتضاه.

(١) يريد أن يقول إنه شعره في ممدوحه ليس من صنعه وحده، وإنما يسهم فيه الممدوح أيضاً.

(٢) بحث عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير في النفي في كتابه دلائل الإعجاز ص ٤٠ وما بعدها. وأتى بآراء مشابهة لآراء النويري.

وإذا قَدِّمْتَ صِغَةَ العموم على السلب وقلت: كلُّ ذا لم أفعله، برفع كلِّ كان نفيًا عامًا، ويناقضه الإثبات الخاص، فلو فعلت بعضه كنت كاذبًا.

وإن قَدِّمْتَ السلب وقلت: لم أفعل كلُّ ذا كان نفيًا للعموم ولا ينافي الإثبات الخاص، فلو فعلت بعضه لم تكن كاذبًا، ومن هذا ظهر الفرق بين رفع كلِّ ونصبه في قول أبي النجم^(١): [من الرجز]

قد أصبحت أم الخيار تدعي عليّ ذنبًا كله لم أصنع
فإن رفعته كان النفي عامًا، وأستقام غرض الشاعر في تبرئة نفسه من جملة الذنوب، وإن نصبته كان النفي نفيًا للعموم، وهو لا ينافي إثبات بعض الذنب فلا يتم غرضه.

الثالث: في التقديم والتأخير في الخبر المثبت - ما تقدّم في الاستفهام والنفي قائم هنا، فإذا قَدِّمْتَ الاسم وقلت: زيد فعل وأنا فعلت فالقصد إلى الفاعل، إما لتخصيص ذلك الفعل به، كقولك: أنا شَفَعْتُ في شأنه مدعيًا الانفراد بذلك أو لتأكيد إثبات الفعل له لا للحصر، كقولك: هو يعطي الجزيل، لتمكّن في نفس السامع أن ذلك دأبه دون نفيه عن غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: الآية ٣]، فإنه ليس المراد تخصيص المخلوقية بهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: الآية ٦١].

وكقول دُرَيْزِي بنت عَبَّيَّة: [من الطويل]

هما يَلْبَسَانِ المَجْدَ أَحْسَنَ لَيْسَةٍ شَحِيحَانِ مَا أَسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وقول الآخر: [من الطويل]

همو يَفْرِشُونَ اللَّبَدَ كُلَّ طِمْرَةٍ وَأَجْرَدَ سَبَاحَ يَبْذُ الْمُعَالِبَا^(٢)

قال: والسبب في هذا التأكيد أنك إذا قلت مثلاً: زيد، فقد أشعرت بأنك تريد الحديث عنه فيحصل للسامع تشوّق إلى معرفته، فإذا ذكرته قبلته النفس قبول العاشق

(١) أبو النجم (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، هو الفضل بن قدامة العجلي الوائلي. عاش في العصر

الأموي واتصل بعبد الملك بن مروان وولده هشام. من أكابر الرجاز. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الطمرة: الفرس الطويلة القوائم الخفيفة.

معشوقه فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشك والشبهة، ولهذا تقول لمن تعدّه: أنا أعطيك أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك إذا كان من شأن من يسبق له وعد أن يعترضه الشك في وفائه، ولذلك يقال في المدح: أنت تعطي الجزيل، أنت تجود حين لا يجود أحد، ومن ههنا تعرف الفخامة في الجمل التي فيها ضمير الشأن والقصة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] وأن فيها ما ليس في قولك: فإن الأبصار لا تعمى، وإن الكافرين لا يفلحون؛ وهكذا في الخبر المنفي، فإذا قلت: أنت لا تحسن هذا، كان أبلغ من قولك لا تحسن هذا، فالأول من هو أشد إعجاباً بنفسه وأكثر دعوى بأنه يُحسن.

قال: واعلم أنه قد يكون تقديم الاسم كاللازم نحو قوله: [من السريع]

يا عاذلي دعيني من عدلكا مثلي لا يقبل من مثلكا
وقول المتنبّي: [من السريع]

مثلك يشني الحزن عن صوبه ويستردّ الدمع عن غربه
وقول الناس: مثلك يرعى الحق والحرمة، وما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه إلى إنسان سوى الذي أضيف إليه وجيء به للمبالغة، وقد عبّر المتنبّي عن هذا المعنى فقال: [من السريع]

ولم أقل مثلك أعيني به سواك يا فردا بلا مُشبهه^(١)

وكذلك حكم «غير» إذا سلك فيه هذا المسلك، كقول المتنبّي: [من البسيط]

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبئوا أو حَدثوا شجعوا^(٢)

أي لست ممن ينخدع ويغترّ، ولو لم يقدّم مثلاً وغيّراً في هذه الصور لم يؤدّ هذا المعنى.

قال: ويقرب من هذا المعنى تقديم بعض المفعولات على بعض في نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٠] فإن تقديم شركاء على الجن أفاد أنه ما ينبغي لله شركاء لا من الجن ولا من غيرهم، لأن شركاء مفعول ثان لجعلوا،

(١) يريد أن يقول إن ممدوحه لا يشبهه أحد فيشبهه به.

(٢) يعني أنه لا يثق بالناس ولا ينخدع بادعاءاتهم فهم شجعان في الكلام جبّاء في ساحة الوغى.

ولله متعلّق به والجنّ مفعوله الأول، فقد جعل الإنكار على جعل الشريك لله على الإطلاق من غير اختصاص بشيء دون شيء، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة عن مَجراها على شيء كان الذي تعلق بها من المنفيّ عامّا في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة، فإذا قلت: ما في الدار كريم، كنت نفيّت الكينونة في الدار عن كل شيء يكون الكرم صفةً له، وحكم الإنكار أبدًا حكم النفي، فأما إذا أحرّث شركاء فقلت: وجعلوا الجنّ شركاء لله فيكونُ جَعْلُ الشركاء مخصوصًا غير مطلق فيحتمل أن يكون المقصودُ بالإنكار جعلُ الجنّ شركاء لا جعلُ غيرهم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فقدم شركاء نفيًا لهذا الاحتمال.

فصل في مواضع التقديم والتأخير^(١)

قال: أما التقديم فيحسن في مواضع:

الأول: أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدّ، كقولك: قطع اللصّ الأمير.

الثاني: أن يكون ذلك أليق بما قبله من الكلام أو بما بعده، كقوله تعالى:

﴿وَنَفَسْهُنَّ وُجُوهُهُنَّ النَّارَ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، فإنه أشكّل بما بعده وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٩]، وبما قبله وهو: ﴿مُفَرِّقِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٩].

الثالث: أن يكون من الحروف التي لها صدر الكلام، كحروف الاستفهام

والنفي، فإنّ الاستفهام طلب فهم الشيء، وهو حالة إضافية فلا تستقل بالمفهومية فيشتدّ اتصاله بما بعده.

الرابع: تقديم الكلّي على جزئياته، فإن الشيء كلما كان أكثر عمومًا كان أعرف

فإن الوجود لما كان أعمّ الأمور كان أعرفها عند العقل.

الخامس: تقديم الدليل على المدلول.

وأما التأخير فيحسن في مواضع:

الأول: تمام الاسم كالصلة والمضاف إليه.

(١) تكلم القزويني على التقديم والتأخير في باب المسند والمُسند إليه من كتابه الإيضاح، ص ٩٣ وما بعدها. وكذلك تحدث عن هذا الموضوع السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم»، ص ٩٠ وما بعدها.

الثاني: توابع الأسماء.

الثالث: الفاعل.

الرابع: المضمر، وهو أن يكون متأخرًا لفظًا وتقديرًا، كقولك: ضرب زيد غلامه أو مؤخرًا في اللفظ مقدمًا في المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] أو بالعكس كقولك: ضرب غلامه زيد؛ وإن تقدّم لفظًا ومعنى لم يجز كقولك: ضرب غلامه زيدًا.

الخامس: ما يُفْضِي إلى اللبس، كقولك: ضرب موسى عيسى، أو أكرم هذا هذا، فيجب فيه تقديم الفاعل.

السادس: العامل الذي هو ضعيف عمله، كالصفة المشبهة والتمييز وما عمل فيه حرف أو معنى، كقولك: هو حسنٌ وجهًا، وكريم أبا، وتصيب عرقًا، وخمسة وعشرون درهمًا، وإن زيدًا قائم، وفي الدار سعد جالسًا. ولا يجوز الفصل بين العامل والمعمول بما ليس منه، فلا تقول: كانت زيدًا الحمى تأخذ إذا رفعت الحمى وكانت للفصل بين العامل وما عمل فيه، فإن أضمرت الحمى في كانت صحت المسألة.

وأما الفصل والوصل - فهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهذي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى إن بعضهم حدّ البلاغة بأنها معرفة الفصل والوصل^(١). وقال عبد القاهر: إنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كَمُلَ لسائر معاني البلاغة.

قال: اعلم أن فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه^(٢)، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلا هذا القدر وهو الواو، ومنها ما يفيد فائدة زائدة كالفاء وثم وأو، وغرضنا ههنا متعلق بما لا يفيد إلا الاشتراك فنقول: العطف إما أن يكون في المفردات، وهو يقتضي التشريك في الإعراب، وإما أن يكون في الجمل، وتلك الجملة إن كانت في قوة المفرد كقولك: مررت برجل خلقه حسنٌ وخلق قبيح، فقد

(١) لعل أقدم من أشار إلى أهمية الفصل والوصل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، الجزء الأول، باب البلاغة، صفحة ٩١.

(٢) حد القزويني الفصل والوصل بقوله: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه». (الإيضاح، ص ١٤٥).

أشركتَ بينهما في الإعراب والمعنى لاشتراكهما في كون كل واحد منهما تقييداً للموصوف، ولا يُتصور أن يكون اشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراك فيه، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حاله الأول عساه يعرف حاله الثاني، يدلك على ذلك أنك إذا عطفت على الأول شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكر بذكره لم يستقم، فلو قلت: خرجت اليوم من داري، وأحسن الذي يقول بيت كذا قلت ما يُضحك منه، ومن ههنا عابوا على أبي تمام قوله: [من الكامل]

لا والذي هو عالم أن النوى صَبِرَ وأن أبا الحسين كريم
وإن لم تكن في قوة المفرد فهي على قسمين:

الأول: أن يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الأخرى كما إذا كانت كالتوكيد لها أو كالصفة، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأن التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكد^(١) والموصوف لذاتهما، والتعلق الذاتي يغني عن لفظ يدل على التعلق، فمثال التوكيد قوله تعالى: ﴿الْمَ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: الآيتان ١، ٢] فلا ريب فيه توكيد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: الآية ٢] كأنه قال: هو ذلك الكتاب، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْأَذْيَافَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٧] تأكيد ثان أبلغ من الأول، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يُؤْتُواهُمُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآيتان ٨، ٩] ولم يقل: ويخادعون، لأن المخادعة ليست شيئاً غير قولهم: آمنا مع أنهم غير مؤمنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: الآية ٧] ولم يقل تعالى: وكان، وأمثال ذلك في القرآن العزيز كثيرة.

القسم الثاني: ألا يكون بين الجملتين تعلق ذاتي، فإن لم يكن بينهما مناسبة فيجب ترك العاطف أيضاً، لأن العطف للتشريك ولا تشريك، ومن ههنا أيضاً عابوا

(١) اعتبر القزويني التأكيد أحد أنواع الفصل الثلاثة لكمال الاتصال بين الجملتين. أما النوعان الآخران فهما أن تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى، أو أن تكون الجملة الثانية بياناً للأولى. (الإيضاح، صفحة ١٤٨ - ١٥٠).

على أبي تمام البيت المتقدم، لا والذي هو عالم...، إذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم أبي الحسين، ولذلك لم يحسن جوازُ العاطف.

وإن كان بينهما مناسبة فيجب ذكر العاطف.

ثم إن كان المحدث عنه في الجملتين شيئين فالمناسبة بينهما إما أن تكون بالذي أخبر بهما، أو بالذي أخبر عنهما، أو بهما كليهما؛ وهذا الأخير هو المعتبر في العطف. قال: ونعني بالمناسبة أن يكونا متشابهين، كقولك: زيد كاتب وعمرو شاعر أو متضادين تضادًا على الخصوص، كقولك زيد طويل وعمرو قصير، وكقولك: العلم حسن والجهل قبيح، فلو قلت: زيد طويل والخليفة قصير لاختل معنى عند ما لا يكون لزيد تعلق بحديث الخليفة، ولو قلت: زيد طويل وعمرو شاعر لاختل لفظًا، إذ لا مناسبة بين الطويل القامة والشاعر.

وإن كان المحدث عنه في الجملتين شيئًا واحدًا، كقولك: فلان يقول ويفعل ويضمر وينفع، ويأمر وينهى، ويسيء ويحسن، فيجب إدخال العاطف فإن الغرض جعله فاعلاً لأمرين، فلو قلت: يقول يفعل بلا عاطف لثوهم أن الثاني رجوع عن الأول.

وإذا أفاد العاطف الاجتماعَ ازداد الاشتراك، كقولك: العجب من أنك أحسنت وأساءت، والعجب من أنك تنهى عن شيء وتأتي مثله، وكقوله: [من البسيط]

لا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَنَكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكْفُ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فإن المعنى جعلُ الفعلين في حكم واحد، أي لا تطمعوا أن تروا إكرامنا إياكم يُوجد مع إهانتكم إيانا.

قال: وقد يجب إسقاط العاطف في بعض المواضع لاختلال المعنى عند إثباته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: الآيتان ١١، ١٢]، فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٢] كلام مستأنف، وهو إخبار من الله تعالى، فلو أتى بالواو لكان إخبارًا عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم يُفسدون فيختل المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: الآية ١٣] وأمثال ذلك كثيرة؛ وإذا كان كذلك فلا حاجة إلى العاطف بخلاف قوله تعالى: ﴿يُخَذِّلُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَالِدُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢]، ﴿وَمَكْرُوءٌ وَمَكْرُوءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥٤] فإن كل واحدة من الجملتين خبرٌ من الله تعالى.

قال: ومما يجب ذكره ههنا الجملة إذا وقعت حالاً^(١) فإنها تجيء مع الواو تارة وبدونها أخرى فنقول: الجملة إذا وقعت حالاً فلا بد أن تكون خبرية تحتل الصدق والكذب، وهو على قسمين:

الأول وله أحوال:

الأولى: أن يُجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال، كقولك: جاء زيد ويده على غلامه، ولقيت زيدا وفرسه سابقه، وهذه الواو تسمى واو الحال.

الثانية: أن تجيء بالضمير من غير واو، كقولك: كلمته فوه إلى في، وهو في معنى مُشافهاً، والرابط الضمير، فلو قلت: كلمته إلى في فوه، ولقيته عليه جبة وشي لم يكن من باب وقوع الجملة حالاً، لأنه يمكننا أن نرفع فوه وجبة بالجار والمجرور فيرجع الكلام إلى وقوع المفرد حالاً، والتقدير كلمته كائنًا إلى في فوه، ولقيته مستقرة عليه جبة وشي، وعليه قول يشار: [من الطويل]

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها غدوت مع البازي علي سواد

الثالثة: أن تجيء الواو من غير ضمير وهو كثير، كقولك: لقيتك والجيش قادم وزرنا والشتاء خارج. ويجوز أن يُجمع بين حالين مفرد وجملة إذا أجزنا وقوع حالين كقولك: لقيتك راكبًا والجيش قادم، فالجملة حال من التاء أو من الكاف، والعامل فيها لقيت، أو من ضمير «راكبًا» و «راكبًا» هو العامل فيها.

القسم الثاني: الجملة الفعلية، ولا بد أن تكون ماضيًا أو مضارعًا أما الماضي فلا بدّ معه من الإتيان بالواو وقد أو بأحدهما، كقولك: تكلمت وقد عجلت، وجاء زيد قد ضرب عمرًا، وجئت وأسرت في المجيء، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَلَذَّةُ﴾ [الشعراء: الآية ١١١]، ولم يُجز البصريون خلوه عنهما، وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٠] وفي قول أبي صخر الهذلي: [من الطويل]

وإني لتعروني لذكرائك هزة كما أنتفض العصفور بئله القطر

(١) بحث القزويني حكم الجملة الحالية. وقال إن الجملة التي تقع حالاً ضربان، خالية من ضمير تقع حالاً، وغير خالية. الأولى يجب أن تكون بالواو. أما الثانية فتارة تكون بالواو وتارة يمتنع ذلك، وتارة يترجح أحدهما، وتارة يستوي الأمران. (الإيضاح، ص ١٥٨ - ١٥٩).

إِنْ قد مقدَّرَةٌ فيهما، فَإِنَّ الشيءَ إذا عُرف موضَعُه جاز حذفه.

وأما المضارع فإن كان موجبًا فلا يؤتى معه بالواو، فتقول: جاءني زيد يضحك، ويجيء عمرو يسرع، وأجلس تحدّثنا بالرفع أي محدّثًا لنا، لأنه بتجرّده عما يغير معناه أشبهَ أَسَمَ الفاعل إذا وقع حالًا.

وإن كان منفياً جاز حذف الواو مراعاةً لأصل الفعل الذي هو الإيجابُ وجاز إثباتها، لأن الفعلَ ليس هو الحالُ، فإن معنى قولك: جلس زيد ولم يتكلّم جلس زيد غير متكلّم، فجرى مجرى الجملة الاسمية، فالحذف كقولك: جاء زيد ما يَفُوه بنت شَفة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا فُجُورٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٥]، فقوله: لا يمسنا في موضع نصبٍ على الحال من ضمير المرفوع في أحلّنا، والإثبات كقولك: جلس زيد ولم يتكلّم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نُقْعًا﴾ [طه: الآية ٨٩]. قال: وشبهوا به الفعلَ الماشيَ فقالوا: جاء زيد ما ضرب عمراً، وجاء زيد وما ضرب عمراً.

وأما الحذف والإضمار - فقد قال: الأفعال المتعدّية التي تُترك ذكر مفعولاتها على قسمين:

الأول: ألا يكونَ له مفعول معيّن فقد يُترك مفعوله لفظًا وتقديرًا ويُجعل حاله كحال غير المتعدّي، كقولهم: فلان يَحُلّ وَيَعْقِد، ويأمر وَيَنْهَى، ويضرّ وينفع والمقصود إثبات المعنى في نفسه للشيء من غير التعرّض لحديث المفعول، فكأنك قلت: بحيث يكون منه حلّ وعقد وأمر ونهي ونفع وضرّ، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: الآية ٩] أي هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن ينص على معلوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [التكوير: الآية ١٦] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: الآيات ٤٣ - ٤٨] وبالجمله فمتى كان الغرض بيانَ حال الفاعل فقط فلا تُعدّ الفعل، فإن تعدّيته تنقُض الغرض. ألا ترى أنك إذا قلت: فلان يُعطي الدنانير كان المقصود بيانَ جنس ما يتناوله الإعطاء لا بيانَ حالِ كونه معطيًا؟.

الثاني: أن يكون له مفعول معلوم إلا أنه يُحذف في اللفظ لأغراض:

الأول: أن يكون المراد بيانَ حالِ الفاعِل وأنَّ ذلك الحال دأبه لا بيانَ المفعول كقول طُفَيْل^(١): [من الطويل]

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلّقت بنا نعلنا في الواطئين فزلّت
أبوا أن يَمَلُّونا ولو أن أمانا تُلاقِي الذي لاقوه منا لَمَلّت
هُم خلطونا بالنفوس والجؤوا إلى حُجرات أدفأت وأظلت

والأصل أن تقول: لَمَلَّتْنا وألجؤنا وأدفأتنا وأظلتنا، فحذف المفعول المعين من هذه المواضع الأربعة، وكأنه قد أبهم ولم يقصد قصد شيء يقع عليه، كما تقول: قد ملّ فلان، تريد قد دخل عليه المَلالُ من غير أن تخص شيئًا بل لا تزيد على أن تجعل المَلال من صفته، فلذلك الشاعر جعل هذه الأوصاف من دأبهم، ولو أضاف إلى مفعول معين لبطل هذا الغرض، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القَصص: الآيتان ٢٣، ٢٤] فقد حذف المفعول في أربعة مواضع، فإن ذكره ربما يُخلّ بالمقصود، فلو قال تعالى مثلاً: تذودان غنمهما لتؤهّم أنّ الإنكارَ إنما جاء من ذؤدِهما الغنم لا من مطلق الذؤود، كقولك: ما لك تمنع أخاك؟ فإنّ الإنكار من منع الأخ لا من مطلق المنع.

الثاني: أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهامًا بأنك لا تقصد ذكره كقول البحتري: [من الخفيف]

شَجَوُ حَسَادِهِ وَغِيظُ عِدَائِهِ أَنْ يَرَى مَبْصَرَ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنه، أو يسمع واعٍ أخباره، ولكنه تغافل عن ذلك إذانًا بأن فضائله يكفي فيها أن يقع عليها بصرٌ أو يعيها سمع حتى يعلم أنه المتفرد بالفضائل، فليس لحساده وعداءه أشجى من علمٍ بأن هنا مبصرًا وسامعًا.

الثالث: أن يُحذف لكونه بيّنًا، كقولهم: أصغيت إليك، أي أذني، وأغضيت عليك، أي جفني.

(١) هو طفيل بن كعب الغنوي، من أوقف الناس للخيل، كان يقال له في الجاهلية «المجبر» لحسن شعره، شاعر جاهلي. (الشعر والشعراء، ص ٢٩٥).

فصل في حذف المبتدأ والخبر

قال: قد يحسُن حذف المبتدأ حيث يكون الغرضُ أنه قد بلغ في استحقاق الوصف بما جُعِل وصفًا له إلى حيث يُعَلَّم بالضرورة أن ذلك الوصفَ ليس إلا له سواء كان في نفسه كذلك، أم بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة، فذكره يُبَيِّط هذا الغرضَ، ولهذا قال الإمام عبدُ القاهر^(١): ما من آسم يُحذفُ في الحالة التي ينبغي أن يُحذفَ فيها إلا وحذفُه أحسن من ذكره، فمن حذف المبتدأ قوله تعالى: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [الثور: الآية ١] أي هذه سورة، وقول الشاعر: [من الكامل]

لا يُبْعِدُ الله التَّلْبِيبَ والـ غارات إذ قال الخميس نَعَمْ^(٢)

أي هذه نَعَمْ. قال عبدُ القاهر: ومن المواضع التي يَطْرُدُ فيها حذف المبتدأ بالقطع والاستثناف أنهم يبدؤون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلامًا آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ، مثال ذلك قوله: [من الكامل]

وعلمت أني يوم ذا ك مُنَازِلٌ كَعْبَا ونَهْدَا
قوم إذا لبسوا الحديد د تَنَمَّرُوا خُلُقًا وقِدَا

وقال الحُطَيْيئة: [من الوافر]

هُم حَلُّوا من الشرف المعلى ومن حَسَبِ العشيرة حيث شاؤوا
بُناة مكارم وأساءة كَلِم دماؤهم من الكَلْبِ الشفاء^(٣)

وأمثلة ذلك كثيرة.

ومن حذف الخبر قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣١]، أي: لولا أنتم مضلونا وقولُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا عليُّ لهلكَ عمر، أي: لولا عليُّ حاضر أو مُقْت.

(١) يعني به عبد القاهر الجرجاني الذي يعتمد عليه النويري كثيرًا ولا سيما كتاباه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».

(٢) التَّلْبِيب: التهيؤ للحرب.

(٣) كانوا يعتقدون أن المصاب بالكلب يشفى إذا شرب من دم الملوك.

فصل

الإضمار على شريطة التفسير كقولهم: أكرمني وأكرمت عبدَ الله أي: أكرمني عبدُ الله وأكرمت عبدَ الله، ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة إذا جاءت بعد لو، فإن كان مفعولها أمراً عظيماً أو غريباً فالأولى ذكره، كقوله^(١): [من الطويل]

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُهُ عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فإن بكاء الإنسان دماً عجيبٌ، وإن لم يكن كذلك فالأولى حذفه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [التحل: الآية ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: الآية ٢٤]، و﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْمَعْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

قال: واعلم أنه قد تُترك الكناية إلى التصريح لما فيه من زيادة الفخامة كقول البحرّي: [من الخفيف]

قد طلبنا فلم نجد لك في السُّو دَدَ والمجد والمكارم مثلاً^(٢)

المعنى قد طلبنا لك مثلاً، ثم حذف، لأن هذا المدح إنما يتم بنفي المثل، فلو قال: قد طلبنا لك مثلاً في السُّوددِ والمجد فلم نجده لكان قد أوقع نفي الوجود على ضمير المثل، فلم يكن فيه من المبالغة ما إذا أوقعه على صريح المثل، فإن الكناية لا تبلغ مبلغ الصريح، ولهذا لو قلت: وبالحق أنزلناه وبه نزل، وقل هو الله أحد وهو الصمد لا تجد من الفخامة ما تجده في قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٥] و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص: الآيتان ١، ٢] وعلى ذلك قول الشاعر: [من الخفيف]

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ نَعَصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وأما مباحث إنَّ وإنما - فإنه قال: أما إنَّ فلها فوائد:

(١) هذا البيت للشاعر إسحاق بن حسان الخريمي بالولاء وهو من قصيدة يرثي بها عامر بن عمارة الخريمي. شاعر مطبوع. ولد في الجزيرة وسكن بغداد. ووصف ما حل ببغداد إبان الفتنة بين الأمين والمأمون، توفي سنة ٢١٢ هـ. (الأعلام، للزركلي).

(٢) يريد البحرّي أن يقول إنه لم يجد شيئاً لمدوحه في المجد والمكارم.

الأولى: أن تربط الجملة الثانية بالأولى، وبسببها يحصل التأليف بينهما حتى كأن الكلامين أفرغاً إفراغاً واحداً، ولو أسقطتها كان الثاني نائياً عن الأول، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]، وقد تتكرر في كلام واحد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ رَفْعًا إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٣]. ثم متى أسقطت «إن» من الجملة التي أدخلتها عليها، فإن كانت الجملة الثانية إنما تذكر لإظهار فائدة ما قبلها كما في الآيات المذكورة أحتجت إلى الفاء، وإلا فلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٥٠] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [الدخان: الآيتان ٥٠، ٥١]، فلو قلت: فالمتقون لم يكن كلاماً، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّارِئِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: الآية ١٧] فقله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: الآية ١٧] في موضع خبر إن، فدخول الفاء يوجب عطف الخبر على المبتدأ، وهو غير جائز عند أكثر النحويين.

الثانية: أنك ترى لضمير الشأن والقصة في الجملة الشرطية مع «إن» من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَتْ لَمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤].

الثالثة: أنها تهيم النكرة وتصلحها لأن يحدث عنها، كقوله^(١): [من الرجز]

إِنْ شِوَاءَ وَنَشْوَةِ وَخَبَبَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ^(٢)

(١) البيت: لسلمى بن ربيعة.

(٢) الخبيب: نوع من السير، فيه مراوحة بين اليدين والرجلين. الأمون: الناقة المأمونة العثار والإعياء.

فلولا هي لم يكن كلامًا؛ وإن كانت النكرة موصوفةً جاز حذفها ولكن دخولها
أصلحُ، كقول حسان: [من الخفيف]

إِنَّ دَهْرًا يَلْفُ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانِ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ

الرابعة: أنها قد تُغني عن الخبر، كما إذا قيل لك: الناس إلب^(١) عليكم
فهل لكم أحد؟ فقلت: إن زيدا وإن عمرا، أي لنا، قال الأعشى^(٢): [من
المنسرح]

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مُرْتَحَلًا وَإِنْ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا^(٣)

الخامسة: قال المبرد^(٤): إذا قلت عبد الله قائم، فهو إخبار عن قيامه، فإذا
قلت: إن عبد الله قائم، فهو جواب عن إنكارٍ مُنكرٍ لقيامه، سواء كان المنكر هو
السائل أو الحاضرين؛ والدليل على أن إن إنما تذكر لجواب السائل أنهم ألزموها
الجملة من المبتدأ والخبر، نحو: والله إن زيدا لمنطلق، فالحاجة إنما تدعو إلى «إن»
إذا كان للسامع ظنٌ يخالف ذلك، ولذلك تراها تزداد حسنًا إذا كان الخبر بأمرٍ يبعد،
كقول أبي نواس: [من الرجز]

عليك باليأس من الناس إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَاسِ

ومن لطيف مواقعها أن يُدعى على المخاطب ظنٌ لم يظنه ولكن صدر منه فعل
يقتضي ذلك الظن، فيقال له: حالك تقتضي أن تكون قد ظننت ذلك، كقول
الشاعر^(٥): [من السريع]

جاء شَقِيقٌ عَارِضًا رَمَحَهُ إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحٌ

(١) إلب: الجماعة.

(٢) هو الأعشى الأكبر، واسمه ميمون بن قيس بن جندل لأن لقب الأعشى أطلق على اثنين
وعشرين شاعرًا أكبرهم هذا أعشى قيس. وهو شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم. ولد في
اليمامة وقضى حياته متنقلًا في أنحاء الجزيرة العربية يمدح أصحاب الشأن. لقب الأعشى
لضعف بصره، وبأبي بصير لقوة بصيرته، وبصناجة العرب. له ديوان شعر مطبوع. (المنجد).

(٣) السفر: أراد بالسفر الذين ماتوا. والمهل: البقاء. أراد القول إن الأموات خالدون.

(٤) المبرد: (٢١٠ - ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ - ٨٩٩ م) هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية في بغداد
وأحد أئمة الأدب والأخبار ولدي في البصرة وتوفي في بغداد. أهم كتبه «الكامل». (الزركلي،
الأعلام).

(٥) خنجل بن فضلة الباهلي: شاعر جاهلي، قالوا في خبره إنه أسر النوار بنت عمرو بن كلثوم، يوم
طلح، وفر بها في الفلاة كي لا يلحق وله فيها شعر. (الأعلام، للزركلي).

أي: مجيئك هذا مُدَلًّا بنفسك مجيء من يعتقِد أنه ليس مع أحد رمح غيره. وقد تجيء إذا وُجد أمر كان المتكلم يظن أنه لا يوجد، كقولك للشيء الذي يراه المخاطب ويسمعه: إنه كان من الأمر ما ترى، إنه كان مني إليه إحسان فقابلني بالسوء كأنك تردّ على نفسك ظنك الذي ظننت، وعليه قوله عز وجل حكاية عن أمّ مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ٣٦]، وحكاية عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّى كَذَّبُون﴾ [الشعراء: الآية ١١٧].

وأما إنما - فتارة تجيء للحصر بمعنى أن هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور وهي بمنزلة ليس إلا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: الآية ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ [التأزعات: الآية ٤٥].

وتارة تجيء لبيان أن هذا الأمر ظاهر عند كل حدّ، سواء كان كذلك أم في زعم المتكلم، ومنه قول الشاعر^(١): [من الخفيف]

إنما مُضْعَبُ شِهَابٍ مِنَ الدِّهْنِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مَدْعِيَا أَنْ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ. قال: وأعلم أنه يُستعمل للتخصيص ثلاث عبارات:

الأولى: إنما جاء زيد؛

الثانية: جاءني زيد لا عمرو، والفرق أن في الأولى يُفهم إيجاب الفعل من زيد ونفيه عن غيره دفعة واحدة، ومن الثانية دفعتين، ثم إنهما كليهما يُستعملان لإثبات التخصيص لا لنفي التشريك؛ وفيه نظر.

الثالثة: ما جاءني إلا زيد، وهي بأصل الوضع تفيد نفي التشريك، ولهذا لا يصح ما زيد إلا قائم لا قاعد، لأنك بقولك: إلا قائم نفيت عنه كل صفة تنافي القيام، فيندرج فيه نفي القعود، فإذا قلت بعده: لا قاعد كان تكراراً لأن لفظة «لا» موضوعة لأن يُنفى بها ما أوجب الأول لا لأن يعاد بها نفي ما نفى أولاً،

(١) الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات (٨٥ هـ = ٧١٤ م). شاعر قريش في العصر الأموي، أقام في المدينة، وخرج مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان؛ وانتقل إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير ثم قصد الشام وبقي فيها حتى وفاته غلب على شعره الغزل وسمي بالرقيات لتشبيهه بثلاث نساء اسمهن رقية. (الأعلام، للزركلي).

ويصح إنما زيد قاعد لا قائم، لأن صيغة «إنما» بأصل وضعها تُدلّ على تخصيص الحكم بالمذكور، وأما نفي الشُرْكة فهو لازمٌ من لوازمها، فليس له من القوة ما لما يدلّ عليه بوضعه، ولهذا يصحّ: زيد هو الجائي لا عمرو، فثبت أنّ دلالة الأوليين على التخصيص أقوى، ودلالة الثالثة على نفي الشريك أقوى، لكن الثالثة قد تقام مقامَ الأوليين في إفادة التخصيص، كما إذا ادّعى واحد أنك قلت قولاً ثم قلت بخلافه، فقلت له: ما قلت الآن إلا ما قلته قبل، وعليه قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: الآية ١١٧] ليس المعنى أنني لم أزد على ما أمرتني به شيئاً، ولكن المعنى أنني لم أدع مما أمرتني به أن أقوله شيئاً.

قال: وحكم «غير» حكم «إلا» فإذا قلت: ما جاءني غير زيد أحتمل أن يكون المراد نفي أن يكون جاء معه إنسان آخر، وأن يكون المراد تخصيص الحكم بالمذكور لا نفيه عما عداه.

فصل

إذا دخل ما وإلا على الجملة المشتبهة على المنصوب كان المقصود بالذكر ما اتصل بإلا متأخراً عنها، فإذا قلت: ما ضرب عمرًا إلا زيد، فالمقصود المرفوع، وإذا قلت: ما ضرب زيد إلا عمرًا، فالمقصود المنصوب، وإذا قلت: ما ضرب إلا زيد عمرًا، فالاختصاص للضارب، وإذا قلت: ما ضرب إلا زيدًا عمرو، فالاختصاص للمضروب، فإذا قلت: لم أكس إلا زيدًا جبّةً، فالمعنى تخصيصُ زيد من بين الناس بكسوة الجبّة، وإن قلت: لم أكس إلا جبّةً زيدًا، فالمعنى تختص كسوة الجبّة من بين الناس بزيد؛ وكذلك الحكم حيث يكون بدل أحد المفعولين جازًّا ومجرورًا، كقول السيد الحميري: [من السريع]

لو خيّر المَنبَرُ فُرسائِهِ ما اختار إلا منكم فارسا

وكذلك حكم المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، كقولك: ما زيد إلا قائم، وما قام إلا زيد.

وأما إنما فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر، فإذا قلت: إنما ضرب زيدًا عمرو فالاختصاص في الضارب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] فالغرض بيانُ المرفوع وهو أن الخاشعين هم العلماء، ولو قُدّم المرفوعُ لصار المقصود بيانَ المخشّي منه، والأول أتم، ومنه قول الفرزدق:

[من الطويل]

أنا الذائد الحامي الذمَار وإنما يدافع عن أحسابكم أنا أو مثلي

فإن غرضه أن يحصر المدافع بأنه هو لا المدافع عنه، ولو قال: إنما أنا أَدافع عن أحسابكم، تَوَجَّه التخصيص إلى المدافع عنه؛ وحكم المبتدأ والخبر إذا أدخلت عليهما إنما، فإن قَدِّمَت الخبر فالاختصاص للمبتدأ، وإن لم تَقْدِّمه فللخبر، فإذا قلت: إنما هذا لك فالاختصاص في «لك»، بدليل أنك بعده تقول: لا غيرك، فإذا قلت إنما لك هذا فالاختصاص في «هذا»، بدليل أنك بعده تقول: لا ذاك، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: الآية ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَكَ﴾ [التوبة: الآية ٩٣] فالاختصاص في الآية الأولى للبلاغة والحساب، وفي الثانية في الخبر الذي هو على الذين دون المبتدأ الذي هو السبيل.

وإذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعل لا يصح إلا من المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآية ٩]؛ ثم قد يجتمع معه حرف النفي، إما متأخراً عنه كقولك، إنما يجيء زيد لا عمرو؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) [الغاشية: الآيتان ٢١، ٢٢] وقال لبيد^(١): [من الرمل]

فإذا جوزيت قرصاً فأجزه إنما يجزي الفتى ليس الجمَل^(٢)

وإما مقدماً عليه، كقولك: ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو، فهلنا لو لم تقل: إنما، وقلت: ما جاءني زيد وجاءني عمرو لكان الكلام مع من ظنَّ أنهما جاءاك جميعاً، وإذا أدخلتها فإن الكلام مع من غلط في الجائي أنه زيد لا عمرو.

قال: واعلم أن أقوى ما تكون «إنما» إذا كان لا يراد بالكلام الذي بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، فإننا نعلم أنه ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: الآية ١٩] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار ويقال لهم: إنهم من فرط العناد في حكم من ليس بذئ عقل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: الآية ٤٥] و﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

(١) هو لبيد بن ربيعة، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وحسن إسلامه، فترك الشعر وسكن الكوفة وعمر طويلاً وهو أحد أصحاب المعلقة. عرف بكرمه وسمو أخلاقه. وله ديوان شعر مطبوع. توفي حوالي سنة (٤١ هـ = ٦٦١ م). (الأعلام، للزركلي).

(٢) أراد القول إن عرفان الجميل والمكافأة من عمل الإنسان وليس البهيم.

رَهْم بِالْغَيْبِ [فاطر: الآية ١٨] والتقدير إنَّ من لم تكن له هذه الخشية، فهو كمن لم تكن له أذنٌ تسمع وقلبٌ يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار، وهذا الغرض لا يحصل دون «إنما» لأن من شأنها تضمينُ الكلام معنى النفي بعد الإثبات، فإذا أسقطت لم يبق إلا إثبات الحكم للمذكورين، فلا يدلُّ على نفيه عن غيرهم إلا أن يُذكر في معرض مدح الإنسان بالتيقُّظ والكرم وأمثالهما، كما يقال: كذلك يفعل العاقل، هكذا يفعل الكريم.

تنبيه - قال: كاد تقرب الفعل من الوقوع، فنفيها ينفي القرب، فإن لم يكن في الكلام دليل على الوقوع فيفيد نفي الوقوع ونفي القرب منه، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُذِّبْنَاهَا﴾ [الثور: الآية ٤٠] أي: لم يَرَهَا ولم يقارب رؤيتها، وكقول ذي الرمة: [من الطويل]

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكُذِّبْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مِثَّةٍ يَبْرُحُ^(١)

المعنى أن براح حبها لم يقارب الكونَ فضلاً عن أن يكون.

وأما النظم^(٢) - فهو عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكلام، وذلك أن تَضَعْ كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو بأن تنظر في كل باب إلى قوانينه والفروق التي بين معاني اختلاف صيغته، وتضع الحروف مواضعها وتراعى شرائط التقديم والتأخير، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع حروف العطف على اختلاف معانيها، وتعتبر الإصابة في طريق التشبيه والتمثيل.

وقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظم، وأن لا فضل مع عدمه ولو بلغ الكلام في غرابة معناه إلى ما بلغ، وأن سبب فساده تركُ العمل بقوانين النحو وأستعمال الشيء في غير موضعه.

ثم قال: الجُمْلُ الكثيرة إذا نُظِمَتْ نظماً واحداً فهي على قسمين:

الأول: أن لا يتعلَّق البعض البعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر وروية في أستخراجه، بل هو كمن عمَدَ إلى اللآلئ ينظمها في سلك، ومثاله قول الجاحظ في مصنفاته: جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبُهَةَ، وعصمك من الخيرة، وجعل بينك وبين المعروف نَسَبًا،

(١) الرئيس: الأثر والبقية، أو الثابت الذي لا يبرح مكانه.

(٢) سبق كل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني إلى الكلام على نظم الكلام. وما أتى به النوري دون ما أجادا فيه.

وبين الصدق سببًا، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ وَأَذَاكَ حَلَاوَةَ
التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الطَّمَعِ،
وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ. وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ لِلنُّعْمَانِ
وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُ عَلَى ذِي فَائِشٍ يَزِيدُ^(١) بَنِ أَبِي جَفْنَةَ، وَكَقَوْلِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ لِلْحَارِثِ
الْجَحْنِيِّ يَفْضُلُهُ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ، وَكَقَوْلِ ضِرَارِ بْنِ صُمَيْرَةَ لِمَعَاوِيَةَ فِي وَصْفِ
عَلِيٍّ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ أَقْوَالِهِمْ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ فِي
الْمَدْحِ، وَهُوَ فِي السَّفَرِ الثَّالِثِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِعَادَتِهِ. وَهَذَا النِّظْمُ لَا يَسْتَحِقُّ الْفَضْلَ
إِلَّا بِسَلَامَةِ مَعْنَاهُ وَسَلَامَةِ أَلْفَاظِهِ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ مَعْنَى دَقِيقٌ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِثَاقِبِ الْفِكْرِ.

قال: وربما ظُنَّ بالكلام أنه من هذا الجنس ولا يكون منه، كقول الشاعر: [من
البيسط]

سالت عليه شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِهِ كَالدَّنَانِيرِ
فإنَّ الْحَسْنَ فِيهِ لَيْسَ مُجَرَّدَ الْاسْتِعَارَةِ، بَلْ لَمَّا فِي الْكَلَامِ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ،
وَلِهَذَا لَوْ أُرْلَتْ ذَلِكَ وَقُلْتُ: سالت شِعَابُ الْحَيِّ بِوُجُوهِهِ كَالدَّنَانِيرِ عَلَيْهِ حِينَ دَعَا
أَنْصَارَهُ، فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِالْحَسَنِ وَالْحَلَاوَةِ.

الثاني: أن تكون الجملة المذكورة يتعلّق بعضها ببعض، وهناك تَظْهَرُ قُوَّةُ الطَّبِيعِ،
وَجُودَةُ الْقَرِيحَةِ، وَأَسْتِقَامَةُ الدَّهْنِ.

ثم ليس لهذا الباب قانون يُحْفَظُ، فَإِنَّهُ يَجِيءُ عَلَى وَجْهِ شَتَّى:
منها الإيجاز، وهو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف، وهو على
ضريين: إيجاز قَصْرٍ، وإيجاز حَذْفٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ وَذَكَرُ أَمْثَلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ
الْفَصَاحَةِ.

ومنها التأكيد - وهو تَقْوِيَةُ الْمَعْنَى وَتَقْرِيرُهُ، إِمَّا بِإِظْهَارِ الْبَرَهَانِ، كَقَوْلِ
قَابُوسَ^(٢): [من البسيط]

يَا ذَا الَّذِي بِضُرُوفِ الدَّهْرِ عَيَّرْنَا هَلْ عَانَدَ الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ لَهْ خَطَرٍ

(١) فائش: واد في أرض اليمن، كان يسيطر عليها سلامة بن يزيد بن عريب بن تريم بن مرثد، ولذا
لقب بذي فائش. وكان النابغة قد اتصل به قبل النعمان أبي قابوس ملك الحيرة. (ياقوت،
معجم البلدان، ج ٣).

(٢) قابوس: هو قابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م). الملقب بشمس المعالي، أمير
جرجان وطبرستان، نبغ في الأدب والإنشاء والشعر. له كتاب اسمه كمال البلاغة. (الزركلي،
الأعلام).

أما ترى البحر تعلو فوقه جَيْفٌ وتَسْتَقِرُّ بأقصى قعره الدَّر
وفي السماء نجوم ما لها عدد وليس يُخَسَفُ إلا الشمس والقمر

وإما بالعزيمة^(١)، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: الآية ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِدُ مِمَّوَقِعِ السُّجُودِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ [الواقعة: الآيات ٧٥ - ٧٧] وكقول الأَشْتَر النَّخَعِي^(٢): [من الكامل]

بَقِيْتُ وَفَرِي وَأَنحَرْتُ عَنِ الْعَلَا ولقيْتُ أَضِيافِي بِوَجْهِ عَبُوس
إِن لَمْ أَشُنْ عَلَى أَبْنِ حَرْبِ غَارَةٍ لَمْ تَخُلْ يَوْمًا مِنْ نَهَابِ نَفُوس
يريد معاويةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وكقول أَبِي نُوَّاسٍ: [من البسيط]

لَا فَرَجَ اللَّهُ عَنِّي إِنْ مَدَدَتْ يَدِي إِلَيْهِ أَسْأَلُهُ مِنْ حَبِّكَ الْفَرَجَا
وكقول أَبِي تَمَّامٍ: [من الطويل]

حُرِمْتُ مُنَايَ مِنْكَ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي تَقُولُهُ الْوَاشُونَ حَقًّا كَمَا قَالُوا
أَوْ بِالتَّكْرَارِ، كقولهم: اللَّهُ اللَّهُ، وَالْأَسَدُ الْأَسَدُ، وكقول الْحَادِرَةِ^(٣): [من الطويل]

أَظَاعَنَةُ وَمَا تَوَدَّعْنَا هِنْدُ وَهَنْدُ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبَعْدُ
وهذا في التَّنْزِيلِ كَثِيرٌ، وَالْعَلَمُ فِيهِ سُورَةُ الرَّحْمَنِ^(٤).

وأما التَّجْنِيسُ - فهو يَتَشَعَّبُ مِنْهُ شُعْبٌ كَثِيرَةٌ:
فَمِنْهُ الْمُسْتَوْفِي النَّامُ - وهو أَنْ يَجِيءَ الْمُتَكَلِّمُ بِكَلِمَتَيْنِ مُتَّفَقَتَيْنِ لَفْظًا،
مُخْتَلِفَتَيْنِ مَعْنَى، لَا تَفَاوُتَ فِي تَرْكِيبِهِمَا، وَلَا اخْتِلَافَ فِي حَرَكَاتِهِمَا، كَقَوْلِ

(١) العزيمة: القسم.

(٢) الأَشْتَر النَّخَعِي: شاعر وفارس إسلامي، كان من أَشَدِّ أَنْصَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِدَاوَةً لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ. وفي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ يَقْسِمُ أَنَّهُ سَيَحَارِبُهُ وَيَزْهُقُ النَّفُوسَ وَإِلَّا كَانَ مُنْحَرَفًا عَنْ الْكُرْمِ وَالْعَلَا.

(٣) الْحَادِرَةُ: لَقِبَ الشَّاعِرِ قُطَيْبَةَ بْنِ أَوْسٍ التَّغْلِبِيِّ شَاعِرَ جَاهِلِيٍّ مَقْلَ جَمْعِ دِيوَانَ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ الْيَزِيدِيِّ، وَطُبِعَ مَوْخَرًا. (الأعلام، للزركلي).

(٤) «العلم في سورة الرَّحْمَنِ» يعني أَنَّ أَشْهُرَ شَوَاهِدَ عَلَى التَّكْرَارِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ. حَيْثُ تَتَكَرَّرُ الْآيَةُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَلَّمُوا فِي حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ [الرَّحْمَنِ: الْآيَةُ ١٣] بَعْدَ كُلِّ آيَةٍ.

الغَزِّي^(١): [من البسيط]

لم يَبَقْ غَيْرُكَ إنسان يِلادُ به فلا بَرِحَتْ لعين الدهر إنسانا
وقول عبد الله بن طاهر^(٢): [من الطويل]
وإنِّي للثَّغَرِ المَخوفِ لكاليء وللثَّغَرِ يَجري ظَلْمُهُ لَرشوف
وكقول البُسْتِي^(٣): [من الوافر]
سما وَحَمَى بني سامٍ وحامٍ فليس كمثله سامٍ وحامي
وذكر التبريزي^(٤) أن التجنيس المستوفي كقول أبي تمام: [من الكامل]
ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله
وقال: وإنما عُذ من هذا الباب لاختلاف المعنيين، لأن أحدهما فعل، والآخر
أسم.

ومنه المختلف - ويسمى التجنيس الناقص - وهو مثل الأول في اتفاق حروف
الكلمتين إلا أنه يخالفه: إما في هيئة الحركة، كقوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «اللَّهُمَّ كما حَسَنْتَ خَلْقِي
فَحَسِّنْ خُلُقِي»؛ وكقول مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الدِّينُ يَهْدِمُ الدِّينَ؛ وكقولهم: جُبَّةُ البُرْدِ
جُبَّةُ البُرْدِ؛ وكقولهم: الصديق الصدوق أول العَقْدِ وواسطة العَقْدِ؛ وكقول المعري:
[من الطويل]

لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاةُ جمال فاذكري أبْنَ سبيل

(١) الغَزِّي: (٤٤١ - ٥٢٤ هـ = ١٠٤٩ - ١١٣٠ م)، هو إبراهيم بن عثمان الكلبي، من أهل غزة. ولد بها وقام برحلة طويلة إلى العراق وخراسان ومدح آل بويه وغيرهم وتوفي بخراسان. له ديوان شعر مخطوط. (الأعلام، للزركلي).

(٢) عبد الله بن طاهر: (١٨٢ - ٢٣٠ هـ = ٧٩٨ - ٨٤٤ م)، ولي إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر ثم ولاة المأمون خراسان وطبرستان والري وبقي حتى وفاته في نيسابور. (الأعلام، للزركلي).

(٣) البستي: (٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م)، علي بن محمد، أبو الفتح، ولد في بست قرب سجستان وإليها انتسب. كتب للأمير سبكتكين. وهو شاعر عصره وكاتبه. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

(٤) التبريزي: (٤٢١ - ٥٠٢ هـ = ١٠٣٠ - ١١٠٩ م) هو يحيى بن علي بن محمد الشيباني، أصله من تبريز وإليها ينسب، نشأ في بغداد وقام على خزانة كتب المدرسة النظامية فيها حتى وفاته. له شرح الحماسة لأبي تمام، والمفضليات للضبي، والملخص في إعراب القرآن، وشرح ديوان المتنبي الخ. (الزركلي، الأعلام).

أو بالحركة والسكون، كقولهم: البدعة شَرَكُ الشُّرك. أو بالتخفيف والتشديد كقولهم: الجاهل إما مفرط وإما مفرط.

ومنه المذيل - ويقال له: التجنيس الزائد والناقص أيضًا - وهو أن تجيء بكلمتين متجانستَي اللفظ متفقتَي الحركات، غيرَ أنهما يختلفان بحرف، إما في آخرهما كقولك: فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور، كافٍ كافِلٌ لمصالح الجمهور؛ وقولهم: أنا من زمانِي في زَمَانِهِ، ومن إخوانِي في خِيَانِهِ؛ وقولهم: فلان سالٍ عن إخوانِهِ، سالم من زمانِهِ؛ ومن النظم قول أبي تمام: [من الطويل]

يَمْدُون من أيدٍ عواصٍ عواصِمٍ تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضِبِ
وقولُ البحريّ: [من الطويل]

لئن صَدَفْتُ عَنَّا قَرُبْتُ أنفس صواد إلى تلك النفوس الصوادف
وإما من أولهما، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَتْ أَلْسَانُ بِأَلْسَانٍ ۖ إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ أَلْسَانُ ۖ﴾ [القيامة: الآيتان ٢٩، ٣٠] ومن النظم ما أنشده عبد القاهر: [من الطويل]

وكم سَبَقَتْ منه إليّ عوارفُ ثنائِي من تلك العوارفِ وارِفُ
وكم غُرِرَ من بِرْهِ ولطائفِ لَشكري على تلك اللطائفِ طائفِ
ومنه المركب وهو على ضربين:

الأول: ما هو متشابه لفظًا وخطًا، كقولهم: هِمَّتْكِ الهِمَّةُ الفاترة، وفي صميم قلبك أَلْفاترة، ومن النظم قول البُستِيّ: [من المتقارب]

إذا مَلِكٌ لم يكن ذاهِبَهُ فدعه فدولته ذاهِبِهِ
وقولُ الآخر: [من مجزوء الرمل]

عَضْنَا الدهر بنابه لِيَا ما حَلَّ بنابه
وقولُ طاهر البَصريّ: [من الخفيف]

ناظِرَاهُ فيما جنى ناظِرَاهُ أودَعاني رهَنًا بما أودَعاني

الثاني: ما هو متشابه لفظًا لا خطًا ويسمى التجنيسَ المفروق، كقوله: كنت أطمع في تجريبك، ومطايا الجهل تجري بك.

ومن النظم قول الشاعر: [من الكامل]

لا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرواة قصيدة ما لم تكن بالغتَ في تهذيبها
فإذا عرضتَ القَوْلَ غيرَ مهذب عدُّوه منك وساوسًا تهذي بها
وأمثالُ ذلك كثيرة.

ومن أنواع المركَّب المرفُوق، وهو أن تجمع بين كلمتين إحداهما أقصر من الأخرى، فتضمُّ إلى القصيرة حرفًا من حروف المعاني أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدلَ ركننا التجنيس، كقولهم:

يا مغرور أمسك، وقس يومك بأمسك.

ويقربُ منه قول الهمذاني^(١):

إن لم يكن لنا حظُّ في دَرْكٍ دَرْكٍ، فخلُصنا من شَرْكٍ شَرْكٍ.

وقول الحريري:

إن أخليتَ منّا مَبَارِكَ مَبَارِكٍ، فخلُصنا من مَعَارِكٍ مَعَارِكٍ.

ومن النظم قول البُستي: [من المتقارب]

فهْمْتُ كتابك يا سيّدي فهْمْتُ ولا عَجَبُ أن أهيمَا

ومنه قول الآخر: [من الكامل]

ذو راحة وكَفَّتْ نَدَى وكَفَّتْ رَدَى وقضت بِهُلْكَ عُداته وعِداته

كالغيث في إروائه ورُوائه واليـث في وثباته وثباته

ومنه المزدوج - ويقال له التجنيس المرّد والمكرر أيضًا - وهو أن يأتي في أواخر الأسجاع وقوافي الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما نَمِمة الأخرى وبعضها، كقولهم: الشراب بغير النَّعم غمّ، وبغير الدَّسم سَمّ.

(١) هو بديع الزمان الهمذاني: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م)، أبو الفضل أحمد بن الحسين. ولد في همذان بإيران سنة (٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م). وتلمذ لأحمد بن فارس العالم اللغوي الكبير. ويعتبر مبتكر في المقامات في الأدب العربي، وخلف منها نحو إحدى وخمسين مقامة، طبعت مرارًا، أحدثها طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت، سنة ١٩٩٣، تقديم د. علي بو ملحم. (الزركلي، الأعلام).

وقول البستي: [من الوافر]

أبا العباس لا تَحَسَبْ لَشِينِي بَأْتِي مِنْ حُلَى الْأَشْعَارِ عَارِي^(١)
فلي طبع كَسَلَسَالِ مَعِين زُلَالٍ مِنْ دُرَى الْأَحْجَارِ جَارِي
إذا ما أَكْبَتِ الْأَدْوَارَ زَنَدًا فلي زَنَدٌ عَلَى الْأَدْوَارِ وَارِي

ومن أجناس التجنيس المصحف - ويقال له تجنيس الخط أيضًا وهو أن تأتي بكلمتين متشابهتين خطأ لا لفظًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [الكهف: الآية ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ [الشعراء: الآيتان ٧٩، ٨٠]، وقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهن أشد حبا وأقل حبا»^(٢) وقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: قَصْرٌ مِنْ ثِيَابِكَ فَإِنَّهُ أَبْقَى وَأَنْقَى وَأَتَقَى.

وكقول أبي فراس: [من مجزوء الكامل]

من بحر شعرك أَغْتَرِفُ وبفضل علمك أَعْتَرِفُ
ومنه المضارع - ويسمى المَطْمَعُ - وهو أن يُجاء بالكلمة ويبدأ بأختها على مثل أكثر حروفها، فتطمع في أنها مثُلُها، فتخالفها بحرف؛ ويسمى المَطْرَفُ وهو أن تجمع بين كلمتين متجانستين لا تَفَاوَتْ بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقاربة، سواء وقع آخرًا أو حشواً، كقوله ﷺ: «الخیل معقود بنواصيها الخير» ومنه قول الحطيئة: [من الطويل]

مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَطَاعِيمُ فِي الدَّجَى بَنَى لَهُمْ أَبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدَّ
وقول البحتري: [من المتقارب]

ظَلِلْتُ أَرْجَمُ فِيكَ الظَّنُونُ أَحَاجُمُهُ أَنْتَ أَمْ حَاجِبُهُ؟

وإن كان التفاوت بغير المتقاربة سَمِيَ التجنيسَ اللاحقَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ [النساء: الآية ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ [العَادِيَّات: الآيتان ٧، ٨] وقول البحتري: [من الخفيف]

هل لما فات من تَلَاقٍ تَلَاوِي أم لشاك من الصبابة شَافِي

ومنه المشوَّش - وهو كل تجنيس يتجاذبه طرفان من الصنعة فلا يمكن إطلاق أسم أحدهما عليه، كقولهم: فلان مليح البلاغة، صحيح البراعة.

ومنه تجنيس الاشتقاق - ويسمى الاقتضاب أيضًا، ومنهم من عدّه أصلًا برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في التجنيس - وهو أن يجيء بالفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة، كقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أَلْفَيْمٌ﴾ [الروم: الآية ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوْهُ اللَّهُ أَرَبًا وَيُرِي الْقَصْدَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: الآية ٨٩]، وقول النبي ﷺ: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها» وقوله: «الظلم ظُلُمات يوم القيامة» ومن النظم قول أبي تمام: [من الوافر]

عَمَمَتِ الخلق بالنعماء حتى غدا الثقلان منها مُثْقَلَيْنِ
وقول المطرزي^(١): [من الطويل]

وإني لأستحيي من المجد أن أرى حَلِيفَ غَوَانٍ أو أليفَ أغاني
وقول صاحب بن عباد: [من المتقارب]

وقائلةٍ لِمَ عَرَّتْكَ الهمومُ وأمركَ ممثِّل في الأمم
فقلت ذريتني على غُصْتي فإن الهموم بقدر الهم
وقول آخر: [من مجزوء الرمل]

إن ترى الدنيا أغارت ونجوم السعد غارت
فصُروف الدهر شتّى كلما جارت أجارت

ومما يشبه المشتق - ويسميه بعضهم المشابه، وبعضهم المغاير - قوله تعالى: ﴿وَحَىٰ آلَ عِيسَىٰ دَاوُدَ﴾ [الرحمن: الآية ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ كَيْفَ يُؤَدِّي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرْذَلْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: الآية ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: الآية ٤٤]، ومن النظم قول البحرني: [من الخفيف]

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذال فيها هباءً

(١) المطرزي: ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي، الفقيه الحنفي، النحوي، الأديب، الخوارزمي. كان معتزلي الاعتقاد، زار بغداد وتباحث مع الفقهاء. توفي سنة ٦١٠ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦).

ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف - وهو ما كان كالمصحّف إلا في اتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقارب فيه الحروب بأعتبار المخارج أو لا تتقارب فإن تقاربت سُمِّي مضارعاً، وإن لم تتقارب سُمِّي لاحقاً.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: الآية ٧٥]، وقولُ قُس بن ساعدة الإيادي^(١): «من مات فات».

وقولُ الشاعر: [من الطويل]

فيا لك من حزم وعزم طواهما جديّد البلى تحت الصفا والصفائح

وهذا البيت يشتمل على المضارع والتمثّم.

ومثال الثاني قول علي رضي الله عنه: الدنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ، وقول عبد الله بن صالح وقد وصف اليمن: ليس فيه إلا ناسج بُرد، أو سائس قرد.

ومنها التجنيس المخالف - وهو أن تشتمل كلّ واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها، كقول أبي تمام: [من البسيط]

بيض الصفائح لا سودّ الصفائح في متونهنّ جلاء الشك والريب^(٢)

وقول البحتري: [من الطويل]

شواجر أرماع تُقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قَطوعها

وقول المتنبي: [من الوافر]

ممّنة منعمة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعا

فإن اشتملت كل كلمة على حروف الأخرى، وكان بعض هذه قلب حروف هذه خُصّ باسم جناس العكس، كقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ

(١) قس بن ساعدة الأيادي: (٢٣ هـ = ٦٠٠ م)، أحد حكماء الجاهلية، كان أسقف نجران، يقال إنه أول عربي خطب متوكّناً على عصا أو سيف، وأول من قال في كلامه: أما بعد. وقد وفد على قيصر الروم زائراً فأكرمه. طالت حياته وأدركه النبي قبل النبوة ورآه في عكاظ. (الزركلي، الأعلام).

(٢) البيت من قصيدة يمدح فيها أبو تمام الخليفة العباسي المعتصم بمناسبة فتحه عمورية على تخوم الروم. ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وَأَرْقٍ» وقول عبد الله بن رَوَاحَةَ^(١) يمدح النبي ﷺ: [من البسيط]

تَحْمِلُهُ الناقَةُ الأَذْمَاءَ مَعْتَجِرًا بالبُرْدِ كالبدر جَلَى نُورُهُ الظُّلْمَا

ومنها تجنيس المعنى - وهو أن تكون إحدَى الكلمتين دالّةً على الجنس بمعناها دون لفظها، وسبب استعمال هذا النوع أن يقصد الشاعر المجانسةً لفظًا ولا يوافقه الوزن على الإتيان باللفظ المجانس فيعدل إلى مُرادِفِه، كقول الشاعر يمدح المهلب ويذكر فعله بَقَطْرِي بن الفُجَاءَةِ^(٢)، وكان قَطْرِي يُكْنَى أبا نَعَامَةَ: [من الطويل]

حدا بأبي أم الرُّثَالِ فَأَجْفَلْتُ نَعَامَتُهُ من عارض متهلّب

أراد أن يقول: حدا بأبي نَعَامَةَ فَأَجْفَلْتُ نعامته أي روحه، فلم يستقم له فقال: بأبي أم الرُّثَالِ، وأم الرُّثَالِ هي النعامة، وكقول الشّماخ^(٣): [من الوافر]

وما أَرَوَى وإن كَرُمْتُ عَلَيْنَا بأَدْنَى من مَوْقِفَةِ حَرُونِ^(٤)

أَرَوَى: أَسَم امرأة. والمَوْقِفَةُ الحرون من الوحش: أَرَوَى، وبها سميت المرأة فلم يمكنه أن يأتِي باسمها فأتى بصفتها، وقد صرح بذلك المَعْرِي في قوله: [من البسيط]

أَرَوَى النِّياقَ كَأَرَوَى النِّيقِ يَعِصِمُهَا ضرب يظلّ له السُّرْحان مبهوتا^(٥)

وبعضهم لا يُدخل هذا في باب التجنيس. قال: وإنما يحسن التجنيس إذا قلّ، وأتى في الكلام عفوًا من غير كَذٍّ ولا أَسْتَكْرَاه، ولا بُعد ولا مِيلَ إلى جانب الرُّكَّة ولا

(١) عبد الله بن رَوَاحَةَ: (٨ هـ = ٦٢٩ م)، عبد الله بن رَوَاحَةَ بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. صحابي يعد من الأمراء والشعراء الراجزين. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية. استشهد في مؤتة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) قطري بن الفجاءة: (٧٨ هـ = ٦٩٧ م)، أبو نعامَة، جصونة بن مازن بن يزيد الكنانِي التميمي. من رؤساء الأزارقة وأبطالهم. من أهل قطر. كان خطيبًا فارسًا شجاعًا شاعرًا. استفحل أمره زمن مصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف، وسيرت إليه الدولة الجيوش مدة ١٣ سنة وهو ردها.

(٣) الشماخ: (٢٢ هـ = ٦٤٣ م) هو الشماخ بن ضرار بن حرملة المازني الذيباني الغطفاني: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان أرحز الناس على البديهة، له ديوان شعر مطبوع. قيل إن اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. (الزركلي، الأعلام).

(٤) موقفة: من الوقف، وهو الخلخال أو السوار من العاج وغيره، وأراد به هنا الأروى التي في رجليها أو يديها بياض تشبّهًا لها بلباسة الخلخال أو السوار.

(٥) النيق: جمعه نياق وأنياق ونيوق. أرفع موضع في الجبل.

يكون كقول الأعشى: [من البسيط]

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مثلُ شُلُولٍ شُلْشُلٍ شُولٍ^(١)

ولا كقول مسلم بن الوليد^(٢): [من الكامل]

سُلْتُ وسُلْتُ ثم سُلَّ سليلُها فأتى سليل سليلها مسلولا

ولا كقول المتنبي: [من الطويل]

فَقَلَقْتُ بالهم الذي قَلَقَ الحشا قَلَقَ عيس كلهن قَلَقَ

وأما الطَّباق - قال: المطابقة أن تجمع بين ضدّين مختلفين، كالإيراد والإصدار والليل والنهار، والسواد والبياض؛ قال الأخفش وقد سئل عنه: أجد قوماً يختلفون فيه، فطائفة - وهم الأكثر - يزعمون أنه الشيء وضده، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين في لفظ واحد، كقول زياد الأعجم: [من الطويل]

وُنُبِّئْتُهُمْ يَسْتَنْصِرُونَ بكاهلٍ وللؤمٍ فيهم كاهلٌ وسَنام

الطباق

ثم قال: وهذا هو التجنيس بعينه، ومن ادعى أنه طباق فقد خالف الأصمعي والخليل، ف قيل له: أو كانا يعرفان ذلك؟ فقال: سبحان الله! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طيبه؟. ويسمونه المطابقة والطباق والتضاد والتكافؤ وهو أن تجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل، فلا تجيء بأسم مع فعل ولا بفعل مع أسم، مثاله قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: الآية ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨]، وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الزهد: الآية ١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْرِ حِسَابِ﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وقوله ﷺ: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع» ومن النظم قول

(١) المشل: المطر والحركات، الشلول: الخفيف الحركات، الشلشل: الخفيف القليل، الشول: الخفيف أيضًا.

(٢) مسلم بن الوليد: (٢٠٨ م = ٨٢٣ م) هو مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، المعروف بصريع الغواني. شاعر غزل، أكثر من البديع في شعره فكان رائدًا في ذلك. كوفي المنشأ، نزل بغداد ومدح الرشيد وولاه المأمون مظالم جرجان حيث توفي ودفن. (الزركلي، الأعلام).

جرير: [من المنسرح]

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شرّ عنكم بشمالها

وقولُ البحرّي: [من البسيط]

وأمة كان قبح الجور يُسخطها حيناً فأصبح حسن العدل يرضيها

وقوله أيضاً: [من البسيط]

تبسم وقطوب في ندى ووغي كالبرق والرعد وسط العارض البرد

وقول دِعبل^(١): [من الكامل]

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

وقول ابن المعتز: [من الطويل]

مها الوحش إلا أنّ هاتا أوانس قنا الخط إلا أنّ تلك ذوابل

فإنّ هاتا للحاضر، وتلك للغائب، فكانتا متقابلتين؛ وقد تجيء المطابقة بالنفي والإثبات كقول البحرّي: [من الطويل]

تقيض لي من حيث لا أعلم النوى ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم

وقال الزكيّ بن أبي الإصبع المصري^(٢) في الطباق: وهو على ضربين: ضرب يأتي بالفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بالفاظ المجاز، فما كان بلفظ الحقيقة سميّ طباقاً وما كان بلفظ المجاز سميّ تكافؤاً، فمثال التكافؤ قول أبي الأشعث العبسيّ من إنشادات قدامة: [من الكامل]

حلو الشمائل وهو مرّ باسل يحمي الدمار صبيحة الإرهاق

(١) دِعبل: (١٤٨ - ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ - ٨٦٠ م)، دِعبل بن علي بن رزين الخزاعي، شاعر هجاء كوفي الأصل، أقام ببغداد. هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. كان طويلاً ضخماً أطروشاً. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزكي بن أبي الإصبع المصري: (٥٩٥ - ٦٥٤ هـ = ١١٩٨ - ١٢٥٦ م)، هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني البغدادي ثم المصري. شاعر، وعالم بالأدب. مولده ووفاته في مصر. له تصانيف حسنة أهمها بديع القرآن، وتحرير التحبير. (الزركلي، الأعلام).

لأن قوله: حلو ومزّ خارج مخرج الاستعارة، إذ ليس الإنسان ولا شمائله مما يذاق بحاسة الذوق.

ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رَشِيق: [من الطويل]

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا نجومَ العوالي في سماء عَجَاج

وقد جَمَعَ دِعْبِل في بيته المتقدّم بين الطباق والتكافؤ، وهو: [من الكامل]

لا تَعْجَبِي يا سَلَم من رجل ضَحَكَ المشيب برأسه فبكى

لأن ضحك المشيب مجاز، وبكاء الشاعر حقيقة.

قال: هكذا قال ابن أبي الإصْبَع، وفيه نظر، لأنه إذا كان الطباق عنده هو التضاد من حقيقتين، والتكافؤ التضاد من مجازين، فليس في البيت ما شرطه.

قال: ومما جَمَعَ بين طبائقي السلب والإيجاب قولُ الفرزدق من إنشادات ابن المعتز: [من الكامل]

لعن الإله بني كُليب إنهم لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لَجَار

يستيقظون إلى نهيق حميرهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وذكر في آخر الباب طباق الترديد، وهو أن يرّد آخر الكلام المطابق إلى أوله فإن لم يكن الكلام مطابقاً فهو ردّ الإعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى: [من البسيط]

لا يَرِقع الناس ما أوْهوا وإن جَهِدوا طُول الحياة ولا يُوهون ما رَقَعوا

وأما المقابلة - وهي أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة، فتأتي في الموافق بما وافق، وفي المخالف بما خالف أو تشترط شروطاً وتعدّ أحوالاً في أحد المعنيين فيجب أن تأتي في الثاني بمثل ما شرطت وعددت في الأول، كقوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝۱۵ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝۱۶ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝۱۷ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝۱۸ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝۱۹ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝۲۰﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾

[الأنعام: الآية ١٢٥]، ومثاله من النظم قول الشاعر: [من الطويل]

فيا عَجَبًا كيف آتَفَقْنَا فَناصَح وفي مَطْوِيٍّ على الغِلِّ غادرا!

وقول آخر: [من الطويل]

تَقَاصِرْنَ وَأَخْلَوَيْنِ لي ثم إنه أنت بعد أيام طَوَّالٍ أَمَرْتِ

وقول زهير بن أبي سُلمى: [من الخفيف]

حُلَمَاءُ في النادي إذا ما جئْتَهُم جُهَلَاءُ يَوْمَ عَجَاجَةٍ ولقاء

ومن فساد ذلك أن يقابل الشيء بما لا يوافقه ولا يخالفه، كقول أبي عدي

القرشي: [الخفيف]

يا أبن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيثٌ لجود

فليس قوله: غيث لجود موافقاً لقوله: زين الدنيا ولا مخالفاً له.

وكقول الكُميت^(١): [من البسيط]

وقد رأينا بها حورًا منعمةً بيضًا تكامل فيها الدَّلَّ والشَّنْب^(٢)

فالشَّنْب لا يشاكل الدَّلَّ.

وقول آخر: [من الخفيف]

رُحَمَاءُ بذِي الصِّلاحِ وضَرَّ ابْنون قِدْمًا لهامة الصُّنديد

قال: وقد ذكر بعض أئمة هذا الفن تفضيلاً في المقابلة فقال:

فمن مقابلة اثنين بأثنين قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: الآية

٨٢]؛ وقول النابغة: [من الطويل]

فَتَى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَه على أن فيه ما يسوء الأعاديا؛

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر: [من البسيط]

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعَا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجل

(١) الكُميت: هناك ثلاث شعراء يحملون هذا الاسم هم الكُميت الأكبر ابن ثعلبة، شاعر مخضرم. والكُميت الأوسط ابن معروف بن الكُميت بن ثعلبة (٦٠ هـ - ٦٨٠ م) مخضرم أيضاً. والكُميت الأصغر ابن زيد الأسدي (٦٠ - ١٢٠ هـ) شاعر الهاشميين. (الزركلي، الأعلام).
(٢) الشَّنْب: بياض الأسنان.

وقولُ أبي نُواس: [من الوافر]

أنا أَسْتَدْعَيْتُ عَفْوَكَ مِنْ قَرِيبٍ كما أَسْتَعْفَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدٍ؛

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يُحِلْ وَأَسْتَفَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠] المقابلُ بقوله تعالى: «أَسْتَعْنَى» قوله تعالى: «وَاتَّقَى» لأن معناه: زهد فيما عند الله وأستغنى بشهوات الدنيا عن نعم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى، ومنه قول النابغة: [من الطويل]

إذا وَطْنَا سَهْلًا أَثَارًا عَجَاجَةً وإن وَطْنَا حَزْنًا تَشْطَى الْجَنَادُ^(١)

ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبي: [من البسيط]

أزورهم وسواد أليل يَشْفَعُ لي وأنثني وبياض الصبح يُغْرِ بي^(٢)

قابل أزور بأنثني، وسواد ببياض، والليل بالصبح، ويشفع بيغري، ولي بقوله:

بي.

السجع

وأما السجع - فهو أن كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفًا عليها، لأن الغرض أن يجانس بين قرائن، ويزاوج بينها، ولا يتم ذلك إلا بالوقف، ألا ترى إلى قولهم: «ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت» فلو ذهبت تصل لم يكن بُد من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه حكم الإعراب، فتختلف أواخر القرائن، ويفوت الساجع غرضه، وإذا رأيناهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج فيقولون: أتيتك بالغدا والعشايا، وهنأني الطعام ومَرَّاني، وأخذَه ما قدَّم وما حدَّث، «وأنصرفن مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»، يريد العَدَّوات، وأمراني وحدَّث، وموزورات، مع أن فيه ارتكابًا لمخالفة اللُّغة فما الظن بأواخر الكلم المشبهة بالقوافي.

قال: والسجع أربعة أنواع: وهي الترصيع والمتوازي والمطرّف والمتوازن.

(١) وطنا: داسا. العجاجة: الغبار. الحزن: الجبل. الجنادل: الصخور. تشطى: تفتت.

(٢) يريد المتنبي أن يقول: إن زيارته في الليل تخفي أمره فلا يراه أحد. ولكن أوبته عند الصباح تفضح أمره وتدفع الناس إلى التساؤل عن سبب زيارته.

أما الترصيع - فهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٥) [الغاشية: الآيتان ٢٥، ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۖ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جِيمٍ﴾ (١٣) [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤]، وقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَقْبِلْ تَوْبَتِي، وَأَغْسِلْ حَوْبَتِي» وقولهم: فلان يفتخر بالهمم العالية، لا بالرسم البالية^(١)؛ وقولهم: عاد تعريضك تصريحًا، وتمريضك تصريحًا.

ومن النظم قولُ الخنساء: [من البسيط]

حامي الحقيقة محمودُ الخليفة مهـ دي الطريقة نفاعُ وضار
جواب قاصية جزاز ناصية عقاد ألوية للخيل جرار^(٢)
وقد يجيء مع التجنيس، كقولهم:

إذا قلت الأنصار، كُلت الأبصار؛ وما وراء الخلق الدميم، إلا الخلق الذميم.

ومن النظم قولُ المطرزي: [من الوافر]

وزندُ ندى فواضله وريٍّ وزندُ رُبَا فضائله نُضير
ودرّ جلاله أبدًا ثمينٌ ودَرَ نِواله أبدًا غزير

وأما المتوازي - فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما، كقوله عز وجل: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مُّزْمُوعَةٌ﴾ (١٣) وَأَكْوَابٌ مُّزْمُوعَةٌ (١٤) [الغاشية: الآيتان ١٣، ١٤].

وقولُ الحريري: الجاني حكُم دهر قاسط، إلى أن أنتجع أرض واسط^(٣).

وقوله: وأودى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت.

وأما المطرف - فهو أن يراعى الحرف الأخير في كلمتي قرينته من غير مراعاة الوزن، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] وقولهم: جنباه محط الرحال، ومُخَيِّم الآمال.

(١) يعني أنه يفخر بنفسه لا بجذوده.

(٢) الحقيقة: ج حقائق، ما يجب على الإنسان أن يحميه.

(٣) واسط: بلدة في العراق متوسطة بين البصرة والكوفة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي بين سنتي

(٨٤ - ٨٦ هـ). (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٨١).

وأما المتوازن - فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿وَمَارِئُ مَصْفُوفَةٍ ۖ وَرَزَائِقُ مَبْنُوءَةٍ﴾ [الغاشية: ١٥، ١٦]، وقولهم: اصبر على حَزِّ القتال، وَمَصْضُ النِّزال، وشِدَّةِ المِصاع، ومدَاوِمَةِ المِرَاس؛ فإن راعى الوزن في جميع كلمات القرائن أو أكثرها، وقابل الكلمة منها بما يعادلها وزناً كان أحسن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ۖ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: الآيتان ١١٧، ١١٨]، وقول الحريري: اسودَّ يومي الأبيض، وأبيضَ فُودي^(١) الأسود؛ ويسمى هذا في الشعر الموازنة، كقول البحرّي: [من الطويل]

فقف مُسْعِداً فيهنَّ إن كنت عاذراً ويسر مُبْعِداً عنهنَّ إن كنت عاذلاً
قال: ومما هو شرطُ الحسن في هذا المحافظةُ على التشابه، وهو أسم جامع للملاءمة والتناسب.

فالملاءمة: تأليف الألفاظ الموافية بعضها لبعض على ضرب من الاعتدال كقول لبيد: [من الطويل]

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يعود رَمَادًا بَعْدُ إذ هو ساطع
وما أَلَمال والأهلون إلا ودبعة ولا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائع
وبعضهم يُعَدُّ التلفيق من باب الملاءمة، وهو أن تضم إلى ذكر الشيء ما يليق به ويجرى مجراه، أي تجمع الأمور المناسبة، ويقال له: مُراعاة النظر أيضاً، كقول ابن سَمْعُون^(٢) للمهلبّي^(٣):

أنت أيها الوزير إبراهيمي الجُود، إسماعيلي الوعد، شعبيّ التوفيق، يوسفّي العفو، محمدّي الخلق.

(١) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، والشعر الذي عليه.

(٢) ابن سمعون: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل (- ٣٧٨ هـ). اشتهر بوعظه في بغداد.

(٣) المهلبّي: هو الحسن بن محمد بن هارون، يتصل بنسبه إلى المهلب بن أبي صفرة. وزر لمعز الدولة البويهّي، وتوفي سنة ٣٥٢ هـ. كان كاتباً مجيداً وشاعراً. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٠).

وكقول أبي الفوارس الحمداني^(١): [من الكامل]

أأخا الفوارس لو رأيت موافقي والخيلُ من تحت الفوارس تَنحط^(٢)
لقرأت منها ما تخط يد الوغى والبيض تشكّل والأسبّة تنقُط

وكقول آخر: [من الطويل]

وكم سائل بالغيب عنك أجبتُه هناك الأيادي الشفْع والسودد الوتر
عطاء ولا منْ وحُكم ولا هوى وحلم ولا عجز وعز ولا كِبز
وقول ابن حيّوس^(٣): [من الطويل]

يقيُنك والتقوى وجُودُك والغنى ولفظُك والمعنى وسيفُك والنصر
والتناسب: هو ترتيب المعاني المتأخية التي تتلاءم ولا تتنافر، كقول النابغة:
[من الكامل]

والرفق يُمن والأناة سعادة فاستأن في رزق تنال نجاحا
والياس عما فات يُعقب راحة ولربّ مطمعة تعود ذباحا

ويسمى التشابه أيضا، وقيل: التشابه أن تكون الألفاظ غير متباينة بل متقاربة في الجزالة والرقّة والسلاسة، وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسوَ اللفظ الشريف المعنى السخيف، أو على الضد، بل يصاغان معا صياغة تناسب وتلائم.

فصل في الفقر المسجوعة ومقاديرها

قال: قصر الفقرات يدل على قوة التمكن وإحكام الصناعة، وأقل ما تكون كلمتان، كقوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الْمَدِينَةُ﴾ ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾

(١) نسب هذان البيتان لأبي العشائر الحمداني ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير حلب. كان أميرا على أنطاكية، وقد اتصل به المتنبّي فقدمه لسيف الدولة ولكنه غضب عليه بعد ذلك وعاداه ودبر لاغتياله فنجا من تلك المحاولة.

(٢) تنحط: من النحط وهو صوت الخيل من الإعياء.

(٣) ابن حيّوس: هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس وكنيته أبو الفتيان، ولقبه مصطفى الدولة. شاعر الشام في عصره. ولد ونشأ في دمشق وتوفي في حلب (٣٩٤ - ٤٧٣ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨١ م). له ديوان شعر مطبوع يتضمن مدائح في ولاية الفاطميين. (الزركلي، الأعلام).

[المدثر: الآيات ١ - ٤] وأمثال ذلك في الكتاب العزيز كثيرة، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر، وكان بديع الزمان يُكثر من ذلك في رسائله، كقوله: كُمِيتَ نَهْد^(١)، كأن راكمه في مَهْد؛ يَلْطِم الأرض بزُبُر^(٢) وينزل من السماء بخبر. قالوا: لكن التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر، لتشوقه إلى ما يرد متزايداً على سمعه.

فأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى ولكن لا بقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجودُ القافية فيقلّ الالتذاذُ بسماعها، فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضرّ تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة عليهما وإن زادت الثانية عن الأولى يسيراً، والثالثة على الثانية فلا بأس، لكن لا يكون أكثر من المثل، ولا يذ من الزيادة في آخر القرائن، مثاله في القرينتين: ﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ الرِّجْنَ وَلَكَّا ۝٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّنَوَاتُ يَفْفَظْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالِ هَذَا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرِّجَنِ وَلَكَّا ۝٩١﴾ [مريم: الآيات ٨٨ - ٩١]، ومثاله في الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالْأَسَاخَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقَرَّينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: الآيات ١١ - ١٣]، وأقصر الطوال ما كان من إحدى عشرة لفظاً وأكثرها غير مضبوط، مثاله من إحدى عشرة لفظاً: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كُفُورًا ۝٩﴾ [هود: الآية ٩] والتي بعدها من ثلاث عشرة كلمة؛ ومثاله من عشرين لفظاً قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتَهُمْ وَلَتَنْزَعُنَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤٣﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

وأما ردّ العجز على الصدر - فهو كل كلام منشور أو منظوم يلاقي آخره أوله بوجه من الوجوه، كقوله تعالى: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّاهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَئِيَ﴾ [طه: الآية ٦١] وقولهم: «القتل أنفى للقتل» و «الحيلة ترك الحيلة» وقولهم: طلب ملكهم فسلب ما طلب، ونهب ما لهم فوهب ما نهب.

(١) الكميت من الخيل: ما لونه الكمته، وهي سواد مشرب حمرة. والنهد من الخيل: الحسن الجسم.

(٢) الزُبُر: مفردا زبرة، وهي قطعة الحديد الضخمة.

وهو في النَّظْم على أربعة أنواع:

الأول: أن يَقَعَا طَرَفَيْنِ، إما متفقين صورة ومعنى، كقوله: [من الطويل]

سريع إلى أبْن العم يشْتِم عِرْضه وليس إلى داعي الندى بسريع

وقوله: [من الكامل]

سُكْران سُكْرُ هَوَى وسُكْرُ مُدَامَة أنى يُفِيق فَتَى به سُكْران

أو متفقين صورةً لا معنىً، وهو أحسن من الأول، كقول السَّري: [من

الوافر]

يَسَارٌ من سَجِيَّتِها المَنايا ويُمْنى من عَطِيَّتِها اليسار

وقول الآخر: [من الطويل]

ذَوائِبُ سُودٌ كالعناقيد أرسلت فمن أجلها مَتَا النفوسُ ذَوائِبُ

أو معنى لا صورة، كقول عمر بن أبي ربيعة: [من الزمل]

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً واحدة إنما العاجز من لا يَسْتَبِدْ

وقول السَّري: [من الوافر]

ضرائبُ أَبْدَعَتْها في السَّماح فلسنا نرى لك فيها ضريباً

وقول الآخر: [من السريع]

ثُلُبُكَ أهلَ الفضل قد دَلَّنِي أنك منقوص ومثلوب

أو لا صورةً ولا معنى ولكن بينهما مشابهة اشتقاق، كقول الحريري: [من

البسيط]

وَلَاخَ يَلْحَى على جَزِي العِنان إلى مَلَهَا فَسُحِّقًا له من لائح لاجي

الثاني: أن يَقَعَا في حَشْوِ المِصْرَاعِ الأولِ وَعَجْزِ الثاني، إما متفقين صورةً ومعنى

كقول أبي تمام: [من الوافر]

ولم يَحْفَظْ مُضَاعَ المجد شيء من الأشياء كالمال المُضَاع

وقول آخر: [من الكامل]

أَمَّا القبور فإنهن أوانس بجوار قبرك والديارُ قبور

أو صورةً لا معنًى، كقول الثعالبي: [من الكامل]

وإذا البلابل أفصحت بلُغاتها فأنف البلابل باحتساءٍ بلايل
فالأول جمعُ بُلْبُل، والثاني جمعُ بَلْبَلَة وهي الهمّ والثالث جمعُ بُلْبَلَة الإبريق
وقول الزمخشري^(١): [من الطويل]

وأخرني دَهري وقَدَمَ معشرًا لأنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجُهل أعلم أنني أنا الميم والأيام أفلح أعلم^(٢)

أو معنًى لا صورةً، كقول امرئ القيس: [من الطويل]

إذا المرء لم يَخْزُنْ عليه لسانه فليس على شيءٍ سواه بخزان
وقول أبي تمام: [من الكامل]

دِمَن أَلَمَ بها فقال سلام كم حَلَّ عُقْدَةً صبره الإمام
وقول أبي فراس: [من الوافر]

وما إن شبتُ من كِبَرٍ ولكن لقيتُ من الأحبة ما أشابا
أو في الاشتقاق فقط، كقول أبي فراس: [من الوافر]

مَنَحْنَاهَا الحَرَائِبَ غيرَ أَنَا إذا جُرْنَا مَنَحْنَاهَا الجِرَابَا^(٣)

الثالث: أن يقعَا في آخر المِصرَاعِ الأوَّلِ وعَجْزِ الثاني، إما متفقين صورةً ومعنًى
كقول أبي تمام: [من الطويل]

ومن كان بالبيض الكواعب مغرمًا فما زلتَ بالبيض القواضب مُغْرَمَا

(١) هو محمود بن عمر الزمخشري، نسبة إلى مسقط رأسه زمخشري حيث ولد سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م). وحج إلى مكة حيث جاور مدة من الزمن فلقب بجار الله. وكان معتزلي المعتقد، وألف عددًا من الكتب أهم أسرار البلاغة، والكشاف، والمفصل في صنعة الإعراب، توفي سنة ٥٣٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨ - ١٧٤).

(٢) الأفلح: المشقوق الشفة السفلى. الأعلم: المشقوق الشفة العليا. يشبه الأيام التي تجهل قدره بالأفلح الأعلم الذي لا يستطيع لفظ الميم.

(٣) الحرائب: جمع حريبة. وهي المال الذي يعاش منه أو المال المسلوب. يريد القول إنه رد عليها المال الذي سلب منها لأنه عادل كريم، ولكنه إذا جار استطاع أن يسدد إليها الحراب أو الأسنة.

أو صورة لا معنى، كقول الحريري: [من الوافر]

فمشغوف بآيات المثنائي ومفتون برنات المثنائي

أو معنى لا صورة، كقول البحرّي: [من الوافر]

ففعلك إن سئلت لنا مطيع وقولك إن سألت لنا مطاع

الرابع: أن يقع في أول المِصرع الثاني والعجز، إما متفقين صورة ومعنى كقول الحماسي: [من الطويل]

فإلا يكن إلا مُعلَّل ساعة قليلاً فإني نافع لي قليلها

أو صورة لا معنى، كقول أبي دؤاد: [من المتقارب]

عهدت لها منزلاً دائراً وآلاً على الماء يحملن آلاً

فالأول الأتباع، والثاني أعمدة الخيام، وكقول آخر: [من الطويل]

رماك زمان السوء من حيث لا ترى فرامى ولم يظفر بما هو راما

أو معنى لا صورة، كقول أبي تمام: [من الطويل]

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

وقد كانت البيض البواتر في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بُثر^(١)

قال: ومن نادر هذا الباب بيتا الحريري اللذان سماهما المطرفين، وهما: [من السريع]

سِم سِمَة تحسُن آثارها وأشكر لمن أعطى ولو سِمِسمه

والمكر مهمما أسطعت لا تأته لتبتغي السودد والمكرمه

قال: فإن لم يقع في العجز فليس من هذا الباب، كقوله: [من السريع]

ونُبشُّهُمْ يَستَصرُّون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام

وكقول الأَفْوه الأودّي: [من السريع]

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل غيرانية عنتريس

(١) يعني بالبواتر: السيوف. ويعني ببواتر: قواطع. ويعني ببتّر: لا أصل لها ولا نسل.

فَالهُوَ جَلَّ الْأَوَّلُ: الْفَلَاة، والثاني: الناقاة السريعة.

وأما الإعنات - ويقال له التضييق والتشديد ولزوم ما لا يلزم - فهو أن يُغْنِت نفسه في ألتزام رِذْفٍ أو دَخِيلٍ أو حرف مخصوص قَبْلَ حرف الروي، أو حركة مخصوصة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: الآيتان ٩، ١٠]، وقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَحَاوِلُ، وَبِكَ أَصَاوِلُ»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ مَا فِي الْمَرْءِ شُحُّ هَالِعٍ، أَوْ جُبْنُ خَالِعٍ»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «زُرْ غَبًا تَزِدُّ حُبًّا»، وقول عمر رضي الله عنه: لا يكن حبُّك كَلْفًا، ولا بُغْضُك تَلْفًا؛ وقول المَعْرِي^(١): [من الطويل]

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحق لسكان البسيطة أن يَبْكُوا
يُحْطَمُنَا صَرَفَ الزَّمانِ كَانُنَا زُجاج ولكن لا يعادُ لَهُ السَّبْكُ
وقول آخر: [من الطويل]

يقولون في البستان للمعين لذة وفي الخمر والماء الذي غيرُ آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجه من تهوى جميعُ المحاسن
وقد ألتزم ابن الرومي الفتح قَبْلَ حرف الروي - وكان أولع الناس بذلك - فقال:
[من الطويل]

لِمَا تَوْذَنَ الدُّنيا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يكون بُكاءُ الطفل ساعةً يولد
وإلا فما يُبْكِيهِ فِيهَا وَإِنَّهَا لأَوْسَعُ مِمَّا كان فِيهِ وَأَرْغَد
إذا أَبْصَرَ الدُّنيا أَسْتَهْلَ كَانَهُ بما سِيلاقي مِنْ أَذاها يُهْدَدُ
وأمثال ذلك في الشعر كثيرة.

[المذهب الكلامي]

وأما المذهب الكلامي - فهو إيراد حُجَّةٍ للمطلوب على طريقة أهل الكلام نحو قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] ومنه قول النابغة يعتذر إلى الثَّعْمَانِ: [من الطويل]

حلفتُ فلم أترك لنفسي رِيبَةً وليس وراءَ الله للمرءَ مَذْهَبَ

(١) أكثر أبو العلاء المعري من هذا الضرب في ديوانه «اللزوميات» وقد سمي بهذا الاسم لأنه ألزم نفسه ما لا يلزم من الإعنات والجناس والطباق وسائر الزخارف البديعية.

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِّي جناية لمبلُغك الواشي أَعَشْ وأكذَّب
ولكنني كنت امرءاً لي جانب من الأرض فيه مُستَراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم أحكُّم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك أصطنعتهم فلم ترَهُم في مدحهم لك أذنبوا

يقول: أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أحسن إليّ قوم فمدحتهم، فكما أن مدح من أحسنت إليه لا يُعدّ ذنباً فكذا مدحي لمن أحسن إليّ لا يُعدّ ذنباً. قال ابن أبي الإصبع، ومن شواهد هذا الباب قولُ الفرزدق: [من الطويل]

لكلّ امرئ نفسان نفسٌ كريمةٌ ونفس يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسك تشفع للئدى إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعها

يقول: لكلّ إنسان نفسان: نفس مطمئنة تأمره بالخير، ونفس أمارة تأمره بالشرّ، والإنسان يعاصي الأمانة مرة ويطيعها أخرى، وأنت إذا أمرتك الأمانة بترك الندى شفعت المطمئنة إليها في الندى في الحالة التي يقلّ فيها الشفيع في الندى من النفوس، فأنت أكرم الناس.

[حسن التعليل]

وأما حسن التعليل - فهو أن يُدعى لوصفٍ علّة مناسبة له بأعتبارٍ لطيف وهو أربعة أضرب: لأنّ الصفة إمّا ثابتةٌ قُصِدَ بيانُ علّتها، أو غيرُ ثابتةٍ أريد إثباتها.

فالأولى: إمّا لا يظهر لها في العادة علّة، كقوله: [من الكامل]

لم يحك نائلُك السحابُ وإنما حُمّت به فصبيُّها الرُحضاء^(١)

أو يظهر لها علّة، كقوله: [من الرمل]

ما به قتلُ أعاديهِ ولكن يتقي إخلافَ ما ترجو الذئاب^(٢)

فإن قتلَ الأعداء في العادة لدفع مضرّتهم لا لما ذكره.

(١) الرحضاء: العرق المتصيب من المصاب بالحمى.

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبّي. يريد القول إن سبب قتل أعاديهِ ليس حب القتل أو الفتك، بل عدم إخلاف رجاء الذئاب التي تأمل أن يقدم لها الغذاء، وهو جثث الأعداء.

والثانية: إما مُمكنة، كقوله: [من البسيط]

يا واشيّا حُسنت فينا إساءته نَجى حِذارُك إنساني من الغرق
فإن أَسْتَحْسان إساءة الواشي ممكن، لكن لما خالف الناس فيه عقبه بما ذكر.

أو غير مُمكنة، كقوله: [من البسيط]

لو لم تكن نيّة الجوزاء خدمته لما أنت وعليها عقد منتطِق
قال: وأُحِقَّ به ما بُني على الشك، كقول أبي تمام: [من الطويل]

رُبّا شَفَعْتَ رِيح الصَّبَا لرياضها إلى المُرْنِ حتّى جادها وهو هامع^(١)
كأنّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبَ تحتها حبيبًا فما تَرَقّا لهنّ مدامع^(٢)

وقد أحسن ابن رشيّق في قوله: [من الوافر]

سألتُ الأرض لِمَ كانت مصلى ولمْ كانت لنا طُهرًا وطيبًا
فقالَت غيرَ ناطقةٍ لآتي حويْتُ لكلِّ إنسان حبيبًا

وأما الالتفات - فقد فسره قدامة بأن قال: هو أن يكون المتكلّم آخذًا في معنى فيعترضه إما شكّ فيه وإما ظنّ أن رادّا يردّه عليه، أو سائلًا له عن سببه فيلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يُجَلِّي الشكّ، أو يؤكّده، أو يذكّر سببه، كقول الرماح بن مَيّادة: [من الطويل]

فلا صرْمُه يبدو ففي اليأس راحة ولا وصلُه يصفو لنا فنكارُمُه

كأنه توهم أن فلانًا يقول: ما تصنع بصرْمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة. وأما ابن المعتز فقال: الالتفات أنصراف المتكلّم عن الإخبار إلى المخاطبة، ومثاله في القرآن العزيز الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥]، ومثاله في الشعر قول جرير: [من الوافر]

متى كان الخيامُ بذِي طُلُوح سَقِيَتِ الغيثُ أَيْتَها الخيام^(٣)

(١) هامع: سائل.

(٢) ترقّا: تكف عن البكاء. طلب ريح الصبا من السحاب أن يسقي رياض الربا فاستجابت لشفاعته وسقتها المطر الذي لم يتوقف عن الهطول، وكأنها فقدت حبيبها فبكته.

(٣) ذو طُلُوح: موضع في جبل بني يربع بين الكوفة ومَند. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ٣٩).

أو أنصرف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَوِيلَةٍ﴾ [يونس: الآية ٢٢] ومثال ذلك في الشعر قول عنترة: [من الكامل]

ولقد نزلتِ فلا تظنني غيرَه متي بمنزلة المُحِبِّ المَكْرَمِ
ثم قال مخبراً عنها: [من الكامل]

كيف المَزار وقد تربع أهلها بعُنَيْزَتَيْنِ وأهلنا بالغَيْلِمِ^(١)
أو أنصرف المتكلم من الإخبار إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ﴾ [فاطر: الآية ٩].

أو أنصرف المتكلم من التكلم إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾^(٢) وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١١﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٢﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠]، وقد جمع أمرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاثة أبيات متواليات، وهي قوله: [من المتقارب]

تَطَاوُلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِدِ ونام الخلي ولم ترقد^(٣)
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد^(٤)
وذلك من نبأ جءاني وخُبْرُثُهُ عن أبي الأسود

يخاطب في البيت الأول، وأنصرف إلى الإخبار في البيت الثاني، وأنصرف عن الإخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب.

وأما التمام - وهو الذي سماه الحاتمي^(٥) التتميم، وسماه ابن المعتز أعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلم فيتممه، وشرح حده بأنه الكلمة التي إذا طُرحت من الكلام نقص حُسْنُ معناه ومبالغته، مع أن لفظه يوهم بأنه تام؛ وهو على ضربين: ضرب في المعاني وضرب في الألفاظ، فالذي في المعاني هو تتميم المعنى

(١) عنيزتين والغيلم: اسما مكانين في الجزيرة العربية. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٤).

(٢) في القرآن الكريم: إن يشأ يذهبكم.

(٣) الإثمِد: اسم مكان. (ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٢).

(٤) العائر: ما أعل العين، هو بثر في الجفن الأسفل منها.

(٥) الحاتمي: (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) هو محمد بن الحسن بن المظفر، أبو علي أديب نقاد، من أهل بغداد. له الرسالة الحاتمية في نقد المتنبي، وسر الصناعة، (الزركلي، الأعلام).

والذي في الألفاظ هو تتميم الأوزان، والأول هو الذي قُدِّمَ حُدِّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧]، فقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ [النحل: الآية ٩٧] تتميم، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: الآية ٩٧] تتميم ثان في غاية البلاغة، ومن هذا القسم قول النبي ﷺ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم أثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة إلا أبتنى الله له بيتًا في الجنة» فوقع التتميم في هذا الحديث في ثلاثة مواضع: قوله عليه السلام: مسلم، والله، ومن غير الفريضة، ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قول الشاعر^(١):

[من الطويل]

أَنَاسٌ إِذَا لَمْ يُقْبَلِ الْحَقُّ مِنْهُمْ وَيَعْطُوهُ عَادُوا بِالسُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ

وأما الذي في الألفاظ فهو الذي يُؤْتَى به لإقامة الوزن بحيث لو طُرحت الكلمة أَسْتَقْلَ معنى البيت بدونها؛ وهو على ضربين: أحدهما مجيء الكلمة لا تفيد غير إقامة الوزن فقط، والثاني: مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعًا من الحسن، فالأول من العيوب والثاني من المحاسن؛ قال: والكلام هنا في الثاني، ومثاله قول المتنبي: [من الكامل]

وَحُفُوقَ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ لَهَيْبِهِ يَا جَتَّتِي لظَنْتَ فِيهِ جَهَنَّمَا

فإنه جاء بقوله يا جتتي لإقامة الوزن، وقصد بها دون غيرها مما يسد مسدّها أن يكون بينها وبين قافية البيت مطابقة لا تحصل بغيرها.

وأما الاستطراد - وهذه التسمية ذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحرّي، وقيل: إن البحرّي نقلها عن أبي تمام، وسماه ابن المعتز: الخروج من معنى إلى معنى، وفسره بأن قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخر يتضمّن مدحًا أو قدحًا أو وصفًا ما، وغالب وقوعه في الهجاء، ولا بد من ذكر المستطرّد به بأسمه بشرط أن لا يكون تَقَدَّمَ له ذكر.

فمن أول ما ورد في ذلك من النظم قول السموأل بن عدياء^(٢): [من الطويل]

وَأَنَا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

(١) هو الشاعر نافع بن خليفة الغنوي.

(٢) السموأل بن عدياء: شاعر جاهلي كان يملك الحصن المعروف بالأبلق. ضرب به المثل في الوفاء لأنه فضل قتل ابنه على تسليم أمانة أودعها لديه امرؤ القيس. (المنجد).

ومنه قول حسان: [من الكامل]

إن كنتَ كاذبة الذي حَدَّثَنِي فنجوتَ مَنجا الحارث بن هشام
تركَ الأحبة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طِمْرَة ولجم^(١)

وقولُ أبي تمام في وصف حافر الفرس بالصلابة: [من البسيط]

أيقنتُ إن لم تَثْبُتْ أنْ حافره من صخر تَدْمُرُ أو من وجه عثمان^(٢)

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ ابنِ الزَّمَكْدَمِ أربعةَ أسطرادات متوالية: [من الطويل]

وليلٍ كوجه البرقعيدي^(٣) ظلمة ويرد أغانيه وطولِ قرونه
سريت ونومي فيه نومٌ مشرَّد كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه ألتفات كأنه أبو صالح في خبطه وجنونه^(٤)
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجه قرواش وضوء جبينه^(٥)

وقولُ البحتري في الفرس أيضًا: [من الكامل]

ما إن يعاف قذى ولو أوردته يومًا خلائقَ حمدويه الأحول
ومما جمع المدح والهجاء قول بكر بن النطاح^(٦): [من الطويل]
فتى شقيث أمواله بنواله كما شقيث بكر بأرماع تغلب
ومما جاء به على وجه المجون قولُ بعضهم:

اكشفي وجهك الذي أوحلتني فيه من قبل كشفه عيناك
غلطي في هواك يشبه عندي غلطي في أبي علي بن زاكي

(١) الطمرة من الأفراس: المستعدة للعدو. يشير حسان بن ثابت إلى فرار الحارث بن هشام بن المغيرة يوم بدر.

(٢) تدمر: مدينة قديمة في بلاد الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. عثمان: هو عثمان بن إدريس السامي. (ياقوت، البلدان).

(٣) البرقعدي: نسبة إلى برقعيد، وهي بلدة بين الموصل ونصيبين.

(٤) الأولق: الجنون، يريد: على فرس ذات جنون.

(٥) قرواش: هو قرواش بن مقلد أمير بني عقيل.

(٦) بكر بن النطاح: (١٩٢ هـ - ٨٠٨ م) الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، فارس، من أهل اليمامة. انتقل إلى بغداد زمن الرشيد (الأعلام، للزركلي).

ومما جاء في النسب على وجه التشبيه قولُ امرئ القيس: [من الكامل]

عُوجاً على الطلل المُجِيل لعلنا نبكي الديار كما بكى أبْن حمام

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذم - فهو ضربان: أفضلهما أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى الشيء ببينة، وأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فذكر أداته قبل ذكر ما بعدها يوهم إخراج الشيء مما قبلها، فإذا وليها صفة مدح جاء التأكيد.

والثاني: أن يُثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له، كقوله عليه السلام: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» وأصل الاستثناء في هذا الضرب أيضاً أن يكون منقطعاً، لكنه باق على حاله لم يقدر متصلاً فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين، ولهذا كان الأول أفضل.

ومن أمثلة الأول قولُ النابغة الذبياني: [من الطويل]

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنَ فُلُول من قِراعِ الكتائب^(١)

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ حاتم الطائي^(٢): [من الطويل]

ولا تشتكيني جارتِي غيرَ أني إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها

ومن الثاني قولُ النابغة الجعدي^(٣): [من الطويل]

فتى كملت أخلاقه غيرَ أنه جواد فما يُبقي من المال باقيا

ومن أحسن ما ورد في هذا الباب قولُ بعضهم: [من الطويل]

ولا عيبَ فينا غيرَ أنَ سماحنا أضرَّ بنا والبأسَ من كلِّ جانب

فأفنى الردى أعمارنا غيرَ ظالم وأفنى الندى أموالنا غيرَ عاتب

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح فيها النابغة الذبياني ملوك الغساسنة في الشام. إنهم فرسان تثلثت سيوفهم من المعارك التي يخوضونها.

(٢) عرف حاتم الطائي بكرمه وعفته كما عرف بشجاعته وهي أهم القيم الخلقية التي كان يتغنى بها الشعراء الجاهليون. وفي هذا البيت يفخر حاتم بعفته، فهو لا يشتهي امرأة جاره.

(٣) النابغة الجعدي: (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) هو قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مغلق صحابي من المعمرين اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام ووفد على النبي وأسلم وأدرك صفين مع علي، ثم سكن الكوفة. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وأما تأكيد الذم بما يشبه المدح - فهو ضربان:

أحدهما: أن يُستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها كقولك: فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء إلى من أحسن إليه.

والثاني: أن تُثبت للشيء صفة ذم وتعقب بأداة استثناء تليه صفة ذم له أخرى كقولك: فلان فاسق إلا أنه جاهل، وتحقيق القول فيها على قياس ما تقدّم.

وأما تجاهل العارف - فهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليُخرج كلامه مُخَرَج المدح أو الذم، أو ليدلّ على شدة التدلّ في الحب، أو لقصد التعجب أو التوبيخ أو التقرير؛ وقال السكاكي^(١): هو سَوَق المعلوم مَسَاقَ غيره لنكتة كالتوبيخ، كما في قول الخارجيّة وهي ليلى بنت طريف^(٢): [من الطويل]

أيا شجر الخابور مالك مُورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف^(٣)

والمبالغة في المدح، كقول البحتري: [من البسيط]

المعُ برق سرى أم ضوءُ مصباح أم أبْتسامُها بالمَنْظَر الضاحي
أو الذم، كما قال زهير: [من الوافر]

وما أدري ولست إخال أدري أقومُ آلِ حصن أم نساء
أو التدلّ في الحب، كقوله: [من البسيط]

بالله يا ظبياتِ القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر
وقولِ البحتري: [من البسيط]

بدا فراع فؤادي حسنُ صورته فقلت هل ملكُ ذا الشخصُ أم ملكُ

(١) يبدو أن النويري ينقل عن السكاكي ولا يبتعد عنه كثيراً لا في الأحكام ولا في الأمثلة التي يسوقها كشواهد.

(٢) ليلى بنت طريف: (٢٠٠ هـ - ٨١٥ م)، هي القارعة أو فاطمة بنت طريف بن الصلت التغلبيّة الشيبانية، شاعرة فارسية من الخوارج. (الأعلام، للزركلي).

(٣) الخابور: نهر كبير بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة ومن روافده فاضل الهرماس، ومد أو نهر نصيبين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان).

وأما الهزل الذي يراد به الجدّ - فهو أن يقصد المتكلّم ذمّ إنسان أو مدحه فيُخرِج ذلك مُخرِج المجون، كقول الشاعر^(١): [من الطويل]

إذا ما تميمي أتاك مُفاخرًا فقلّ عدّ عن ذا كيف أكلك للضبّ

وأما الكنايات - فهي أن يُعبّر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن الفاحش بالطاهر، وقد تقدّم الكلام على ذلك في باب الكناية والتعريض وهو الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفن، وهو في السّفر الثالث من كتابنا هذا.

وأما المبالغة - وتسمّى التبليغ والإفراط في الصفة - فقد حدّها قدامة بأن قال: هي أن يذكر المتكلّم حالاً من الأحوال لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره ما يكون أبلغ في معنى قصده، كقول عُمير بن كَريم التغلبي^(٢): [من الوافر]

ونُكِرِم جاراننا ما دام فينا ونُتبعه الكرامة حيث مالا

ومن أمثلة المبالغة المقبولة قولُ امرئ القيس يصف قَرَسًا: [من الطويل]

فعاذى عِداءً بين ثور ونعجة دراكًا ولم يُنضح بماء فيُغسل
يقول: إنه أدرك ثورًا وبقرة في مِضمار واحد ولم يَعْرِق.

وقولُ المتنبي: [من الطويل]

وأصرّع أيّ الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

ولا يعاب في المبالغة إلا ما خرج عن حدّ الإمكان، كقوله^(٣): [من الكامل]

وأخفت أهلَ الشرك حتى إنه لتخافك النُطف التي لم تُخلَق

وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم^(٤): [من الطويل]

طعنْتُ أبَنَ عبد القيس طعنةً ثائر لها نَفْدٌ لولا الشُعاعُ أضاءها

ملكْتُ بها كَفِّي فَأَنهرْتُ فَتَقَّها يُرى قائمًا من دونها ما وراءها

(١) الشاعر هو أبو نواس، والبيت من قصيدة يهجو بها تميمًا وأسدًا ويفخر بقحطان.

(٢) هو عمير بن كَريم التغلبي «عمير بن الأهم».

(٣) البيت للشاعر العباسي أبي نواس، وهو من قصيدة يمدح فيها هارون الرشيد.

(٤) قيس بن الخطيم: (٢ ق هـ - ٦٢٠ م)، هو قيس بن عدي الأوسي، شاعر الأوس وأحد فرسانها في الجاهلية. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

فإن ذلك من جيد المبالغة إذ لم يكن قد خرج مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة، ومن أحسن ذلك وأبلغه قول أحد شعراء الحماسة: [من الطويل]

رَهْنَتْ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ وَمَا بَعْدَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدٍ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يَسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ وَلَكِنْ مَا لَا يَسْتَطَاعُ شَدِيدٍ

وأما عتاب المرء نفسه - فهو من أفراد أبْنِ المَعْتَزِّ، وَلَمْ يُنْشِدْ عَلَيْهِ سِوَى بَيْتَيْنِ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمْدِيَّ أَنْشَدَهُمَا عَنِ الْجَاحِظِ وَهُمَا: [من الطويل]

عَصَانِي قَوْمِي فِي الرِّشَادِ الَّذِي بِهِ أَمَرْتُ وَمَنْ يَعِصُ الْمَجْرُبَ يَنْدَمُ
فَصَبْرًا بَنِي بَكَرَ عَلَى الْمَوْتِ إِنَّنِي أَرَى عَارِضًا يَنْهَلُ بِالْمَوْتِ وَالدَّمِ

قال: وَلَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا لِهَذَا الْبَابِ إِلَّا قَوْلُ أَحَدِ شُعَرَاءِ الْحِمَاسَةِ: [من الطويل]

أَقُولُ لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلُومَهَا لَكَ الْوَيْلُ مَا هَذَا التَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ
وَقَوْلُ الْآخَرِ: [من الطويل]

فَقَدْتُكَ مِنْ نَفْسِ شَعَاعٍ فَإِنَّنِي نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا وَأَنْتَ جَمِيعٌ^(١)
وَمَا نَاسِبَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَلَةِ.

وَأَمَّا حُسْنُ التَّضْمِينِ - فَهُوَ أَنْ يَضْمَنَ الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ كَلِمَةً مِنْ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ مَثَلٍ سَائِرٍ أَوْ بَيْتٍ شَعْرٍ؛

وَمِنْ إِنْشَادَاتِ أَبْنِ الْمَعْتَزِّ عَلَيْهِ: [من السريع]

عَوْدٌ لِمَا بَتَّ ضَيْفًا لَهُ أَقْرَاصُهُ مَتْنِي بِيَاسِينَ
فَبِتُّ وَالْأَرْضُ فَرَاشِي وَقَدْ غَنَّتْ قِفَا نَبْكِ مَصَارِينِي

فَضَمَّنَ بَيْتَهُ الْأَوَّلَ كَلِمَةً مِنَ السُّورَةِ بِتَوَطُّئِهِ حَسَنَةً، وَبَيْتَهُ الثَّانِيَّ مَطْلَعَ قَصِيدَةٍ أَمْرِيءِ الْقَيْسِ.

(١) النَّفْسُ الشَّعَاعُ: الَّتِي تَفَرَّقَتْ هُمُومُهَا. جَمِيعٌ: مُجْتَمِعَةٌ.

ومما ضُمِّن معنى حديث النبي ﷺ قولُ الآخر: [من الخفيف]

وأخ مسّه نزولي بَقَزِح مِثْلَمَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَزَحٌ^(١)
بَثُّ ضَيْقًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ رَ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرْ قَبِجْ
قَالَ لِي مَذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكْرِ رَ بِالْهَمِّ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
لَمْ تَغْرَبْتَ؟ قُلْتُ: قَالَ رَسُولُ الدِّ هِ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصَحٌ وَنُجَحٌ
«سَافِرُوا تَغْنَمُوا» فَقَالَ: وَقَدْ قَدَّ نَالَ تَمَامَ الْحَدِيثِ: «صُومُوا تَصِحُّوا»

ومن تضمين الشعر قولُ بعضهم: [من الطويل]

وَقَفْنَا بِأَنْضَاءِ حَكَّتْنَا لَوَاغِبٍ «عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبٍ»
وَهُوَ مَطْلَعُ قَصِيدَةٍ لِأَبِي تَمَامٍ.

ومنه قولُ الغَزَّيِّ: [من السريع]

طَوَّلُ حَيَاةٍ مَا لَهَا طَائِلٌ نَغَصَ عِنْدِي كُلُّ مَا يُشْتَهَى
أَصْبَحْتُ مِثْلَ الطِّفْلِ فِي ضَعْفِهِ تَشَابَهَ الْمَبْدَأُ وَالْمُنْتَهَى
فَلَا تَلَمْ سَمْعِي إِذَا خَانَنِي «إِنَّ الثَّمَانِينَ وَيُلْغَتْهَا»

المراد من التضمين ههنا تمام البيت:

* قد أحوَجْتُ سمعي إلى تُرْجُمان *

وإنما تركه لأن أوَّل البيت يدلُّ عليه لاشتهاره، وهذا قد أكثر المتأخرون من استعماله في أشعارهم، وضَمَّنوا البيت الكامل بعد التوطئة له.

وأما التلميح - وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده - فهو أن يشير في فحوى الكلام إلى مَثَلٍ سائر، أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكره، كقول الشاعر: [من البسيط]

المستغيثُ بعمرٍو عند كُربته كالمستغيث من الرمضاء بالنار

(١) قرح: اسم بلدة. وقرح الثاني نفس الجرح. وقرح البلدة في وادي القرى، كانت من أسواق العرب في الجاهلية. (ياقوت، معجم البلدان).

أشار إلى قضية كُليب حين استغاث بعمر بن الحارث^(١)؛ ومنهم من يسمي ذلك أقتباسًا، وإيراد المثل كما هو تضييًّا.

وأما إرسال المثل - فهو كقول أبي فراس: [من الطويل]

تهُون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب العلياء لم يُغله المهر
وكقول المتنبي: [من الطويل]

تُبكي عليهن البطاريق في الدجى وهن لدينا مُلقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وأما إرسال مثلين - فهو الجمع بين مثلين، كقول لبيد: [من الطويل]

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأبيات زهير بن أبي سلمى التي فيها ومن ومن، وقد تقدّم ذكر ذلك مستوفى في باب الأمثال، وهو الباب الأول من القسم الثاني من هذا الفن، وهو في السفر الثالث.

وأما الكلام الجامع - فهو أن يكون البيت كله جاريًا مجرى مثل واحد كقول زهير: [من الطويل]

ومن يك ذا فضلٍ ويبخلٍ بفضله على قومه يُستغن عنه ويُذم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضرر بأنبياب ويوطأ بمنسِم^(٢)
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكقول أبي فراس: [من الطويل]

إذا كان غيرُ الله في عُدة الفتى أته الرزايا من وجوه الفوائد

(١) «قضية كليب حين استغاث بعمر بن الحارث» يعني بها مقتل كليب وائل على يد جساس بن مرة بسبب رعي ناقة البسوس (خاله جساس) حمى كليب. لقد قتل كليب ناقة البسوس لأنها انتهكت حماه فاستغاثت البسوس بابن أخيها جساس فذهب ورمى كليبًا بسهم فسقط على الأرض يتزف دماءً، وشعر بالعطش، فطلب منه شربة ماء فرماه بسهم آخر، فقال هذا البيت الذي ذهب مثلاً. (الزركلي، الأعلام، مادة بسوس).

(٢) المنسم: الخف. يريد زهير أن يقول في هذا البيت الذي ورد في معلقته: من لا يكن ليثًا في معاملة الناس ينهش ويداس بالأقدام.

وكقول المتنبي: [من الوافر]

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفتته من الفهم السقيم

وقوله: [من الطويل]

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بدّ

وقوله: [من الكامل]

ومن البليّة عدلٌ من لا يرعوي عن جهله وخطابٌ من لا يفهم

وقوله: [من البسيط]

إنّا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحساناً وإجمالاً

وأما اللَّف والنشر - فهو أن يذكر أثنين فصاعداً ثم يأتي بتفسير ذلك جملة مع رعاية الترتيب ثقة بأن السامع يردّ إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبَيِّنُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القَصص: الآية ٧٣].

ومن النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

ألسّت أنت الذي من وزد نعمته ووزد راحته أجزي وأغترف

وقد لا يراعى فيه الترتيب ثقة بأن السامع يردّ كل شيء إلى موضعه سواء تقدّم أو تأخر، كقول الشاعر: [من الخفيف]

كيف أسلو وأنت جحف وغصن وغزال لحظاً وقداً وردفاً^(١)

وأما التفسير - وهو قريب منه - فهو أن يذكر لفظاً ويتوهم أنه يحتاج إلى بيانه فيعيده مع التفسير، كقول أبي مسهر^(٢): [من البسيط]

غيثٌ وليثٌ فغيث حين تسأله عُرفاً وليثٌ لدى الهيجاء ضرغام

ومنه قول الشاعر: [من البسيط]

يُحيي ويُردي بجدواه وصارمه يُحيي العُفَاءَ ويُردي كلّ من حسداً

(١) الحقف: كتيب الرمل، يعني بها ردفاً.

(٢) أبو مسهر: (١٤٠ - ٢١٨ هـ = ٧٥٧ - ٨٣٣ م)، هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي. كان شيخ الشام وعالمها بالحديث والمغازي والأيام والأنساب. امتحنه الخليفة المأمون بالرقعة فامتنع فحبسه ومات في السجن. (الأعلام، للزركلي).

ومن ذلك أن يذكر معاني ويأتي بأحوالها من غير أن يزيد أو ينقص كقول
الفرزدق: [من الطويل]

لقد جثت قوماً لو لجأت إليهمو طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألقيت فيهم معطياً ومطاعنا وراءك شزراً بالوشيج المقوم^(١)
لكنه لم يراع شرط اللَّف والنشر.

وقول آخر: [من الطويل]

فواحسرتا حتى متى القلب موجع بفقد حبيب أو تعذر إفضال
فراق حبيب مثله يورث الأسى وخلة حر لا يقوم بها مالي
ومنه قول ابن شرف: [من البسيط]
سل عنه وأنطق به وأنظر إليه تجذ ملء المسامع والأفواه والمقل

ومن أحسن ما في هذا الباب قول ابن الرومي: [من الكامل]

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخزيات رجوم
وفساد ذلك أن يأتي بإزاء الشيء بما لا يكون مقابلاً له، كقول الشاعر: [من
الطويل]

فيا أيها الحيران في ظلم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياءً ومن كفيه بحرًا من الندى
فأتى بالندى بإزاء بغى العدا، وكان يجب أن يأتي بإزائه بالنصر أو العصمة أو
الوزر وما جانسه، أو يذكر في موضع البغي الفقر والغدَم وما جانس ذلك.

وأما التعدد - ويسمى سياقة الأعداد - فهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد،
فإن روعي في ذلك ازدواج أو جناس أو تطبيق أو نحو ذلك كان غايةً في الحسن،
كقولهم: وضع في يده زمام الحل والعقد، والقبول والرد، والأمر والنهي، والبسط
والقبض، والإبرام والنقض، والإعطاء والمنع؛ ومن النظم قول المتنبي: [من البسيط]

الخيْلُ والليلُ والبِئداءُ تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وأما تنسيق الصفات - فهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٥]، وقول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون».

ومن النظم قولُ أبي طالب^(١) في النبي ﷺ: [من الطويل]

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمال اليتامى عصمةً للأرامل^(٢)

وقول المتنبي: [من البسيط]

دانٍ بعيدٌ محبٌ مبغضٌ بهجٍ أغرٌ حلوٌ مُمرٌ لئِن شرس

وأما الإيهام - ويقال له التورية والتخييل - فهو أن يذكر ألفاظًا لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريب، ومراد المتكلم البعيد مثاله قول عمر بن أبي ربيعة: [من الخفيف]

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

فذكر الثريا وسهيلاً ليوهم السامع أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثريا من منازل القمر الشامية، وسهيل من النجوم اليمانية؟ ومراده الثريا التي كان يتغزل بها لما رُوجت بسهيل؛ ومن ذلك قول المعري: [من الطويل]

إذا صدق الجَدّ أفتري العَمَ للفتى مكارم لا تخفى وإن كذب الخال

فإن وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجَدّ: الحظّ، وبالعَمّ: الجماعة من الناس، وبالخال: المخيلة، ومن ذلك قول الحريري في وصف الإبرة والميل في المقامة الثامنة.

(١) أبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب عم النبي ووالد علي تولى أمر النبي وكفله بعد وفاة أمه أمنة وجده عبد المطلب. قيل إنه ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة وتوفي الثمانين من عمره. كان من سادات قومه. (المنجد).

(٢) ثَمَالُ اليتامى: غياثهم الذي يقوم بأمرهم، فيطعمهم ويسقيهم الخ...

وقوله أيضًا: [من السريع]

يا قوم كم من عاتق عانسٍ ممدوحة الأوصاف في الأنديه
قتلتُها لا أتقي وارثا يطلب مني قودا أو ديه^(١)

يريد بالعاتق العانس: الخمر، وبقتلها: مزجها، كما قال حسان: [من الكامل]

إن التي عاطيتني فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تُقتل^(٢)

وأمثال ذلك كثيرة.

وعند علماء البيان: التخيل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم، كقوله تعالى:

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: الآية ٦٧]

والغرض منه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز^(٣)، وكذلك قوله ﷺ: «إنما نحن حَفَنَةٌ من حَفَنَاتِ رَبِّنَا» قال الزمخشري^(٤) ولا يُرى باب في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب.

وأما حُسن الابتداءات - قال: هذه تسمية ابن المعتز، وأراد بها ابتداءات القصائد، وفرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه بيت أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو مُعْظَم مراده؛ والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره لِيَبَيِّنَ كلامه على نَسَق واحد ذل عليه من أول عِلْم بها مقصده، إما في خطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: أكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت حيوانًا على شكل الإنسان، فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان في بطون الأنعام.

وكقول أبي الطيب في الصلح الذي وقع بين كافور وبين ابن مولاه: [من

الخفيف]

حَسَم الصلح ما أَشْتَهَتْهُ الأعادي وأذاعته ألسُنُ الحساد

وأمثال ذلك.

(١) القود: الثأر.

(٢) يقصد بها الخمر، وهو يريد بها غير ممزوجة بالماء.

(٣) بل إنه مجاز وليس حقيقة، إذ ليس لله قبضة هي الأرض.

(٤) مرت بنا ترجمة الزمخشري. وقد قلنا إنه بحث هذا الموضوع في الكشف، وأسرار البلاغة الخ.

قال: وينبغي أن لا يبتدىء بشيء يُتَطَيَّر منه، كقول ذي الرِّمَّة: [من البسيط]

* ما بال عينك منه الماء ينسكب *

وقول البحترى: [من الطويل]

* لك الويل من ليل تقاصر آخره *

وكقول المتنبي: [من الطويل]

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنيا أن يكنَّ أمانيا

وكقوله: [من الوافر]

مُلِكُ القَطْرِ أعطشها رُبوعاً وإلا فاسقها السَّم النقيعا

قال: وينبغي أن يراعى في الابتداءات ما يقرب من المعنى إذا لم تتأت له براعة الاستهلال وتسهيل اللفظ وعذوبته وسلاسة ألفاظه، وقيل: إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قول النابغة: [من الطويل]

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومن أحسن ما ابتدأ به مولد قول إسحق بن إبراهيم الموصلي^(١): [من الخفيف]

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدىء في المديح بمثل قول أبزون العُماني: [من الطويل]

على منبر العلياء جذك يخطب وللبلدة العذراء سيفك يخطب

وقول المتنبي: [من الطويل]

عدوك مذموم بكل لسان وإن كان من أعدائك القمّران

(١) إسحق بن إبراهيم الموصلي: (١٥ - ٢٣٥ هـ). كان من ندماء الخلفاء، وكان عالماً باللغة والأشعار وأخيار الشعراء، وأيام الناس، وكان له يد في الفقه وعلم الكلام ولكنه اشتهر بالغناء. وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه منهم الرشيد والمأمون والمعتصم. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٥).

وقول التِّفَاشِي^(١): [من البسيط]

ما هَزَّ عِطْفِيهِ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ مِثْلَ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

وفي التشبيب كقول أبي تمام: [من الطويل]

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبٍ أُذِلَّتْ مَصُونَاتُ الدُمُوعِ السَّوَائِبِ

وفي النسيب كقول المتنبي: [من الخفيف]

أَتَرَاهَا لَكثْرَةِ الْعَشَّاقِ تَحَسَّبَ الدَّمَاعَ خِلْقَةً فِي الْمَاقِي

وفي المَرَاثِي كقول أبي تمام: [من الطويل]

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لَعَيْنٍ لَمْ يَفْضِ مَاؤُهَا عَذْرُ

وأما براعة التخليص - فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجاً بما بعده من مدح وغيره غير منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد: [من الطويل]

أَجِدُّكَ هَلْ تَدْرِيْنَ أَنَّ رَبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دَجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ تُنْشَرُ

نُصِبْتُ لَهَا حَتَّى تَحَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةٍ يَحْيِي حِينَ يُذَكَّرُ جَعْفَرُ

وكقول المتنبي: [من الطويل]

نَوَدَعَهُمُ وَالْبَيْنَ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبٍ فَيَلْقَى

وأما براعة الطلب - قال: وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح، كقول أمية بن أبي الصلت^(٢): [من الوافر]

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَمِيَّتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرَّضِهِ الثَّنَاءُ

(١) التِّفَاشِي: (٥٨٠ - ٦٥١ هـ = ١١٨٤ - ١٢٥٣) نسبة إلى تيفاش من قرى قفصة في إفريقيا. تعلم في مصر وولي القضاء في مسقط رأسه تيفاشة ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها. كان عالماً بالحجارة الكريمة والعلم والأدب. له نزهة الألباب. (الأعلام).

(٢) أمية بن أبي الصلت: (٥ هـ = ٦٢٦ م) هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي. شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف متعبد يلبس المسوح ويحرم على نفسه الخمر والأوثان. شهد للنبي ولم يسلم. (الأعلام، للزركلي).

وكقول المتنبي: [من الطويل]

وفي النفس حاجاتٌ وفيك فُطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطاب
وأما براعة المقطع - فهو أن يكون آخرُ الكلام الذي يقف عليه المترسل أو
الخطيب أو الشاعر مستعدبًا حسنًا، لتبقى لذته في الأسماع، كقول أبي تمام: [من
البسيط]

أبقت بني الأصفر المصفر كآسهم صُفِرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجه العرب

وكقول المتنبي: [من الوافر]

وأعطيت الذي لم يُعطَ خلقٌ عليك صلاة ربك والسلام

وكقول الغزي^(١): [من الطويل]

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل

وأما السؤال والجواب - فهو كقول أبي فراس: [من مجزوء الخفيف]

لك جسمي تُعِلُّه فدمي لِمَ تَطْلُهُ؟

قال إن كنتُ مالِكًا فلي الأمر كله

وأمثال ذلك. وقد أوردنا منه في باب الغزل ما فيه كفاية.

وأما صحة الأقسام - فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذي هو أخذ فيه
بعيثة لا يغادر منه شيئًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرؤم: الآية
٢٤]، وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع في المطر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: الآية
١٩١]، فلم يبق قسمًا من أقسام الهيئات حتى أتى به.

وقوله تعالى: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [٤٩] أو يُرْوِجُهُمْ
ذَكَرًا وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: الآيتان ٤٩، ٥٠]، ومن ذلك قوله ﷺ:
«ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»
ولا رابع لهذه الأقسام.

ووقف أعرابي على حَلَقَةِ الحسن البصريّ فقال: رحم الله من تصدّق من فَضل،
أو واسى من كَفاف، أو أثر من قوت؛ فقال الحسن: ما ترك الأعرابي منكم أحدًا
حتى عمّه بالمسألة.

ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قولُ بشار: [من الطويل]
فراح فريق في الإسار ومِثْلُه قتيل ومِثْلُ لاذ بالبحر هاربه
وأصله قول عمرو بن الأهتم: [من الخفيف]
اشربا ما شربتما فهُذِلْ من قتيل وهارب وأسير
ومن جيد صحة الأقسام قولُ الحماسي: [من الطويل]
وهبها كشيء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيّبته المقابر
فاستوفى جميع أقسام المعدوم.

وقولُ أبي تَهَام في الأَفْشِين^(١) لَمَّا احترق بالنار: [من الكامل]
صَلَّى لها حيًّا وكان وَقودَها مِيتًا وَيَدْخلُها مع الفجار
ومن قديم ما في ذلك من الشعر قولُ زهير: [من الطويل]
وأعلم ما في اليوم والأَمْس قَبْلُه ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي
ومن النادر في صحة الأقسام قولُ عمر بن أبي ربيعة: [من الطويل]
تهيم إلى نُعم فلا الشَّمْلُ جامعٌ ولا الحبل موصول ولا أنت مُقْصِر
ولا قُرْبُ نُعم إن دنت لك نافعٌ ولا بُعْدُها يُسلي ولا أنت تصبر
وأما التوشيح - فهو أن يكون معنى الكلام يَدُلُّ على لفظٍ آخره، فيتنزل المعنى
منزلة الوِشاح، ويتنزل أولُ الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما
الوشاح.

(١) الأفشين: قائد جيوش المعتصم في حروبه ضد الروم، رمي بالكفر، ومات في السجن جوعًا
سنة ٨٤١ م. (المنجد).

وقال قُدامة: هو أن يكون في أوّل البيت معنى إذا عُلِمَ عُلِمَتْ منه قافية البيت بشرط أن يكون المعنى المقدّم بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، كقول الراعي الثُميري^(١): [من الوافر]

فإن وُزِنَ الحصى فوزنت قومي وجدت خصي ضريبتهم رزينا^(٢)

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفارقة برزاة الحصى، وعرف القافية والرويّ، عُلِمَ آخر البيت؛ ومن أمثله ما حكي عن عمر بن أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: [من المتقارب]

* تَشُطَّ غدا دار أحبابنا *

فقال له عبد الله:

* وَلَلدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أَبَعْدُ *

فقال له عمر: هكذا والله قلتُ، فقال له عبد الله: وهكذا يكون.

وأما الإيغال - فمعناه أن المتكلّم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت أستخرج سجعاً أو قافيةً تفيد معنى زائداً على معنى الكلام، وأصله من أوغل في السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة.

وفسره قُدامة بأن قال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها أفاد معنى زائداً على معنى البيت، كقول ذي الرُّمّة: [من الطويل]

قِفِ العيسَ في آثار ميةَ واسألِ رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل^(٣)

فتمّ كلامه قبل القافية، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائداً، وكذلك صنع في البيت الثاني فقال: [من الطويل]

أظنّ الذي يُجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل

(١) الراعي النميري: (٩٠ هـ = ٧٠٩ م)، هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري من فحول الشعراء. لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. فصل الفرزدق على جرير فهجاه هجاء مرّاً. (الأعلام، للزركلي).

(٢) ضريبتهم: سجيّتهم وطبيعتهم. يصفهم برجاجة الأحلام.

(٣) الرداء المسلسل: الثوب الرديء النسج.

فإنه تَمَّ كلامه بقوله: كتبذير الجمان، وأحتاج إلى القافية، فأتى بها تفيد معنى زائداً لو لم يؤت بها لم يحصل.

وحكي عن الأصمعي أنه سئل عن أشعر الناس فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيراً، وينقضي كلامه قبل القافية، فإن أحتاج إليها أفاد بها معنى، فقليل له: نحو من؟ فقال: نحو الفاتح لأبواب المعاني أمرى القيس حيث قال: [من الطويل]

كأن عيونَ الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثَقِّب^(١)

ونحو زهير حيث يقول: [من الطويل]

كأن فُتات العِهن في كلِّ منزل نزلن به حبُّ الفنا لم يحطِّم^(٢)

ومن أبلغ ما وقع في هذا الباب قولُ الخنساء: [من البسيط]

وإنَّ صخرًا لتأتَمَّ العُفاة به كأنه علَمٌ في رأسه نار^(٣)

ومنه قول ابن المعتز لابن طباطبا العلوي: [من المتقارب]

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمِّه المسلم

ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخرين قولُ الباخريزي^(٤): [من الكامل]

أنا في فؤادك فارم طُرفك نحوَه ترني فقلت لها وأين فؤادي

وقول آخر: [من البسيط]

تعجبت من ضنى جسمي فقلت لها على هواك فقلت عندي الخبر

وأما الإشارة - فهي أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها، وذكر لمحة تدل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿النجم: الآية ١٠﴾، ﴿فَفَشَّيْهِمْ مِنْ آلِئِمٍّ مَا غَشَّيْهِمْ﴾ [طه: الآية ٧٨].

(١) الجزعُ: الخرز اليماني. (٢) حب الفنا: حب العنب.

(٣) العُفاة: ج عاف، السائل، طالب الفضل أو الرزق.

(٤) الباخريزي: (٤٣٥ هـ - ١٠٤٤ م) أحمد بن الحسين، أديب وجيه، وهو من مفاخر باخرز. له شعر رقيق. (الأعلام، للزركلي).

وكقول أَمْرٍ القيس: [من الوافر]

فإن تَهْلِك شَنْوَةٌ أو تُبَدِّلْ فسيرى إنَّ في عَسَان خالاً^(١)
بعزهمو عَزَزَتْ وإن يَذِلُّوا فذلهمو أنالك ما أنالا

وكقوله أيضاً: [من الطويل]

فظلَّ لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في نعيم نحسه متغيَّب
وأما التذييل - وهو ضدَّ الإشارة - فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكَّد عند مَنْ فهمه، كقوله: [من المتقارب]

إذا ما عقدنا له ذمَّةً شددنا العِناج وعقد الكَرَب^(٢)
وقول آخر: [من الكامل]

ودَعَوْا نَزَالٍ فكنتُ أوَّل نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
ويقرب منه التكرار، كقول عبيد: [من مجزوء الكامل]

* هَلَّا سألت جمع كِنْدَةَ يوم ولَّوْا أين أيننا؟ *

وكقول آخر: [من المتقارب]

وكانت فزارَةُ تَصَلِّي بنا فأولى فزارَةُ أولى فزارا
وأما التردد - فهو أن تعلق لفظه في البيت بمعنى، ثم تردُّها فيه بعينها وتعلَّقها
بمعنى آخر، كما قال زهير: [من البسيط]

من يَلْقَ يوماً على عِلَّاته هَرِماً يلقي السماحة منه والندى خُلُقاً^(٣)
وكقول آخر: [من الطويل]

وأحفظ ما لي في الحقوق وإنه لَجَمُّ وإنَّ الدهر جَمُّ عجائبه

(١) شَنْوَةٌ: يريد أزد شنوءة. وشنوءة. كما يقول ياقوت في معجم البلدان مخلاف باليمن بينها وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً، تنسب إليها قبائل في الأزد يقال لهم أزد شنوءة. والنسبة إليهم شنائي وشنوي.

(٢) العِناج: حبل يشد في أسفل الدلو ثم يشد في العراقي.

(٣) هو هرم بن سنان، مدحه زهير لأنه سعى في الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكقول أبي نواس: [من البسيط]

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حَجَر مسته سراء

وأما التفويف - فهو مشتق من الثوب المفوف، وهو الذي فيه خطوط بيض، وهو في الصناعة عبارة عن إتيان المتكلم بمعانٍ شتى من المدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض، كلُّ فنٍّ في سبعة منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الوزن، وتكون في الجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة.

فمثال ما جاء منه في الجمل الطويلة قولُ النابغة الذبياني: [من الطويل]

فلله عيناً من رأى أهلَ قُبّةٍ أضرّ لمن عادى وأكثرَ نافعاً
وأعظمَ أحلاماً وأكبرَ سيّداً وأفضلَ مشفوعاً إليه وشافعاً

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قولُ أبي الوليد بن زيدون^(١): [من

البسيط]

تَهْ أَحْتَمِلْ، وَأَسْتَطِلْ أَصِيْرَ. وَعِزُّ أَهْنِ
وَوَلُّ أَقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمَعْ، وَمُرُّ أَطِيعِ

ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قولُ المتنبي: [من البسيط]

أَقْلَ أَنْلَ أَقْطِعْ أَخْمِلَ عَلَ سَلَ أَعِذْ
زِدْ هَشْ بَشْ تَفْضُلْ أَدِنْ سُرْ صِلْ

وأما التسهيم - فهو مأخوذ من البرد المسهم، وهو المخطط الذي لا يتفاوت ولا يختلف، ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئاً واحداً، ويُشرك بينهما بالتسوية، والفرق بينهما أن التوشيح لا يدلُّك أوله إلا على القافية فحسب، والتسهيم تارة يدلُّ على عجز البيت، وتارة على ما دون العجز.

وتعريفه أن يتقدّم من الكلام ما يدلُّ على ما يتأخّر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كآيات جنّوب أخت عمرو ذي الكلب^(٢)، فإن الحدّاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون

(١) ابن زيدون: (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٤ - ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي وزير وكاتب وشاعر من أهل قرطبة. اتصل بالمعتضد صاحب اشيلية ووزر له وتغزل بولادة بنت المستكفي. (الأعلام، للزركلي).

(٢) جنوب أخت عمرو ذي الكلب.

أَنْ مَعْنَى قَوْلِهَا: [مَنْ الْمُتَقَارِبُ]

* فَأَقْسَمَ يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهَكَ *

يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ تَمَامَهُ:

* إِذَنْ نَبَّهَكَ مِنْكَ دَاءٌ عُضَالًا *

دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْقَوَافِي، كَمَا لَوْ قَالَتْ مَكَانَ «دَاءٌ عُضَالًا»: لَيْشًا غَضُوبًا، أَوْ أَفْعَى قَتُولًا، أَوْ سَمًا وَحِيًا، أَوْ مَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ، لِأَنَّ الدَّاءَ الْعُضَالُ أَبْلَغُ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَأَشَدُّ، إِذْ كُلُّ مِنْهَا يُمْكِنُ مَغَالَبَتُهُ أَوْ التَّوَقُّيُّ مِنْهُ، وَالِدَاءُ الْعُضَالُ لَا دَوَاءَ لَهُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْرَفُ بِالْمَعْنَى.

وَأَمَّا مَا يَدُلُّ فِيهِ الْأَوَّلُ عَلَى الثَّانِي دِلَالَةً لَفْظِيَّةً فَهُوَ قَوْلُهَا بَعْدَ: [مَنْ

الْمُتَقَارِبُ]

إِذَنْ نَبَّهَكَ لَيْتَ عَرِيْسَةٍ مُفِيْتًا مُفِيْدًا نَفُوسًا وَمَالًا^(١)

فَإِنْ الْحَاقِقُ بِصَنَاعَةِ الْكَلَامِ إِذَا سَمِعَ قَوْلَهَا: «مُفِيْتًا مُفِيْدًا» تَحَقَّقَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ

يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ تَمَامَهُ: «نَفُوسًا وَمَالًا»؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُهَا: [مَنْ الْمُتَقَارِبُ]

* فَكُنْتُ النَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ *

يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَهُ:

* وَكُنْتُ دَجَى اللَّيْلِ فِيهِ الْهَلَالَا *

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ: [مَنْ الْوَافِرُ]

* وَإِذَا حَارِبُوا أَذَلُّوا عَزِيْزَا *

يَحْكُمُ السَّامِعُ بِأَنَّ تَمَامَهُ:

* وَإِذَا سَالَمُوا أَعَزَّوْا ذَلِيْلَا *

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: [مَنْ الطَّوِيلُ]

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جَرَمٍ وَحَرَمَتْ بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ الْلِقَاءِ كَلَامِي

* فَلَيْسَ الَّذِي حَلَلْتَهُ بِمَحْلَلٍ *

(١) يَعْنِي مُفِيْتًا نَفُوسًا وَمُفِيْدًا مَالًا.

يعرف السامع أن تمامه:

* وليس الذي حَرَمَتِه بحرام *

وأما الاستخدام - فهو أن يَأْتِيَ المتكَلِّم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين يستخدم كل لفظة منهما في معنى من معني تلك اللفظة المتقدمة، وربما ألتبس الاستخدام بالتورية من كون كل واحد من البابين مفتقراً إلى لفظة لها معنيان، والفرق بينهما أن التورية أَسْتَعْمَلُ أحد المعنيين من اللفظة، وإهمال الآخر، والاستخدام أَسْتَعْمَلَهُمَا معاً، ومن أمثلته قولُ البحري: [من الكامل]

فَسَقَى الغُضَى والسَّاكِيه وإن همو شَبَّوه بين جوانح وقلوب

فإن لفظة الغضى محتملة للموضع والشجر، والسُّقيا صالحة لهما، فلما قال: «والسَّاكِيه» أَسْتَعْمَلُ أحد معني اللفظ، وهو دلالة بالقرينة على الموضع، ولما قال: «شَبَّوه» أَسْتَعْمَلُ المعنى الآخر، وهو دلالة بالقرينة على الشجر؛ ومن ذلك قولُ الشاعر^(١): [من الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غَضَابَا

أراد بالسماء الغَيْثَ، وبضميره النَّبْتَ.

وأما العكس والتبديل - فهو أن يقدِّم في الكلام أحد جزئيه ثم يؤخِّر؛ ويقعُ على وجوه:

منها أن يقع بين طرفي الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، سادات العادات.

ومنها أن يقع بين متعلَّقَي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الرُّوم: الآية ١٩] ومنه بيت الحماسة: [من الوافر]

فَرَدَّ شعورَهـن السود بيضاً ورَدَّ وجوههـن البيض سوداً

ومنها أن يقع بين كلمتين في طرفي جملتين، كقوله تعالى: ﴿هَـنَّ لِيَاسٌ لَّكُمَّ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

(١) الشاعر هو جرير بن عطية الخطفي. أحد أركان المثلث الأموي أي الأخطل والفرزدق وجرير.

وقول أبي الطيّب: [من الطويل]

ولا مجدّد في الدنيا لمن قَلَّ ماله ولا مالٌ في الدنيا لمن قَلَّ مجده
وأما الرجوع - فهو أن يعود المتكلّم على كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول
زهير: [من البسيط]

قف بالديار التي لم يَعْفُها القِدَمُ بلى وغيّرها الأرواحُ والديَمُ^(١)
كأنه لمّا وقف على الديار عرّته رَوْعة ذَهَل بها عن رؤية ما حصل لها من التغيّر
فقال: «لم يَعْفُها القِدَمُ» ثمّ ثاب إليه عقله وتحقّق ما هي عليه من الدروس، فقال: بل
عَفَتْ وغيّرها الأرواح والديَمُ.

ومنه بيت الحماسة: [من الطويل]

أليس قليلاً نظرةً إن نظرتُها إليك وكَلّا ليس منك قليل^(٢)
وأما التغيّر - فهو أن يغيّر المتكلّم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمه أو
يذمّوه فيمدّحه.

فمن ذلك قولُ أبي تمام يغيّر جميع الناس في تفضيل التكرّم على الكرم: [من
الخفيف]

قد بَلَوْنَا أبا سَعِيدٍ حديثاً وبَلَوْنَا أبا سَعِيدٍ قديماً
فوردناه سائِحاً وقَلِيباً ورَعَيْنَاهُ بارِضاً وجَمِيماً^(٣)
فعلّمنا أن ليس إلا بشيئٍ الذئب ففس صار الكريم يدعى كريماً
وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة: [من البسيط]

لا يُتَعَبُ النَّائِلُ الْمَبْذُولُ هِمَّتَهُ وكيف يُتَعَبُ عَيْنُ النَّائِلِ النَّظَرَ

(١) الأرواح: مفردة ريح؛ الديم: مفردة ديمة، أي الغيمة الممطرة. عفت الديار: درست وأمحت معالمها.

(٢) هذا البيت ليزيد بن الطثرية (١٢٦ هـ - ٧٤٤ م) وهو يزيد بن سلمة بن سمرة. شاعر مطبوع من شعراء بني أمية مقدم عندهم نسب إلى أمه من بني طثر. صاحب غزل وظرف وشجاعة. (الأعلام).

(٣) البارض: أول ما يظهر في النبات؛ والجميم: النبات الكثير، أو النبات المنتشر والناهض منه.

ومنه قول ابن الرومي في تفضيل القلم على السيف: [من البسيط]

إن يخدمُ القلمُ السيفُ الذي خَضَعَتْ له الرقابُ ودانت خوْفُه الأُمم
فالموتُ والموتُ لا شيءٌ يعادله ما زال يَتَبَعُ ما يَجْري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَتْ أن السيوف لها مذ أُرهِفَتْ خَدَم

وغيره المتنبي على الطريق المألوف فقال: [من البسيط]

حتى رجعتُ وأقلامي قوائِلُ لي المجدد للسيف ليس المجدد للقلم
اكتب بها أبداً قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخَدَم

وأما الطاعة والعصيان - فإنه قال: هذا النوع أستنبطه أبو العلاء المَعْرِي عند نظره في شعر أبي الطيب، وسمّاه بهذه التسمية، وقال: هو أن يريد المتكلم معنى من المعاني التي للبديع فيستعصي عليه لتعذر دخوله في الوزن الذي هو آخذ فيه فيأتي موضعه بكلام غيره يتضمّن معنى كلامه، ويقوم به وزنه، ويحصل به معنى من البديع غير الذي قصّده، كقول المتنبي: [من الطويل]

يردُّ يدًا عن ثوبها وهو قادر ويعصِي الهوى في طيفها وهو راقد

فإنه أراد أن يقول: يردُّ يدًا عن ثوبها وهو مستيقظ، حتى إذا قال: [من الطويل]

* ويعصِي الهوى في طيفها وهو راقد *

يكون في البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأتى بقادر في موضع مستيقظ لتضمّنه معناه، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظاً وزيادة، فقد عصاه في البيت الطباق وأطاعه الجناس بين قادر وراقد، وهو جناس العكس.

وأنكر ابن الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان، لأنه كان يمكنه أن يقول عوض قادر: ساهر، وإنما المتنبي قصد أن يكون في بيته طباق معنوي، لأن القادر ساهر وزيادة، إذ ليس كلّ ساهر قادراً، وأن يكون فيه جناس العكس.

وقال: إن شاهد الطاعة والعصيان عنده أن تعصيه إقامة الوزن مع إظهار مراده، فتطيعه لفظة من البديع يتم بها المعنى وتزيده حسناً، كقول عوف بن مُحَلَّم^(١):

(١) عوف بن محلم: (٤٥ هـ = ٥٨٠ م)، هو عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان. كان مطاعاً في قومه قوياً في عصبته. أجاز رجلاً يطلبه عمرو بن هند، وضربت له قبة في عكاظ. =

[من السريع]

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلْغَتَهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ
فإنه أراد أن يقول: إن الثمانين قد أحوجت سمعي إلى ترجمان، فعصاه الوزن
وأطاعه لفظة من البديع وهي التتميم، فزادته حُسْنًا وَكَمَلَتْ مراده، وكلَّ التتميم من
هذا النوع.

وأما التسميط - فهو أن يجعل المتكلم مقاطيعَ أجزاء البيت أو القرينة على سجع
يخالفُ قافية البيت أو آخر القرينة، كقول مروان بن أبي حفصة: [من الطويل]
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
فإن أجزاء البيت مسجّعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط،
والأجزاء المسجّعة بمنزلة حبّ العقد.

وأما التشطير - فهو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يُصرّع كلَّ شطر من
الشطرين، ولكنه يأتي بكلَّ شطر من بيته مخالفًا لقافية الآخر، كقول مسلم بن الوليد:
[من البسيط]

مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمٍ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلَ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
وكقول أبي تمام: [من البسيط]

تَدْبِيرُ مَعْتَصِمٍ بِاللّهِ مَنْتَقِمٍ لِلّهِ مَرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مَرْتَغِبٍ
وأما التطرّيز - فهو أن يبتدئ الشاعر بذكر جُمَلٍ من الذوات غير مفصّلة ثم
يُخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب تعداد جُمَل تلك الذوات تعداد
تكرار واتحاد، لا تعداد تغاير، كقول ابن الرومي: [من الوافر]

أَمُورِكُمُو بَنِي خَاقَانَ عِنْدِي عُجَابٌ فِي عُجَابٍ فِي عُجَابٍ
قُرُونٌ فِي رُؤُوسٍ فِي وَجُوهِ صِلَابٌ فِي صِلَابٍ فِي صِلَابٍ
وكقوله: [من الوافر]

وَتَسْقِينِي وَتَشْرَبُ مِنْ رَحِيقٍ خَلِيقٍ أَنْ يُشَبَّهَ بِالْخَلُوقِ
كَأَنَّ الْكَأْسَ فِي يَدِهَا وَفِيهَا عَقِيقٌ فِي عَقِيقٍ فِي عَقِيقٍ

وأما التوشيع - فهو مشتق من الوشيعه، وهي الطريقة في البُزد، وكأنَّ الشاعر أهمل البيت كله إلا آخره، فأتى فيه بطريقة تُعدُّ من المحاسن؛ وهو عند أهل هذه الصناعة أن يأتي المتكلم أو الشاعر بأسم مثني في حشو العَجَز، ثم يأتي بعده باسمين مفردين هما عينُ ذلك المثني، يكون الآخرُ منهما قافيةً بيته، أو سجعاً كلامه كأنهما تفسيرٌ لما ثناه، كقول النبي ﷺ: «يُشيب ابن آدم وتُشيب فيه خصلتان: الحرصُ وطولُ الأمل».

ومن أمثلة ذلك في النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

أُمسِي وأصبح من تذكاركم وصباً	يرثي لي المُشْفِقان الأهلُ والولد
قد خَدَدَ الدمعُ خذي من تذكركم	واعتادني المُضْنيان الوجدُ والكَمَد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم	وخانني المُسْعِدان الصبرُ والجَلَد
لم يَبَقْ غيرُ خفيّ الرُوح في جسدي	فَدَى لك الباقيان الرُوحُ والجَسَد

قال ابن أبي الإصبع: وما بما قلته في هذا الباب من بأس، وهو: [من البسيط]

بي محنتان مُلامٌ في هوى بهما	رثى لي القاسيان الحُبُّ والحَجَر
لولا الشفيقان من أمنيّة وأسا	أودى بي المُرديان الشوقُ والفِكر ^(١)

قال: ويحسن أن يسمي ما في بيته مطرّف التوشيع، إذ وقع المثني في أول كل بيت وآخره.

وأما الإغراق - وهو فوق المبالغة ودون الغلو، ومن أمثلته قولُ ابن المعتز: [من الطويل]

صَبَبْنَا عليها ظالمين سَيَاطِنَا فطارت بها أيدٍ سِرَاعٍ وأرجُل

فموضع الإغراق من البيت قوله: ظالمين، يعني أنها أَسْتَفْرَعَتْ جُهْدَهَا في العَدُو فما ضربناها إلا ظلمًا، فمن أجل ذلك خرجت من الوَحْشِيَّة إلى الطَّيْرِيَّة؛ ولو لم يقل: «ظالمين» لما حُسِّنَ قوله: «فطارت» ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها حقيقة، وقد عُدَّ من الإغراق لآ المبالغة قولُ امرئ القيس: [من الطويل]

تَنَوَّرْتُهَا من أَذْرِعَاتِ وَأَهْلُهَا بيشرب أدنى دارها نظرٌ عالي^(٢)

(١) الأس: جمع أسوة، أي القدوة.

(٢) أذرعَات: بلد بأرض الشام يجاور البلقاء وعمان في شرقي الأردن، ينسب إليه الخمر.

وأما الغُلُو - فمنهم من يجعله هو والإغراق شيئًا واحدًا، ومن شواهد قول مُهلٍ: [من الوافر]

فلولا الريحُ أسمعَ من بحَجَرٍ صليلُ البيضِ تُقرَعُ بالذُّكور^(١)

ومثله قولُ المتنبي في وصف الأسد: [من الكامل]

وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةُ شَارِبًا بَلَغَ الْفِرَاتَ زَيْبُهُ وَالنَّيْلُ^(٢)

قالوا: ومن أمثلة الغُلُو قولُ النمر بن تَوَلَّب^(٣) في صفة السيف: [من البسيط]

تَظَلَّ تَحْفِرَ عَنْهُ إِنْ ضَرَبَتْ بِهِ بَعْدَ الذَّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ وَالْهَادِي

وأما القسم - فهو أن يريد الشاعر الحلف على شيء فيأتي في الحلف بما يكون مدحًا له وما يكسبه فخراً، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً، أو جارياً مجرى التغزل والترقق: [من الكامل]

فمِثَالُ الْأَوَّلِ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ الْأَشْثَرِ النُّخَعِيِّ

بَقِيْتُ وَفَرِي وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَا

وقد تقدّم الاستشهاد بهما في النظم، فإنها تَضَمَّنَتْ فخراً له، ووعيداً لغيره؛ وكقول أبي عليّ البصير يعرض بعليّ بن الجهم^(٤): [من الكامل]

أَكْذَبْتُ أَحْسَنَ مَا يَظُنُّ مُؤَمِّلِي وَعَدَمْتُ مَا شَادَتْهُ لِي أَسْلَافِي

وَعَدَمْتُ عَادَاتِي الَّتِي عُودَتْهَا قَدَمًا مِنَ الْإِخْلَافِ وَالْإِتْلَافِ

وَعُصْضْتُ مِنْ نَارِي لِيَخْفَى ضَوْءُهَا وَقَرَيْتُ عَذْرًا كَاذِبًا أَضْيَافِي

إِنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى عَلِيٍّ غَارَةً تَضْحِي قَدَى فِي أَعْيُنِ الْأَشْرَافِ

(١) حَجَر: مدينة اليمامة. (ياقوت، معجم البلدان). البيض: الخوذ. سميت بذلك لأنها تشبه ببيض النعامة. الذكور: السيوف. والذكر من الحديد أشده وأقساه.

(٢) الورد: الأسد الذي يشبه لونه لون الورد.

(٣) النمر بن تولب: (١٤ هـ = ٦٣٥ م)، هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي. شاعر مخضرم معمرًا. لم يمدح ولم يهج أحداً. قابل النبي وحمل كتاباً منه لقومه. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٤) علي بن الجهم (٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م). أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر، شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد عاصر أبا تمام وخص بالمتوكل العباسي ثم نفاه إلى خراسان، ثم انتقل إلى حلب، وغزا فجرح ومات. له ديوان مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وقد يُقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحاً، كقول القائل: [من الكامل]
 إن كان لي أملٌ سواك أعده فكفرتُ نعمتك التي لا تُكفر
 ومما جاء من القسم في النسيب قولُ الشاعر: [من الطويل]
 فإن لم تكن عندي كعيني ومسمعي فلا نظرتُ عيني ولا سمعتُ أذني
 ومما جاء في الغزل قولُ الآخر: [من البسيط]

لا والذي سلَّ من جفنيه سيفَ ردَى قُدت له من عذاريه حمائله
 ما صارمت مقلتي دمعاً ولا وصلت غمضاً ولا سالمث قلبي بلابله
 وأما الاستدراك - فهو على قسمين: قسم يتقدّم الاستدراك فيه تقريرٌ لما أخبر به
 المتكلّم وتوكيدٌ، وقسم لا يتقدّمه ذلك؛ فمن أمثلة الأول قولُ القائل: [من الوافر]
 وإخوانٍ تخذلّهمو دروعاً فكانوها ولكن للأعادي
 وخلتهمو سهاماً صائباتٍ فكانوها ولكن في فؤادي
 وقالوا قد صفت منا قلوبٌ لقد صدقوا ولكن من ودادي
 وقولُ الأرجاني: [من الزمل]

غالطتني إذ كست جسمي ضئى كُسوةً أعرت من الجلد العظاما
 ثم قالت أنت عندي في الهوى مثلَ عيني صدقت لكن سقاما
 وأما القسم الثاني الذي لا يتقدّم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير:
 [من الطويل]

أخو ثقة لا يهلك الخمرُ ماله ولكنه قد يهلك المالُ نائله
 وأما المؤتلفة والمختلفة - فهو أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين فيأتي
 بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة لا
 ينقص بها الآخر، فيأتي الترجيح بمعان تخالف التسوية، كقول الخنساء في
 أخيها وأبيها - وراعت حقّ الوالد بما لم ينقص الولد: [من الكامل]

جأزى أباه فأقبلا وهما يتعاقبان مُلاءة الحَضِر^(١)

وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَا إِلَى وَكْرٍ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ لُزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ^(١)
وَعَلَا هَتَافُ النَّاسِ: أَيُّهُمَا قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ: لَا أُدْرِي
بَرَقَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَهُ وَالِدُهُ وَمَضَى عَلَى غُلُوثِهِ يَجْرِي
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكَبَرِ

وأول من سبق إلى هذا المعنى زهير حيث قال: [من البسيط]

هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَأُوهُمَا عَلَى تَكَالُيفِهِ فَمِثْلُهُ لِحَقَّا
أَوْ يَسْبِقْهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَلٍ فَمِثْلُ مَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ سَبَقَا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس: [من المنسرح]

ثُمَّ جَرَى الْفَضْلُ فَاثْنَى قَدَمًا دُونَ مَدَاهِ بَغِيرِ تَرْهِيْقٍ
فَقِيلَ رَأْسًا سَهْمًا تُرَادُ بِهِ الْـ غَايَةُ وَالنَّضْلُ سَابِقُ الْفُوقِ^(٢)

وأما التفريق المفرد - فهو كقول الشاعر: [من الخفيف]

مَا نَوَالَ الْغَمَامُ يَوْمَ رُبَيْعٍ كَنَوَالَ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءٍ
فَنَوَالَ الْأَمِيرَ بَدْرَةً عَيْنٍ وَنَوَالَ الْغَمَامَ قَطْرَةً مَاءٍ

وأما الجمع مع التفريق - فهو أن يشبه شيئين بشيء ثم يفرق بين وجهي الاشتباه، كقول الشاعر: [من المتقارب]

فَوَجْهُكَ كَالنَّارِ فِي ضَوْئِهَا وَقَلْبِي كَالنَّارِ فِي حَرِّهَا
وَأَمَّا التَّقْسِيمُ الْمَفْرَدُ - فهو أن يذكّر قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يضم إلى كل واحد من الأقسام ما يليق به، كقول ربيعة الرقي^(٣): [من الطويل]

يَزِيدُ سَلِيمٌ سَالِمُ الْمَالِ وَالْفَتَى فَتَى الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مَسَالِمِ

(١) العذر: جمع عذار، وهو المفرق أو الشعر الذي يحاذي الأذن، ما سال من اللجام على خد الفرس.

(٢) الفوق: جمعه أفواق، موضع الوتر من السهم.

(٣) ربيعة الرقي: (١٩٨ هـ = ٨١٣ م)، هو ربيعة بن ثابت الأسدي. شاعر غزل مقدم، رغم أنه كان ضريرًا مدح خلفاء بني العباس المهدي والرشيد. ولد ونشأ في الرقة على الفرات وإليها انتسب. (الزركلي، الأعلام).

لَشْتَان ما بين اليزيديين في الندى يَزِيد سُلَيْم والأَعْرُ بن حاتم
 فهمُ الفتى الأزدي إِتلافُ ماله وهمُ الفتى القيسي جمعُ الدراهم
 فلا يَحْسَب التمتام أني هجوته ولكنني فَضَّلْتُ أهل المكارم
 وكقول ابن خيوس: [من الطويل]
 ثمانية لم تفترق إذ جمعتها فلا أَفترقت ما دَبَّ عن ناظر شَفَر
 يقيئُك والتقوى، وَجُودُك والغنى ولفظك والمعنى، وسيفك والنصر
 وقول آخر: [من الطويل]

لملتَمِسي الحاجات جمعُ ببابه فهذا له فنٌ وهذا له فنٌ
 فللخامل العليا، وللمعديم الغنى وللمذنب الرُحْمى، وللخائف الأمن
 ويجوز أن يُعَدَّ هذا من الجمع مع التقسيم.

وأما الجمع مع التقسيم - فهو أن يجمع أمورًا كثيرة تحت حُكم، ثم يقسّم بعد ذلك، أو يقسّم ثم يجمع، مثال الأول قول المتنبي: [من البسيط]
 حتى أقام على أرباض خَرْشَنة تَشَقَّى به الروم والصُّلبانُ والبِيعُ
 لِلسَّبِي ما نَكحوا، والقتل ما وَلدوا والنهب ما جمعوا، والنار ما زَرَعوا
 فجمعَ في البيت الأول أرض العدو وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم في البيت الثاني.

ومثال الثاني قول حسان: [من البسيط]

قوم إذا حاربوا ضَرَبُوا عدوهمو أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعهم نَفَعُوا
 سَجِيَّةُ تلك منهم غيرُ مُحَدَّثة إنَّ الحوادث فاعلم شرُّها البِدَعُ
 وأما التزاوج - فهو أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، كقول البُحْتُري:
 [من الطويل]

إذا ما نَهَى الناهي وَلَجَّ بي الهوى أصاغت إلى الواشي فَلَجَّ بها الهجر
 وأما السلب والإيجاب - فهو أن يُوقِع الكلام على نفي شيء وإثباته في بيت واحد، كقوله: [من الطويل]

وَنُكِرَ إن شئنا على الناس قولهم ولا يُنْكِرُونَ القولَ حين نقول

وكقول الشَّمَاخ^(١): [من الطويل]

هَضِيمُ الحَشَى لَا يَمَلَأُ الكَفَّ خَصَرُهَا وَيُمَلَأُ مِنْهَا كُلُّ جَنْجِلٍ وَدُمْلُجٍ^(٢)

وأما الاطراد - فهو أن يطرُد الشاعر أسماءً متتالية يزيد الممدوح بها تعريفاً، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه تأتي منسوقة غير منقطعة من غير ظهور كلفة على النظم كاطراد الماء وأنسجامة، وذلك كقول الأعشى: [من الطويل]

أَقِيسُ بَنَ مَسْعُودٍ بَنِ قَيْسٍ بَنِ خَالِدٍ وَأَنْتَ الَّذِي تَرْجُو جِبَاءَكَ وَائِلُ

وكقول دُرَيْدٍ^(٣): [من الطويل]

قَتَلْنَا بَعْبِدَ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذَوَابَ بَنِ أَسْمَاءِ بَنِ زَيْدِ بَنِ قَارِبِ

وهذا أحسن من الأول، لأطراد الأسماء في عَجَز البيت.

وقال أبْنُ أَبِي الإصْبَعِ: وقد أَرَبَى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال: [من الخفيف]

مَنْ يَكُنْ رَامَ حَاجَةٍ بَعُدَتْ عِنْدَهُ وَأَعِثَّ عَلَيْهِ كُلُّ الْعِيَاءِ

فَلَهَا أَحْمَدُ الْمُرْجِيُّ ابْنُ يَحْيَى بْنِ مُعَاذِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ رَجَاءِ

لو لم يقع فيه الفصل بين الأسماء بلفظة المرجى.

ومنه ما كتب الشيخ مجد الدين بَنُ الظَّهَيْرِ الحنفي على إجازة: [من مجزوء الرجز]

أَجَازَ مَا قَدْ سَأَلُوا بِشَرَطِ أَهْلِ السُّنْدِ

مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ عَمَرَ بْنِ أَحْمَدَ

فلم يفصل بين الأسماء في البيت بلفظة أجنبيّة.

وأما التجريد - فهو أن ينتزع الشاعر أو المتكلم من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه؛ وهو أقسام: منها نحو قولهم: لي من

(١) الشماخ: (مرت ترجمته).

(٢) الجَنْجِلُ: الخُلخال. الدُمْلُج: المعضد من الحلي.

(٣) دريد بن الصمة: (٨ هـ = ٦٣٠ م) دريد بن الصمة الجشمي البكري من هوازن. فارس شجاع وشاعر معمر جاهلي. وأدرك الإسلام ولم يسلم قتل في غزوة حنين. والصمة لقب والده. (الزركلي، الأعلام).

فلان صديقٌ حميم، أي: بَلَغَ من الصداقة حدًّا صحَّ معه أن يُستخلص منه صديقٌ آخر.

ومنها نحو قولهم: لئن سألتَ لتَسألَنَ به البحرَ، ومنه قولُ الشاعر: [من الطويل]

وشَوْهَاءٌ تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلثمٍ مثلي الفَنيق المُرَحَّل^(١)

أي: تعدو بي ومعِي من أستعدادي للحرب لايسُ لأمة.

ومنها نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٢٨] لأن جهنم - أعاذنا الله منها - هي دار الخلد، لكن أنترع منها مثلها وجعل فيها مُعدًّا للكفار تهويلاً لأمرها؛ ومنها نحو قولِ الحماسي: [من الكامل]

فلئن بقيتُ لأرحلنَ بَعَزَوةً نحو الغنائم أو يموتَ كريم

وعليه قراءة من قرأ: ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرَّحْمَن: الآية ٣٧] بالرفع، بمعنى فحصلت سماءُ وَرْدَةٍ، وقيل: تقدير الأول أو يموتُ مني كريم، والثاني: فكانت منها وَرْدَةٌ كالدَّهَانِ، وفيه نظر.

ومنها نحو قوله: [من المنسرح]

يا خيرَ مَنْ يَرْكَبُ المِطْيَ ولا يَشْرَبُ كأساً بكفَ مَنْ بِخِلا

ونحو قولِ الآخر: [من البسيط]

إن تَلَقَّنِي - لا تَرَى غيري يناظره - تَنَسَّ السلاحَ وتَعْرِفُ جِبْهةَ الأسد

ومنها مخاطبة الإنسان غيره وهو يريد نفسه، كقول الأعشى: [من البسيط]

ودَّعْ هُرَيْرَةً إنَّ الرُّكْبَ مرتجِلٌ وهل تُطِيقُ وداعاً أيها الرجل

وقول المتنبي: [من البسيط]

لا خيلَ عندك تُهْدِيها ولا مالٌ فليُسْعِدِ الثُّطُقُ إن لم تسعد الحال

(١) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي ولا يركب لكرامته. مستلثم: لابس اللأمة أي الدرع.

ومنه قول الحَيَّصَ بَيَّصَ^(١): [من الطويل]

إلام يراك المجد في زِيّ شاعر وقد نَحَلْتَ شوقاً فروع المنابر
كَتَمْتَ بصيت الشعر علماً وحكمة ببعضها ينقاد صعبُ المفاخر
أما وأبيك الخير إنك فارس الـ كلام ومُحيي الدّارسات الغواير

وأما التكميل - فهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من مدح أو غيره من فنون الكَلِم وأغراضه، ثم يَرى مدحَه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غيرَ كامل، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم مثلاً غيرَ كامل أو بالبأس دون الجَلَم، ومثال ذلك قولُ كعب بن سعد الغنوي^(٢): [من الطويل]

حَلِيمٌ إذا ما ألحلم زَيْنَ أهله مع الجَلَم في عين العدو مَهيب
قوله: «إذا ما ألحلم زَيْنَ أهله» احتراس لولاه لكان المدح مدخولاً، إذ بعضُ التغاضي قد يكون عن عَجْزٍ، وإنما يزين الجَلَمُ أهله إذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكون مدحه بالحلَم وحده غير كامل، لأنه إذا لم يُعرَف منه إلا الجَلَمُ طَمِع فيه عدوه فقال: «في عين العدو مَهيب»؛ ومنه قول السَّمِوءل بن عادِياء: [من الطويل]

وما مات منّا سيّد في فراشه ولا طَلّ منّا حيث كان قتيل
لأن صدر البيت وإن تَضَمَّن وصفهم بالإقدام والصبر ربّما أوهَم العَجْزَ لأن قتلَ الجميع يدلّ على الوهن والقِلّة فكملة بأخذهم للثأر، وكَمَلَ حسنه بقوله: «حيث كان» فإنه أبلغ في الشجاعة؛ ومن ذلك في النسب قولُ كُثَيِّر: [من الكامل]

لو أن عَزّة حاكمت شمس الضحى في الحسن عند مَوْفّق لَقَضَى لها
لأن قوله: «عند مَوْفّق» تكميل للمعنى، إذ ليس كلّ من يحاكمُ إليه مَوْفّقاً؛ ومنه قولُ المتنبي: [من الوافر]

أشدُّ من الرياح الهُوج بطشا وأسرعُ في الندى منها هُبُوبا

(١) الحَيَّصُ بَيَّصُ: (٥٧٤ هـ = ١١٧٩ م)، هو سعد بن محمد بن سعد بن الصفي التميمي. شاعر بغدادي نشأ فقيهاً وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي أمراء البادية ويتقلد سيفاً فلقب بأبي الفوارس. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) كعب بن سعد الغنوي: هو كعب بن ربيعة بن عمرو الغنوي (١٠ ق. هـ = ٦١٢ م) شاعر جاهلي حلو اللبابة أشهر ما له قصيدته في رثاء أخيه الذي قتل بذئ قار. مطلعها:
تقول ابنة العبسي قد شبت بعدنا وكل امرئ بعد الشباب يشيب

وأما المناسبة - فهي على ضربين: مناسبة في المعنى، ومناسبة في الألفاظ.

فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنى، ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ لِلْأَرْضِ فَخَرَزْنَاهُ بِهِ زُرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَفْسَهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: الآيتان ٢٦، ٢٧]، فقال تعالى في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: الآية ٢٦]، وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: الآية ٢٦]، وقال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الرعد: الآية ٤١] وقال بعد الموعظة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

ومن أمثلة المناسبة المعنوية قول المتنبي: [من الطويل]

على سابع مَوْجِ المنايا بنحره غداة كأنَّ الثُّبُلَ في صدره وبُل
فإنَّ بين لفظة السَّباحة ولفظتي المَوْجِ والثُّبُل تناسبا صار البيت به متلاحما؛
وقول أبي رَشِيق: [من الطويل]

أَصْحٌ وَأَقْوَى ما رويناه في الندى من الخَبَرِ المأثور منذ قديم
أحاديثُ تروِيها السيولُ عن الحيا عن البحر عن جُود الأمير تميم
فإنه وفَى المناسبةَ حقها في صحة العَنَنَةِ برواية السيول عن الحيا عن البحر،
وجعلَ الغاية فيها جُودَ الممدوح.

والمناسبة اللفظية: تَوْخِي الإتيان بكلمات مترنات، وهي على ضربين: تامة
وغير تامة.

فالتامة: أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة، فمن شواهد التامة قوله تعالى: ﴿تَٰٓتَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَتَىٰ يَنْعَمَ رَبِّكَ يَمَجُّونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: الآيات ١ - ٣] ومن الحديث النبوي - صلاة الله وسلامه على قائله - قول النبي ﷺ للحسن والحسين - رضي الله عنهما -: «أعيدُكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ولم يقل: «ملمة» وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة.

ومن شواهد الناقصة قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا».

ومما جَمع بين المناسبتين قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلْتَمُّ بِهَا شَعْنِي، وَتُصْلِحَ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعَ بِهَا شَاهِدِي، وَتَرْكِي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمَنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمَنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَوْنَ فِي الْقَضَاءِ، وَنُزْلَ الشَّهَدَاءِ، وَعَيْشَ السَّعْدَاءِ، وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ» فَناسب ﷺ بين قَلْبِي وَأَمْرِي، وَغَائِبِي وَشَاهِدِي مَنَاسِبَةً غَيْرَ تَامَّةٍ، لِأَنَّهَا فِي الزُّنَّةِ دُونَ التَّقْفِيَةِ، وَنَاسِبٌ بَيْنَ الْقَضَاءِ وَالشَّهَدَاءِ وَالسَّعْدَاءِ وَالْأَعْدَاءِ مَنَاسِبَةً تَامَّةً فِي الزُّنَّةِ وَالتَّقْفِيَةِ.

ومن أمثلة المناسبتين قولُ أبي تمام: [من الطويل]

مَهَا الْوَحْشُ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطَّ إِلَّا أَنْ تَلَكْ ذَوَابِلُ^(١)

فَناسب بين مَهَا وَقَنَا مَنَاسِبَةً تَامَّةً، وَناسب بين الوحش والخطَّ، وَأَوَانِسُ وَذَوَابِلُ مَنَاسِبَةً غَيْرَ تَامَّةٍ.

وأما التفریع - فهو أن يُصَدَّرَ المتكلمُ أو الشاعر كلامَه باسمِ مَنْفِيٍّ بـ «ما» خاصَّة، ثم يصف الاسمَ المنفيَّ بِمُعْظَمِ أوصافه اللَّائِقَةِ به في الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلاً يُفْرَعُ منه جملةٌ من جارٍ ومجرورٍ متعلِّقَةٌ به تعلقٌ مدحٍ أو هجاءٍ أو فخرٍ أو نسيبٍ أو غير ذلك، يُفْهَمُ من ذلك مساواةُ المذكورِ بالاسمِ المنفيِّ الموصوفِ كقول الأعشى: [من البسيط]

ما روضةً من رياض الحزن مُعْشِبَةً خضراءَ جادَ عليها مُسْبِلُ هَظْلُ^(٢)
يضاحك الشمس منها كوكب شَرِيقُ مؤرَّرٌ بَعْمِيمِ النبتِ مَكْتَهِلُ^(٣)
يوماً بأطْيَبِ منها طيبَ رائحةٍ ولا بأَحْسَنَ منها إذ دنا الأُصْلُ

وقول عائكة المَرِيَّةُ^(٤): [من الطويل]

وما طعم ماء أي ماء تقوله تَحَدَّرَ مِنْ غُرِّ طِوَالِ الذَوَائِبِ
بِمَنْعَرَجٍ مِنْ بطنٍ وإِدٍ تقابلت عليه رياحُ الصيفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

(١) الخط: يريد به خط عمان، وهو الذي تنسب إليه الرماح الخطية.

(٢) الحزن: المرتفع، الجبل. (٣) الكوكب: الثَّوْر، لأنه يشبه كوكب السماء.

(٤) عائكة المرية: عائكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان أم هاشم بن عبد مناف. أو عائكة

بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة إلى أمنة أم النبي.

هناك عدة جدات للنبي يحملن هذا الاسم. (الأعلام، للزركلي).

نَفَثَ جَرِيَّةُ الماءِ القَذَى عَنْ مُتُونِهِ فليس به عيب تراه لعائب
بَأْطَيْبِ مِمَّنْ يَقْصِرُ الطَّرْفَ دُونَهُ تقى الله وأستحياء بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبي تمام في بيت واحد، وهو: [من البسيط]

ما رُبِعَ مِيَّةٌ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبْهَى رَبًّا مِنْ رَبْعِهَا الْخَرْبُ
ولا الخدودُ وإن أَدْمِينَ مِنْ حَجَلٍ أشهى إلى ناظري من خدّها التَّربُ

ومما ورد في النثر رسالةُ أبْنِ القُمَيْي التي كتبها إلى سبإ بن أحمد صاحبِ
صنعاء:

وأما حال عبده بعد فراقه في الجَلَد، فما أم تسعة من الولد؛ ذكور، كأنهم
عقبانٌ وكور؛ اختِرم منهم ثمانية، فهي على التاسع حانية، فنادى النذير في البادية، يا
للعادية يا للعادية؛ فلما سَمِعَتْ الداعي، ورأت الخيل سَواعي؛ أقبلت تنادي ولدها:
الأناة الأناة، وهو يناديها: القناة القناة: [من الكامل]

بَطْلٌ كَانَ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْدَى نَعَالُ السَّبْتِ لَيْسَ بَتَوَامٍ^(١)

فلما رَمَقَتْهُ يَخْتَالُ فِي غُضُونِ الزَّرْدِ الْمُضَوْنِ^(٢) أنشأت تقول: [من مجزوء

الزمل]

أَسَدٌ أَضْبَطُ يَمْشِي بَيْنَ طَرْفَاءٍ وَغَيْلٍ^(٣)

لَيْسُهُ مِنْ نَسِجِ دَاوٍ ذَكَضْخَضَاحِ الْمَسِيلِ^(٤)

عَرَضَ لَهُ فِي الْبَادِيَةِ أَسَدٌ هَضُورٌ، كَانَ ذِرَاعُهُ مَسَدٌ مَعْصُورٌ: [من الكامل]

فَتَطَاعَنَا وَتَوَاقَفَتْ خَيْلَاهُمَا وَكِلَاهُمَا بَطْلُ الْلقاءِ مَقْنَعٌ

(١) السرحة: واحدة السرح، وهو الشجر العظيم الطويل. يريد عنثرة صاحب البيت، إنه ضخم الجسم طويل القامة. نعال السبت: النعال المدبوغة.

(٢) الموضون: المنسوج حلقتين حلقتين، أو المتقارب النسج.

(٣) الطرفاء: نوع من النبات ذو ﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلمَ الْقُرْآنِ ﴿٢﴾ [الرحمن: ١-٢] أهداب وليس له خشب. الغيل: الشجر الكثيف الملفف؛ أو القصب والحلفاء المجتمعة.

(٤) الضحضاح: الماء الذي لا غرق فيه، ونسج داود يريد به: الدروع، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فلما سمعت الرّعيّل، برزت من الصّرم^(١) بصبر قد عيل؛ فسألت عن الواحد
ف قيل: لَحَدَه اللَّاحِد: [من الوافر]

فَكَرَتْ تَبْتَغِيهِ فَصَادَفَتْهُ عَلَى دِمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا
عَبَثَنَ بِهِ فَلَمْ يَتْرُكَنَّ إِلَّا أَدِيمَا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كُرَاعَا
بَاشَدَ مِنْ عَبْدِهِ تَأْسَفًا، وَلَا أَعْظَمَ كَمَدًا وَتَلَهَفَا.

قال: وذكر ابن أبي الإصبع في التفريع قسمًا ذكره في صدر الباب، وقال: إنه
هو الذي استخرجه، وهو أن يتبدى الشاعر بلفظة هي إما أسم أو صفة، ثم يكرّرها
في البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملة من المعاني في المدح وغيره،
كقول المتنبي: [من المتقارب]

أَنَا أَبْنُ اللَّقَاءِ أَنَا أَبْنُ السَّخَاءِ أَنَا أَبْنُ الضَّرَابِ أَنَا أَبْنُ الطَّعَانِ
أَنَا أَبْنُ الْفِيَا فِي أَنَا أَبْنُ الْقَوَافِي أَنَا أَبْنُ السُّرُوجِ أَنَا أَبْنُ الرُّعَانِ^(٢)
طَوِيلُ النَّجَادِ طَوِيلُ الْعِمَادِ طَوِيلُ الْقَنَاةِ طَوِيلُ السَّنَانِ
حَدِيدُ اللَّحَازِ حَدِيدُ الْحِفَازِ حَدِيدُ الْحَسَامِ حَدِيدُ الْجَنَانِ

وأما نفي الشيء بإيجابه - فهو أن يُثَبِّتَ المتكلم شيئًا في ظاهر كلامه وينفي ما
هو من سببه مجازًا، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبتته كقول امرئ
القيس: [من الطويل]

عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الثُّبَاطِي جَرَجَرَا^(٣)

فظاهر هذا الكلام يقتضي إثبات منار لهذه الطريق، ونفي الهداية به مجازًا
وباطنه في الحقيقة يقتضي نفي المنار جملة، والمعنى أن هذه الطريق لو كان لها
منار ما أهتدي به، فكيف ولا منار لها، كما تقول لمن تريد أن تسلبه الخير: ما
أقلّ خيرك! فظاهر كلامك يدلّ على إثبات خير قليل، وباطنه نفي الخير كثيره
وقليله. وقول الزبير بن عبد المطلب يمدح عُمَيْلَةَ بَنَ عَبْدِ الدَّارِ - وكان نديمًا له -:

(١) الصّرم: الجماعة.

(٢) الرعان: رؤوس الجبال أو أنوفها المتقدمة منها.

(٣) سافه: شمه. العود: الجمل المسن. جرجر: رغا.

[من الطويل]

صَحِبْتُ بِهِمْ طَلْقًا يَرَاكِ إِلَى النَّدَى إِذَا مَا أَنْتَشَى لَمْ تَحْتَضِرْهُ مَفَاقِرُهُ
 ضَعِيفَ بَحْثِ الْكَأْسِ قَبْضُ بَنَانِهِ كَلِيلٌ عَلَى وَجْهِ النَّدِيمِ أَظَافِرُهُ
 فظاهر هذا أَنَّ للممدوح مَفَاقِرَ لَمْ تَحْتَضِرْهُ إِذَا أَنْتَشَى، وَأَنَّ لَهُ أَظَافِرَ يَخْمِشُ
 بِهَا وَجْهَ نَدِيمِهِ خَمَشًا ضَعِيفًا، وباطن الكلام في الحقيقة نَفْيُ المفاقر جملة،
 والأظافر بَتَّة.

وأما الإيداع - قال: وأكثرُ الناس يجعلونه من باب التضمين، وهو منه إِلَّا أنه
 مخصوص بالشر، وبأن يكون المودع نصف بيت، إما صدرًا أو عجزًا.

فمنه قول علي رضي الله عنه في جواب كتاب لمعاوية:

ثُمَّ زَعَمْتُ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتٌ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ
 كَذَلِكَ فَلَمْ تَكُنْ الْجَنَائِيَةَ عَلَيْكَ، حَتَّى تَكُونَ الْمَعْدِرَةُ إِلَيْكَ، وَتَلِكْ شِكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ
 عَارُهَا.

وأما الإدماج - فهو أَنْ يُدْمِجَ المتكلم غرضًا له في جملة معنى من المعاني قد
 نحاه لِيُوْهِمَ السامعُ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْهُ، وَإِنَّمَا عَرَضَ فِي كَلَامِهِ لِتَتَمَّعَ مَعْنَاهُ الَّذِي قَصَدَهُ،
 كَقَوْلِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(١) لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ حِينَ وَرَرَ لِلْمَعْتَضِدِ - وَكَانَ
 عُبَيْدُ اللَّهِ قَدْ أَخْتَلَّتْ حَالُهُ - فَكُتِبَ إِلَى أَبِي سُلَيْمَانَ: [من الطويل]

أَبَى دَهْرُنَا إِسْعَافُنَا فِي نَفُوسِنَا وَأَسْعَفُنَا فِيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ
 فَقُلْتُ لَهُ نُعْمَاكَ فِيهِمْ أَتَمَّهَا وَدَعِ أَمْرُنَا إِنْ الْمَهْمُ الْمَقْدَمُ
 فَأَدْمِجْ شَكْوَى الزَّمَانِ فِي ضَمَنِ التَّهْنِئَةِ، وَتَلَطَّفْ فِي الْمَسْأَلَةِ مَعَ صِيَانَةِ نَفْسِهِ عَنْ
 التَّصْرِيحِ بِالسُّؤَالِ.

وأما سلامة الاختراع - فهو أَنْ يَخْتَرِعَ الشاعر معنى لم يُسَبِّقْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ أَحَدٌ
 فِيهِ، كَقَوْلِ عَنْتَرَةَ فِي الذَّبَابِ: [من الكامل]

هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَذَحَ الْمُكِبَ عَلَى الزِنَادِ الْأَجْذَمِ

(١) عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ: وَلِي الشَّرْطَةِ فِي بَغْدَادَ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ مُتَرْسَلًا وَشَاعِرًا لَطِيفًا
 جِيدَ السَّبَكِ. لَهُ كِتَابُ الْبَرَاةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَكِتَابُ السِّيَاسَةِ الْمُلُوكِيَّةِ. تُوْفِيَ سَنَةَ ٣٠٠ هـ. (ابن
 خُلَكَان، الوُفَيَات، ج ٢، ص ٣٠٤).

وكقول عديّ بن الرّقاع^(١) في تشبيه ولد الظبية: [من الكامل]

تُزجِي أغنَّ كأن إبرة رَوْقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وكقول النابغة في وصف النسر: [من الطويل]

تراهنّ خلف القوم زُورًا عيونها جلوسَ الشيوخ في مُسوك الأرانب^(٢)

وكقول أبي تمام: [من الكامل]

لا تنكري عطلَ الكريم من الغنى فالسَّيل حربٌ للمكان العالي

وقوله: [من البسيط]

ليس الحجاب بمُقَصِّ عنك لي أملا إنَّ السماء تُرَجَّى حين تَحْتَجِب

وقول ابن حجاج^(٣): [من الطويل]

وإني والمولى الذي أنا عبده طريفان في أمر له طَرفان

بعيدًا تراني منه أقرب ما ترى كأنِّي يومَ العيد في رمضان

وأما حُسن الاتِّباع - فهو أن يأتي المتكلم إلى معنًى قد اخترعه غيره فيتبعه فيه أتباعًا يوجب له استحقاقه، إما باختصار لفظه، أو قِصر وزنه أو عذوبة نَظْمه، أو سهولة سبكه، أو إيضاح معناه، أو تميم نقصه، أو تحليته بما توجه الصناعة، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات؛ كقول شاعر جاهليّ في صفة جَمَل: [من الطويل]

وعُوِد قليل الذئب عاودتُ ضربه إذا هاج شوقي من مَعاهدِها ذكر^(٤)

وقلت له ذلفاءً ويحك سَبَّث لك الضربَ فأصبر إنَّ عادتك الصبر

(١) عدي بن الرّقاع: (٩٥ هـ = ٧١٤ م)، هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرّقاع، من عاملة شاعر كبير من أهل دمشق، كنيته أبو داود. عاصر جريرا وهاجاء، ومدح بني أمية. مات في دمشق. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزور: جمع أزور، وهو الناظر بمؤخرة عينه. المسوك: الجلود.

(٣) ابن حجاج: (٣٩١ هـ = ١٠٠١ م) هو حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج البغدادي. شاعر فحل غلب عليه الهزل والفحش، واتسم شعره بالعذوبة والسلامة من التكلف نسب إلى قرية النيل على الفرات بين بغداد والكوفة وتوفي فيها ودفن في بغداد. (الأعلام، للزركلي).

(٤) العود: المسنن من الجمال.

فأحسن ابن المعتز أتباعه حيث قال يصف خيَلَه: [من الطويل]
 وخيل طواها القَوْدُ حتى كأنها أنابيبُ سمرٍّ من قنا الخَطِّ ذُبُلُ
 صَبَبنا عليها ظالمين سِياطنا فطارت بها أيدي سِراعٍ وأرجل
 واتبع أبو نُوَاس جريراً في قوله: [من الوافر]
 إذا غَضِبْتَ عليك بنو تميم حسبَتِ الناسَ كلُّهُمُو غضابا
 فقال أبو نُوَاس - وتَقَلَّ المعنى من الفخر إلى المدح -: [من السريع]
 ليس على الله بمستنكِرٍ أن يَجْمَعَ العالَمُ في واحد
 وقول الثُميري في أخت الحجاج: [من الطويل]
 فهنَّ اللواتي إن بَرَزْنَ قتلنني وإن غِبْنَ قَطَّعن الحشَى حَسرات
 فاتبعه ابن الرومي فقال: [من الكامل]
 ويلاه إن نَظَرْتُ وإن هي أَعْرَضَتْ وَقَعُ السِّهَامُ ونزَعُهنَّ أَلِيمُ
 وأما الذَّم في معرض المدح - فهو أن يقصد المتكلم ذمَّ إنسان فيأتي بالفاظ
 موجَّهة، ظاهرها المدح، وباطنها القَدَح، فيُوهم أنه يمدحه وهو يهجوهُ كقول بعضهم
 في الشريف بن الشَّجَرِي: [من المنسرح]
 يا سيدي والذي يعينك من نَظَمٍ قَرِيضٍ يَضْدُأُ به الفِكرُ
 ما فيك من جِدِّكَ النبيِّ سوى أنكَ لا يَنْبَغِي لَكَ الشعرُ
 وأما العُنوان - فهو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو
 هجاء أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بالفاظ تَكُونُ عُنواناً لأخبار متقدِّمة،
 وقِصص سالفة؛ كقول أبي نُوَاس: [من البسيط]
 يا هاشم بن حُدَيجٍ ليس فخركمو بقتلِ صِهرِ رسولِ الله بالسِّدِّدِ
 أدرجتمو في إهاب العير جُثَّتَه لبئس ما قدَّمت أيديكمو لغد
 إن تقتلوا ابنَ أبي بكر فقد قَتَلْت حُجْراً بدارة مَلْحُوبِ بنو أَسَدِ^(١)

(١) دارة ملحوب: اسم ماء لأسد بن خزيمة، فيها قتل بنو أسد حجراً الكندي والد الشاعر الجاهلي امرئ القيس، وكان ملكاً على نجد. (ياقوت، معجم البلدان).

ويوم قُلتُم لعمرو وهو يقتلكم قتل الكلاب لقد أبرحتَ من ولد^(١)
ورب كِنْدِيَّة قالت لجارتها والدمع ينهل من مَثْنَى ومن وَحَد
ألهى أمراً القيس تشبيبً بغانية عن ثأره وصفاتُ الثؤيِّ والثؤد^(٢)

فقد أتى أبو نواس في هذه الأبيات بعدةً عُنوانات: منها قصة قتل محمد بن أبي بكر، وقتل حُجْر أبي امرئ القيس، وقتل عمرو بن هند كِنْدَةَ في ضمن هجو من أراد هجوه، وغير المهجوه بما أشار إليه من الأخبار الدالة على هجاء قبيلته.

ومثل ذلك قولُ أبي تمام في استعطاف مالك بن طوق على قومه: [من الكامل]

رَفَدوك في يوم الكلاب وشَقُّوا فيه المَزاد بِجَحْفَل غَلَاب^(٣)
وهمو بَعِين أَباغَ راشوا لِلْعِدا سَهْمِيك عند الحارث الحَرَاب^(٤)
ولِيالِي الثَّرثار والحَشَاك قد جَلَبُوا الجِياد لواحِقَ الأَقْراب^(٥)
فمضت كُهُولهمو ودَبَر أمرهم أحداثُهم تدبِيرَ غيرِ صواب
وقال بعد ذلك:

لك في رسول الله أعظمُ أسوة وأجلُّها في سُنَّة وكتاب
أعطى المؤلِّفة القلوبِ رضاهمو كَمَلاً ورَدَّ أخائذَ الأحزاب
والجعفرئون أَسْتَقَلَّتْ ظُغْنُهم عن قومهم وهمو نجوم كلاب
حتى إذا أخذ الفراقُ بقسطه منهم وشَطَّ بهم عن الأحباب
ورأوا بلاد الله قد لَفَظَتْهمو أكنافُها رَجَعُوا إلى جَوَاب
فأتوا كريمَ الخِيمِ مِثْلَكَ صافِحَا عن ذكر أحقاد وذكُر ضِباب^(٦)

(١) يشير إلى فتك ملك الحيرة عمرو بن هند ببني كندة.

(٢) يشير إلى عجز امرئ القيس الكندي عن الثأر من أبي أسد الذين قتلوا والده. ويعزو ذلك لانصرافه إلى المملذات واللهو بالنساء وقرض الشعر.

(٣) يوم الكلاب كلاب الأول وكلات الثاني: يومان كانا بين ملوك كندة وبني تميم.

(٤) عين أَباغ: واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. يشير إلى معركة وقعت هناك بين الفساسنة واللخمين، قتل فيها المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي ملك الحيرة. (ياقوت، معجم البلدان).

(٥) الثرثار: واد بالجزيرة بين سنجار وتكريت. كانت بكر وائل تغلب وائل تنزله (ياقوت، معجم البلدان). الحشاك: تل عبدة، جرت فيه وقعة تغلب وقيس. لواحق الأقراب: ضمير الخصور.

(٦) الضِّباب: واحدة ضِب وهو الحقد.

فانظر إلى ما أتى به أبو تمام في هذه الأبيات من العُنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب، وأخبار بني جعفر بن كلاب، ورجوعهم إلى أبن عمهم جَوَاب؛ وكقوله أيضًا لأحمد بن أبي دؤاد: [من الوافر]

تَثَبَّثْ إِنْ قَبُولًا كَانَ زُورًا أتى النعمانَ قَبْلَكَ عن زياد
وأرث بين حيّ بني جُلاح لظى حرب وحيّ بني مَصاد
وغادَرَ في صدور الدهر قتلى بني بدر على ذات الإِصاد^(١)

فأتى بِعُنوان يشير به إلى قصة النابغة حين وُشي به إلى النعمان، فجَزَّ ذلك من الحروب ما تَضَمَّنَتْ أبياته.

وأما الإيضاح - وهو أن يذكر المتكلّم كلامًا في ظاهره لَبَسٌ، ثم يوضحه في بقية كلامه، كقول الشاعر: [من الطويل]

يذكُرنيك الخيرُ والشرُّ كلُّهُ وقيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ

فإن الشاعر لو اقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء، فلما قال بعد: [من الطويل]

فألقاك عن مكروها متنزّها وألقاك في محبوبها ولك الفضل

أوضح المعنى المراد، وأزال اللبس، ورفَع الإشكال والشك.

وأما التشكيك - فهو أن يأتي المتكلّم في كلامه بلفظة تشكك المخاطب هل هي فضلة أو أصلية لا غنى للكلام عنها؟ مثلُ قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢] فإن لفظة بَدَيْنَ تشكك السامع هل هي فضلة أو أصلية؟ فالضعيف النظر يظنها فضلة لأن لفظة تداينتم تغني عنها، والناظر في علم البيان يعلم أنها أصلية لأن لفظة الدين لها محامل، تقول: دايئتُ فلانًا المودة، يعني جازيته، ومنه: «كما تَدَيْنُ ثَدان» ومنه قولُ رؤبة^(٢): [من الرجز]

دايئتُ أروى والديون تُقَضَى فمطلتُ بعضًا وأدت بعضا

(١) الإِصاد: اسم مكان في ديار بني عبس وسط هضاب القلب. (ياقوت، معجم البلدان).

(٢) هو رؤبة بن العجاج: (١٤٥ هـ = ٧٦٢ م)، هو رؤبة بن عبد الله بن العجاج التميمي السعدي. راجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أكثر مقامه في البصرة. وعنه أخذ أعيان اللغة واحتجوا بشعره. مات في البادية بعد أن أسن. (الزركلي، الأعلام).

وكلّ هذا هو الدِّين المجازي الذي لا يُكتَب ولا يُشْهَد عليه، ولَمَّا كان المراد من الآية تمييز الدِّين المالي الذي يُكتَب ويُشْهَد عليه، وتيسير أحكامه، أوجبت البلاغة أن يقول: «بدين» ليعلم حكمه.

وأما القول بالموجب - فهو ضربان:

أحدهما: أن تقع صفة في كلام مدع شيئاً يعنِي به نفسه، فثبتت تلك الصفة لغيره من غير تصريح بثبوتها له، ولا نفيها عنه، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨] فإنهم كانوا بالأعز عن فريقهم، وبالأذل عن فريق المؤمنين، فأثبت الله عز وجل صفة العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرّض لثبوت حكم الإخراج بصفة العِزَّة ولا لنفيه.

والثاني: حملُ كلام المتكلم مع تقريره على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلّقه كقول الشاعر: [من الخفيف]

قلتُ: ثَقُلْتُ إذْ أَتَيْتُ مِرَارًا قال: ثَقُلْتُ كاهلي بالأَيادي
قلتُ: طَوَّلْتُ قال: لي بل تَطَوَّلْتُ وأَبْرَمْتُ قال: حبل الوداد
ومنه قولُ الأَرْجاني:

* غَالَطْنِي إذْ كَسَتْ جِسْمِي ضُنًى *

البيتين، وقد تقدّم الاستشهاد بهما في الاستدراك.

وللمولى شهاب الدين محمود الحلبي الكاتب^(١) في ذلك: [من المتقارب]
رَأَتْنِي وَقَدْ نَالَ مَنِّي التُّحُولُ وفاضت دموعي على الخَدَّ فَيضاً
فَقَالَتْ: بَعِينِي هَذَا السَّقَامُ فقلتُ: صدقتُ، وبِالْخَصْرِ أَيْضاً
وَقَوْلُ مُحَاسِنِ الشَّوَاءِ^(٢): [من الطويل]

وَلَمَّا أَتَانِي الْعَاذِلُونَ عَدَمَتُهُمْ وما فيهِمُو إِلَّا لِلْحِمَى قَارِضُ
وَقَدْ بُهَتُوا لَمَّا رَأَوْنِي شَاخِبًا وقالوا: به عَيْنٌ فقلتُ: وعَارِضُ

(١) هو محمود بن سليمان، شهاب الدين، كاتب الإنشاء في دمشق ومصر، لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله، له ديوان شعر مات سنة ٧٢٥ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٢).

(٢) محاسن الشَّوَاءِ: (١١٦٧ - ١٢٣٨ م) كوفي الأصل، ولد وتوفي في حلب، وقبره عند باب أنطاكية غربي المدينة شاعر أتقن علم العروض، وله ديوان شعر. (المنجد).

وأما القلب - فهو أن يكون الكلام أو البيتُ كيفما أنقلبَتْ حروفه كان بحاله لا يتغير، ومنه في التنزيل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٣]، ﴿وَرَبِّكَ فَكَيْزٌ﴾ [المدثر: الآية ٣] وقولهم: ساكبُ كاس.

ومنه قولُ العماد الأصفهاني للقاضي الفاضل: سِرْ فلا كَبَا بك الفَرَس، وجوابُ القاضي الفاضل له: دام عَلَا العماد، وهي أولُ قصيدة للأرْجاني، مَطْلَعُها: «دام عَلَا العماد»، ومن ذلك قولُ الأرْجاني: [من الوافر]

مَوَدَّتْهُ تَدُومَ لِكُلِّ هَوٍ وهل كُلُّ مَوَدَّتْهُ تَدُومَ

وأما التندير - فهو أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة، أو نكتة مستظرفة يُعرَض فيها بمن يريد ذمّه بأمر، وغالب ما يقع في الهزل، فمنه قول أبي تمام فيمن^(١) سَرَقَ له شِعْراً: [من الخفيف]

مَنْ بَنُو بَحْدَلٍ، مَنْ أَبْنُ الْحُبَابِ مَنْ بَنُو تَغْلِبِ عَدَاةَ الْكَلَابِ
مَنْ طُفَيْلٌ، مَنْ عَامِرٌ، أَمْ مَنْ الْحَا رْتُ، أَمْ مَنْ عُتَيْبَةُ بْنُ شِهَابِ
إِنَّمَا الضَّيْغَمُ الْهَضُورُ أَبُو الْأَشَدِّ جَالِ هَتَاكَ كُلِّ خَيْسٍ وَغَابِ
مَنْ عَدَتْ خَيْلُهُ عَلَى سَرْحِ شِعْرِي وَهُوَ لِلْحَيْنِ رَاتِعٌ فِي كِتَابِ
يَا عَذَارَى الْكَلَامِ صَرَّتَنْ مِنْ بَعْدِ لِي سَبَايَا تُبْعَنُ فِي الْأَعْرَابِ
لَوْ تَرَى مِنْطِقِي أُسِيرَا لِأَصْبَحْتَ أُسِيرَا ذَا عُبْرَةٍ وَأَكْتَنَابِ
طَالَ رَغْبِي إِلَيْكَ مِمَّا أَقَاسِي هُ وَرُهْبِي يَا رَبَّ فَاحْفَظْ ثِيَابِي

ومن ذلك ما قاله شهاب الدين بنُ الخَيْمِيِّ يُعرَضُ بنجم الدين بنِ أسْرَائِيلَ لَمَّا تنازعا في القصيدة المعروفة لابن الخَيْمِيِّ التي أولها: [من البسيط]

* يَا مَطْلَبَا لَيْسَ لِي مِنْ غَيْرِهِ أَرْبَ *

فقال من قطعة منها:

هُمُ الْعُرَيْبُ بَنَجْدُ مَذْ عَرَفْتُهُمُو لَمْ يَبْقَ لِي مَعَهُمْ مَالٌ وَلَا نَسَبُ^(٢)

(١) أراد به محمد بن يزيد القرشي بالولاء (١٠١ هـ = ٧٢٠ م). ولأه عبد الملك بن مروان إفريقيا وتبعته له الأندلس، وعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز، ثم أعيد ثانية إلى منصبه. (الزركلي، الأعلام).

(٢) النسب: المال الأصيل من نقود وماشية.

فما أَلْمُوا بحِيٍّ أو أَلَمَ بهم إلا أغاروا على الأبيات وأنتهبوا
 لم يُبقِ مَنْطِقَه قولاً يروق لنا لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب

وأما الإسجال بعد المغالطة - فهو أن يقصد الشاعر غرضاً من ممدوح فيشترط
 لحصوله شرطاً، ثم يقدر وقوع ذلك الشرط مغالطة ليُسجل به استحقاق مقصوده،
 كقول بعضهم: [من البسيط]

جاء الشتاء وما عندي لِقَرَّتَه إلا أرتعادي وتصفيقي بأسناني
 فإن هَلَكْتُ فمولانا يكفّنني هَبْنِي هَلَكْتُ فَهَبْنِي بعض أكفاني

وأما الافتنان - فهو أن يأتي الشاعر بفئتين متضادتين من فنون الشعر في بيت
 واحد، مثل التشبيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء.

فأما ما جُمِع فيه بين التشبيب والحماسة فكقول عترة: [من الكامل]

إن تُغْدِي دُونِي القِنَاعَ فَإِنِّي طَبُّ بِأَخَذِ الْفَارَسِ الْمُسْتَلَمِ
 وكقول أبي دُف - وَيُرَوَّى لعبد الله بن طاهر -: [من الوافر]

أَحَبُّكَ يَا جُنَانٍ وَأَنْتِ مَنِّي مَحَلُّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِ الْجَبَانِ
 وَلَوْ أَنِّي أَقُولُ مَحَلُّ رُوحِي لَخِفْتُ عَلَيْكَ بِأَدْرَةِ الطُّعَانِ

وأما ما جُمِع فيه بين تهنئة وتعزية فقد تقدّم ذكر ذلك في بابي التهاني والتعازي
 ومنها فيما لم نوردّه هناك ما كتب به المولى شهاب الدين محمود الكاتب تهنئة وتعزية
 لمن رزق ولدًا ذكرًا في يوم مات له فيه بنت:

ولا عَثَبَ عَلَى الدَّهْرِ فِيمَا أَقْتَرَفَ، فَقَدْ أَحْسَنَ الْخَلْفَ؛ وَاعْتَذَرَ بِمَا وَهَبَ عَمَّا
 سَلَبَ، فَعَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ.

وأما الإبهام - بباء موحدة فهو أن يقول المتكلم كلاماً مبهمًا يحتمل معنيين
 متضادّين، كقول بعضهم في الحسن بن سهل لما تزوج المأمون ببنته بُوران: [من
 مجزوء الخفيف]

بَارِكْ اللَّهُ لِلْحَسَنِ وَلِبُورَانَ فِي الْخَتَنِ^(١)
 يَا إِمَامَ الْهَدَى ظَفِيرَ تَ وَلَكِنْ بَبْنْتَ مَنْ

فلم يُعرَف مرأته «بنت من» هل أراد به الرفعة أو الضعة؟

ومنه قولُ بشار في خياط أعورَ اسمه عمرو: [من مجزوء الزمل]

خاط عمرو لي قباء ليت عينيه سواء

فأبهم المعنى في الدعاء له بالدعاء عليه.

وأما حصر الجزئيِّ وإلحاقه بالكليّ - فهو كقول السّلامي^(١): [من الطويل]

إليك طوى عَرْضَ البسيطة جاعلٌ قُصارى المطايا أن يلوح لها القصر

فكنتُ وعزّمي في الظلام وصارمي ثلاثة أشباه كما اجتمع النسر

وبشّرتُ آمالي بمَلِك هو الورى ودارٍ هي الدنيا، ويوم هو الدهر

فأما حَصْرُ أقسام الجزئيِّ فإنّ العالمَ عبارةً عن أجسامٍ وظروفٍ زمانٍ وظروفٍ مكانٍ، وقد حَصَرَ ذلك.

وأما جعلُهُ الجزئيِّ كليًّا فإنّ الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر.

وأما المقارنة - فهي أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه أو المبالغة أو غير ذلك بوصلٍ يخفى أثره إلّا على مُدّمين النظر في هذه الصناعة، وأكثرُ ما يقع ذلك بالجُمْل الشرطيّة، كقول بعض^(٢) شعراء المَغْرِب: [من الطويل]

وكنْتَ إذا اسْتُنْزِلْتَ من جانب الرضى نزلتْ نزولَ الغيث في البلد المخل

وإن هَيَّجَ الأعداء منك حَفِيظَةً وقعتْ وَقوعَ النار في الحطب الجزل

فإنه لآم بين الاستعارة والتشبيه المتزوعِ الأداة في صدرَي بيتيه وعَجْزَيْهما.

وأما ما قُرنت به الاستعارة من المبالغة فمثاله قولُ النابغة الدُّبَياني: [من الطويل]

وأنتَ رَبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيِّبُهُ وسيفٌ أَعِيرْتُهُ المنيّة قاطع

(١) السلامي: (٣٣٦ - ٣٩٣ هـ = ٩٤٨ - ١٠٠٣ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي القرشي، أبو الحسن السلامي، شاعر عراقي ولد في كرخ بغداد ونسب إلى مدينة السلام، اتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى. له ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو إدريس بن اليمان كما جاء في «تحرير التحبير» لابن أبي الأصبح.

فإن في كلِّ من صدر البيت وعجزه استعارة ومبالغة، وإنما التي في العجز أبلغ.

ومما اقترن فيه الإرداف بالاستعارة قولُ تميم بن مُقبل^(١): [من الطويل]

لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى نَزَعْنَا عَشِيَّةَ

وَقَدْ مَاتَ شَطْرُ الشَّمْسِ وَالشَّطْرُ مُدْنَفٍ^(٢)

فإنه عَبَّرَ بموت شَطْرِ الشمس عن الغروب، وأستعار الدَّنْفَ للشطر الثاني.

وأما الإبداع - فهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر، أو القرينة الواحدة من النثر بعدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جُمَله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع.

قال ابن أبي الإصيص: وما رأيتُ فيما استقرَّيتُ من الكلام كآية استخرجتُ منها أحدًا وعشرين ضربًا من المحاسن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَارُشُ آبُلَي مَاءِكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]؛ وهي المناسبة التامة في «أبلعي» و«أقْلِي»؛ والمطابقة بذكر الأرض والسماء؛ والمجاز في قوله: «يَا سَمَاءُ»، فإن المراد - والله أعلم - يا مطر السماء؛ والاستعارة في قوله تعالى: «أقْلِي»؛ والإشارة في قوله تعالى: «وَغِيضَ الْمَاءِ» فإنه عَبَّرَ بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة؛ والتمثيل في قوله تعالى: «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» فإنه عَبَّرَ عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له؛ والإرداف في قوله: «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ» فإنه عَبَّرَ عن استقرارها بهذا المكان استقرارًا متمكنًا بلفظ قريب من لفظ المعنى؛ والتعليل، لأن غِيضَ الماء علة الاستواء؛ وصحة التقسيم إذا استوعب الله تعالى أقسام أحوال الماء حالة نَقْصِهِ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذي يَنْبُعُ من الأرض، وَغِيضَ الماء الحاصل على ظهرها؛ والاحتباس في قوله تعالى: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إذ الدعاء عليهم يُشعر أنهم مستحقو الهلاك احتباسًا من ضعيف العقل يَتَوَهَّمُ أن العذاب شَمَلَ من يَسْتَحَقُّ ومن لا يَسْتَحَقُّ،

(١) تميم بن مقبل: (بعد ٣٧ هـ = بعد ٦٥٧ م) هو تميم بن أبي بن مقبل، من بني العجلان، أبو كعب، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، عمر طويلًا وهاجى النجاشي الشاعر. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٢) مدنف: دان من الغروب.

فتأكَّد بالدعاء كونهم مستحقِّين؛ والإيضاح في قوله: «لِلْقَوْمِ» ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة حيث قال: ﴿وَكُلًّا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هُود: الآية ٣٨] هم الذين وصفهم بالظلم ليعلم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لبس في الكلام؛ والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها؛ وحسن النسق، لأنه تعالى عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب؛ وائتلاف اللفظ مع المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها؛ والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى أقتصر القصّة بلفظها مُستوعبة بحيث لم يُخل منها بشيء في أقصر عبارة؛ والتسليم، لأن أول الآية إلى قوله: «أفُلَيْعِي» يقتضي آخرها؛ والتعذيب، لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمة من التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها؛ والانسجام، وهو تحلّل الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سُمّي به هذا الباب. فهذه سبع عشرة لفظة تضمّنّت أحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما تكرر من أنواعه فيها.

وأما الانفصال - فهو أن يقول المتكلّم كلاماً يتوجّه عليه فيه دَخَلَ لو أَقْتَصَرَ عليه، فيأتي بما يفصله عن ذلك الدّخَل، كقول أبي فراس: [من مجزوء الرّمْل]

ولقد نُبِيتُ إيلي س إذا راك يَصُود
ليس من تقوى ولكن ثقل فيك وبَرْدُ

والفرق بين هذا وبين الاحتراس خلوّ الاحتراس من الدّخَل عليه من كل وجه.

وأما التصرف - فهو أن يتصرّف المتكلّم في المعنى الذي يقصده، فيبرزه في عدّة صور: تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ التشبيه، وآونة بلفظ الإرداف وحيثاً بلفظ الحقيقة، كقول امرئ القيس يصف الليل: [من الطويل]

وليل كموج البحر مُرخ سُدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلّ كل

فإنه أبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تصرّف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال: [من

الطويل]

فيا لك من ليل كأن نجومه بكلّ مغار الفتل شدّت يذبُل^(١)

(١) يذبُل: جبل بنجد. كان لباهلة. وهو مضارع ذبل أي استرخى. (ياقوت، معجم البلدان).

ثم تَصَرَّف فيه فأخْرَجَه بلفظ الإرداف فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وأما الاشتراك - فمنه ما ليس بحسن ولا قبيح، وهو الاشتراك في الألفاظ مثل اشتراك الأبيرد^(١) وأبي نواس في لفظة الاستعفاء، فإن الأبيرد قال في مَرثية أخيه: [من الطويل]

وقد كنتُ أستعفي الإله إذا أشتكى من الأجر لي فيه وإن عَظُم الأجر
وقال أبو نواس: [من الطويل]

ترى العين تستعفيك من لمعانها وتَحْسِر حتى ما تُقِلّ جفونَها
ومنه الحسن، وهو الاشتراك في المعنى، كقول امرئ القيس: [من الطويل]
كِبْكِر المُقَاناة البياضَ بصفرة غَداها نَمير الماء غيرُ المُحَلَّل^(٢)
وقول ذي الرُّمة: [من البسيط]

كحلّاء في برج صفراء في دَعَج كأنها فضّة قد مسّها ذهب^(٣)
فَوَقَعَ الاشتراك بينهما في وصف المرأة بالصفرة، غير أن الأول شبه الصفرة ببيضة النعامة، والآخر وَصَفَهَا بِالْفَضَّةِ الْمُموَّهَةِ.

ومن الاشتراك المعنوي ما ليس بحسن ولا معيب، كقول كثير: [من الطويل]
وأنتِ التي حَبَبْتَ كُلَّ قَصِيْرَةٍ إلَيَّ وما تدري بذاك القصائر
عَنَيْتُ قَصِيْرَاتِ الحِجَالِ ولم أَرِدْ قِصَارَ الخُطَا، شُرُ النساءِ البحائر^(٤)
فإن لفظة قصيرة مشتركة، فلو أَقْتَصَرَ على البيت الأول لكان الاشتراك مَعِيْبًا لكنه لما أتى بالبيت الثاني زال العيب، ولم يَلْغُ رتبة الحسن لما فيه من التضمن.

(١) الأبيرد: (٦٨ هـ = ٦٨٨ م)، هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحي اليربوعي من تميم.

شاعر فصيح بدوي لم يكن مكثراً ولا مداحاً، أدرك بني أمية (الأعلام، للزركلي).

(٢) يقول إن محبوبته ذات لون أبيض ضارب إلى الصفرة كبيضة النعامة تغذت بالماء الصافي العذب الذي لم يكلده الواردون.

(٣) البَرَج: في العين، يعني نقاء بياضها وصفاء سوادها. والدعج يعني شدة سواد العين.

(٤) البحائر: واحدها بحتر، وهي المرأة القصيرة.

وأما التَهَكُّم - فالفرق بينه وبين الهَزَل الذي يراد به الجِدُّ أن التَهَكُّم ظاهره جِدُّ وباطنه هَزَل، والهَزَل الذي يراد به الجِدُّ على العكس منه، فمن التَهَكُّم قول الوَجِيه الذُرَيّ في أَبْن أبي حصينة من أبيات: [من الخفيف]

لا تَظُنَّ حَذْبَ الظُّهر عيبا	فهي في الحُسن من صفات الهلال
وكذاك القِسِّي مُحَدَوِّبات	وهي أنكى من الطُّبا والعوالي
وإذا ما علا السَّنام ففيه	لقُروم الجِمال أي جِمال
وأرى الانحناء في مِخلَب البا	زي ولم يَغْدُ مِخلَب الرِّئبال
كَوْن الله حَذْبَ فيك إن شئ	ت من الفضل أو من الإفضال
فأنت رَبْوَةٌ على طُود علم	وأنت مَوْجَةٌ ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمتت	أنها حِلِيَّة لكل الرجال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بُد
فكقول أبْن الرومي: [من السريع]

فيا له مِن عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل

وأما التدبيج - وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يَقصِد بها الكناية أو التورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون، فمن ذلك قول الحريري في بعض مقاماته: فمذ أزوّر المحبوب الأصفر وأغبر العيش الأخضر، اسودّ يومي الأبيض، وأبيض فؤدي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر.

وهذا التدبيج بطريق التورية. وقال بعض المتأخرين يصف موقف السلطان الملك الناصر بمصاف شَقْحَب^(١) الكائن بينه وبين التتار في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة:

وما زال بوجهه الأبيض، تحت عَلمه الأصفر، يكابد الموت الأحمر، تجاه العدو الأزرق، إلى أن حال بينهما الليل الأسود، وبَكَر في غُرّة نهار الأحد الأشعل

(١) شقحب: على وزن جعفر، مكان قرب دمشق. وهو يقع على طرف مرج الصفر (تاريخ أبي الفداء، ج ٤، ص ٥٠، طبعة القسطنطينية).

وَأَمْتَطَى السَّبِيلَ الْأَحْوَى إِلَى أَنْ حَلَ بِالْأَبْلَقِ. يريد بالأبْلَق: القصر الظاهري الذي بالمَينِدَانِ الأخضر بظاهر مدينة دِمَشق؛ ومن أمثلة هذا الباب قولُ ابن حَيَّوس الدَّمَشقي: [من الخفيف]

إِنْ تُرْدَ عِلْمُ حَالِهِمْ عَنْ يَقِينٍ فَالْقَهْمُ يَوْمَ نَائِلٍ أَوْ قَتَالٍ
تَلَقَّ بِبَيْضِ الْوَجْهِ سُودَ مَثَارِ الدَّ قَعِ خُضْرُ الْأَكْنَافِ حُمَرَ النُّصَالِ
وأما الموجّه - فهو الذي يمدح بشيء يقتضي المدح بشيء آخر، كقول المتنبي:
[من الطويل]

نَهَبَتْ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَيْئَتِ الدُّنْيَا بِأَنْتَكَ خَالِدٍ
وكقوله أيضًا: [من البسيط]
عُمِرَ الْعَدُوَّ إِذَا لَاقَاهُ فِي رَهَجٍ أَقْلُ مِنْ عُمُرِ مَا يَحْوِي إِذَا وَهَبَا
فأول البيتين وصف بفرط الشجاعة، وآخر الأول بعلو الدرجة، وآخر الثاني بفرط الجود.

وأما تشابه الأطراف - فهو أن يجعل الشاعر قافية بيته الأول أول البيت الثاني، وقافية الثاني أول الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومن أحسن ما قيل فيه قول ليلي الأَخِيلِيَّة تمدح الحجاج: [من الطويل]

إِذَا نَزَلَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَبَعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهَا دِمَاءُ رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا^(١)

هذا ما أورده في حسن التوسل من علوم المعاني والبيان والبديع، وقد أتينا على أكثره بنصه لما رأيناه من حسن تأليفه، وبديع ترصيفه، وأن اختصاره لا يمكن إلا عند الإخلال بفائدة لا يُستغنى عنها فلم نحذف منه إلا ما تكرر من الأمثلة والشواهد، لاستغنائنا بما أوردهنا عما حذفناه، فالنسبة فيه إلى فضائله وفضله والعُمدة على شواهد ونقله؛ فلقد أحسن التأليف، وأجاد التعريف وأحتمل التوقيف؛ وحرر الشواهد، وأوضح السبيل حتى صار الغائب عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد؛ وأبدع في صناعة البديع، وبين علم البيان بحسن الترصيف والترصيع؛ وأعنتى بالفاظ

المعاني فصَرَفَ أَعْتَمَتَهَا بَيِّنَاتِهِ، وَأَبَانَ مُشْكَلَهَا فَأَحْسَنَ فِي بَيَانِهِ؛ وَحَلَّ فِي التَّعْقِيدِ عِقَالَهَا الَّذِي عَجَزَ غَيْرُهُ عَنْ حَلِّهِ، وَسَهَّلَ لِلْأَفْهَامِ مَقَالَهَا فَأَبْرَزَتْهُ الْأَلْسَنَةُ مِنْ مُحَرَّمِ اللَّفْظِ إِلَى جَلِّهِ؛ فَلَهُ الْمِثْنَةُ فِيمَا أَلَّفَ، وَالْفَضْلُ بِمَا صَنَّفَ.

وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة - فالإقتباس والاستشهاد والحل:

فالإقتباس هو أن يُضْمَنَ الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، ولا يُنْبِئُهُ عَلَيْهِ لِلْعِلْمِ بِهِ، كَمَا فِي خُطْبِ أَبِي نُبَاتَةَ^(١)، كَقَوْلِهِ: فَيَا أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ الْمُطَرِّقُونَ، أَمَا أَنْتُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ مُصَدِّقُونَ؟ مَا لَكُمْ لَا تُشْفِقُونَ؟ ﴿قُرَّبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذَّارِيَات: الآية ٢٣]. وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا: يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا جَدِيدًا، وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لَجْهَتَهُمْ وَقُودًا، يَوْمَ تَكُونُونَ ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَةُ: الآية ١٤٣]، ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَضِرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية ٣٠].

ومن ذلك ما أورد المولى شهاب الدين محمود في تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بالسلطنة، جاء منه: وجمع بك شمل الأمة بعد أن «كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ قَرِيبِي مِنْهُمْ»، وَعَضْدَكَ لِإِقَامَةِ إِمَامَتِهِ بِأَوْلِيَاءِ دَوْلَتِكَ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ وَخَصَّكَ بِأَنْصَارِ دِينِهِ الَّذِينَ نَهَضُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ طَاعَتِكَ وَهُمْ فَارَهُونَ، وَأَظْهَرَكَ عَلَى الَّذِينَ ﴿إِسْتَفَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَّوْا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: الآية ٤٨] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وأما الاستشهاد بالآيات - فهو أن يَنْبِئُهُ عَلَيْهَا، كَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ: فَقُلْتُ وَأَنْتَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: الآية ١٠٧] وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وفي الأحاديث بالتنبيه عليها أَيْضًا، كَقَوْلِ الْمَوْلَى شَهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ تَقْلِيدِ حَاكِمِيٍّ: وَنَصَلِي عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَسْتَخْرِجُهُ اللَّهُ مِنْ غُضْرٍ أَهْلُهُ وَذَوِيهِ، وَشَرَّفَ قَدْرَ جَدِّهِ بِقَوْلِهِ فِيهِ: «إِنْ عَمَّ الرَّجُلُ صِنْتُ أَبِيهِ» وَسَرَّهُ بِمَا أَسْرَ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قُتِحَ بِهِ وَيُخْتَمَ بَيْنِهِ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ لَا تُحْصَرُ.

(١) ابن نُبَاتَةَ: (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ = ١٢٨٧ - ١٣٦٦ م)، هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباتة. شاعر وكاتب وعالم بالأدب، ولد ومات في القاهرة، ووفد إلى الشام. له شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون وديوان شعر. الخ. (الأعلام، للزركلي).

وأما الحَلّ - وهو باب مُتَسِعُ المجال، وَمِلاكُ أمرِ المتصدّي له أن يكون كثير الحفظ للأحاديث النَّبَوِيَّةِ والآثَارِ والأَمْثَالِ والأَشْعَارِ لِيُنْفِقَ منها وقت الاحتياج إليها.

قال: وكيفية الحَلّ أن يَتَوَخَّى هَدْمَ البيت المنظوم، وَحَلَّ فرائده من سِلْكه، ثم يَرْتُبُ تلك الفرائدَ وما شابهها ترتيبَ متمكّنٍ لَمْ يَحْصُرْهُ الوزن، وَيُبَرِّزُهَا في أحسن سلك، وَأَجْمَلَ قَالِبٍ، وَأَصَحَّ سَبْكٍ، وَيَكْمَلُهَا بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كُلفَةٍ وَيَتَخَيَّرُ لها القرائن، وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة يَغْرَمُ له من حاصل فِكْرِهِ، أو من ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن يَنْقُلَ المعنى إذا لم يُفسده إلى ما شاء، فإن كان نَسِيًّا وتَأَتَّى له أن يجعله مديحًا فليُفعل، وكذلك غيره من الأنواع؛ وإذا أراد الحَلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فمتى قَصُرَتْ عنها ولو بلفظة واحدة فسد ذلك الحَلّ وَعُدَّ مَعْيِبًا؛ وإذا حَلَّ باللفظ فلا يَتَصَرَّفُ بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مُراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتناب ما يَنْقُصُ المعنى وَيَحْطُ رتبته؛ وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حَجَرَ على المتصَرِّف فيه.

قال: ومما وقع التصَرِّف فيه بزيادة على المعنى قولُ ضياء الدين بن الأثير الجَزَرِيِّ في ذكر العصا التي يَتَوَكَّأُ عليها الشيخ الكبير: وهذه لمبتدأ ضَعُفي خَبَرٍ، وَلِقُوسٌ ظهري وَثَرٌ، وإذا كان إلقاؤها دليلًا على الإقامة فإن حَمَلَهَا دليل على السَّفَر. والمحلول في ذلك قولُ بعضهم: [من البسيط]

* كَأَنَّنِي قَوْسُ رَامٍ وَهِيَ لِي وَثَرٌ *

وقول الآخر: [من الطويل]

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ

وأما ما يحتاج فيه إلى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب الدين محمود في تقليد:

فَكَمْ مَلَّ ضَوْءُ الصَّبْحِ مِمَّا يُغْيِرُهُ، وَظِلَامُ النَّعْمِ مِمَّا يُبَيِّرُهُ؛ وَحَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا يَلَاظُمُهُ وَالْأَجَلُ مِمَّا يَسَابِقُهُ إِلَى قَبْضِ الْأَرْوَاحِ وَبِزَاحِمِهِ.

والْقَرِينَتَانِ الْأَوَّلَيَانِ نِصْفَا بَيْتَيْنِ لِلْمَتَنِيِّ، فَأُضَافُ إِلَى كُلِّ قَرِينَةٍ مَا يَنْسَابُهَا، وَهَذَا مِنْ أَكْثَرِ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْكِتَابَةِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي جَمِيعِ كِتَابَتِهِ عَلَى الْحَلِّ، فَيَتَكَلَّلُ خَاطِرُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَذْهَبَ رَوْنُقُ الطَّبَعِ السَّلِيمِ، وَتَقْلُ مَادَّةُ الْإِنْسَجَامِ بِل

يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفوًا من غير تكلف ليكون كالشاهد على صحة الكلام، والدالُّ على الاطلاع، وكالرقم في الثوب، والشُدرة في القِلادة والواسطة في العقد، إذ لا ينبغي للكاتب أن يُخلِّي كلامه من نوع من أنواع المحاسن.

ويقرب من هذا النوع التلميح، وقد تقدّم ذكره في بعض أبواب البديع، والذي يقع في بعض استعماله في مثل ذلك مثل قول الحريري: وإني والله لطالما لقيت الشتاء بكافاته، وأعددت الأهبة له قبل موافاته. يشير إلى بيتي ابن سكرة^(١): [من البسيط]

* جاء الشتاء وعندي من حوائجه *

وهي مشهورة.

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم، وأتى الصناعة من هذه الأبواب تعيّن عليه أمور آخر نذكرها الآن.

ذكر ما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم بن محمد الشيباني^(٢): فإن أحتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكاتب والأدباء والخطباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم، فخاطب كلًا على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وأرتفاعه، وفطنته وأنتباهه، ولكل طبقة من هذه الطباق معانٍ ومذهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إليهم في كتبك، وتزّن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمته، وتوفيه نصيبه، فإنك متى أهملت ذلك وأضعته لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم، وتسلّك بهم غير مسلكهم، وتجرّي شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظّم جوهر كلامك في غير سلكه، فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظًا لائقًا بمن كاتبته، وملامسًا لمن راسلته، فإن إلباسك المعنى

(١) ابن سكرة: (٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي، أبو الحسن، المعروف بابن سكرة، شاعر طريف كبير من أهل بغداد. له ديوان شعر في أربعة مجلدات وهو صاحب البيتين: «جاء الشتاء وعندي من حوائجه...». (وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٠، والأعلام، للزركلي).

(٢) إبراهيم بن محمد الشيباني: (٢٢٣ - ٢٩٨ هـ = ٨٣٨ - ٩١١ م)، أبو اليسر، ويعرف بالرياضي الكاتب: أديب، أصله من بغداد استقر في القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبني الأغلب. له كتاب «سر الهدى» و«قطب الأدب». (الأعلام، للزركلي).

- وإن صحَّ وشُرِفَ - لفظًا مختلفًا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدره، وظلم يلحق المكتوب إليه، ونقصٌ ما يجب له، كما أنَّ في أتباع تعارُفهم، وما أنتشرت به عاداتهم، وجرت به سُنَّتهم، قُطْعًا لعذرهم، وخروجًا من حقوقهم، وبلوغًا إلى غاية مُرادهم، وإسقاطًا لحُجَّة أدبهم.

وقال أحمد بنُ محمد بن عبد ربِّه^(١): فأمثِل هذه المذاهب، وأجر على هذا القوام، وتَحَفَّظ في صدور كتبك وفصولها وأفتتاحها وخواتمها، وُضِع كل معنى في موضع يليق به، وتخيَّر لكلِّ لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى مثل: «نسأل الله دَفْعَ المحذور، وصَرْفَ المكروه» وأشباه ذلك؛ وفي موضع ذكر المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٦]؛ وفي موضع ذكر النعمة: «الحمد لله خالصًا، والشكر لله واجبًا» وما يشاكل ذلك، فإن هذه المواضع مما يَتَعَيَّن على الكاتب أن يتفقده ويتَحَفَّظ منه، فإن الكاتب إنما يصير كاتبًا بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلِّق كلَّ لفظة على طَبَقَتها في المعنى.

قال: واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آي القرآن من الاختصار والحذف، ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص، لأن الله تعالى إنما خاطب بالقرآن قومًا فَصَحَاءَ فهِمُوا عنه - جلَّ ثناؤه - أمره ونهيّه ومراده، والرسائل إنما يخاطب بها قوم دُخِلَاءَ على اللغة لا عِلْمَ لهم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنَّب اللفظ المشترك، والمعنى الملتبس، فإنه إن ذهب ليُكَاتِبَ على معنى قول الله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: الآية ٨٢] وكقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَتَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: الآية ٣٣] أحتاج أن يبيِّن أن معناه: أسأل أهل القرية، وأهل العير، وبَلْ مَكْرُكُم بالليل والنهار؛ قال: وكذلك لا يجوز أيضًا في الرسائل والبلاغات المنثورة ما يجوز في الأشعار الموزونة، لأن الشاعر مضطرٌّ، والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي، فلذلك أجازوا لهم صَرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء، وحذف ما لا يُحذف منها، واغْتَفَرُوا فيه سوء النظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار، وذلك كله غير سائغ في الرسائل، ولا جائز في البلاغات.

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربِّه: (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ = ٨٦٠ - ٩٤٠ م)، من أهل قرطبة، شاعر عالم بالأدب. له قصائد ومقطعات في المواعظ والحكم نقض كل ما نظم في صباه من الغزل. «وله العقد الفريد». (الأعلام، للزركلي).

فمما أجز في الشعر من الحذف قولُ الشاعر: [من الرجز]

* قَوَاطِنَا مَكَّةَ مِنْ وَزْقِ الْحَمَا *

يريد الحَمَام، وكقول الآخر: [من الرجز]

* صِفَرُ الْوِشَاحِينَ صَمُوتِ الْخَلْخَلِ *

يريد الْخَلْخَال، وكقول الحُطَيْثَةِ: [من البسيط]

فِيهَا الرِّمَاحُ وَفِيهَا كُلُّ سَابِغَةٍ جَذَلَاءَ مَسْرُودَةٍ مِنْ فِعْلٍ سَلَامٍ

يريد سليمان، وكقول الآخر: [من الوافر]

وَسَائِلُهُ بِثَعْلَبَةٍ بَنِي سَيْرٍ وَقَدْ عَلِقَتْ بِثَعْلَبَةِ الْعَلُوقِ^(١)

يريد ثعلبة بن سيار، وكقول الآخر: [من الطويل]

فَلَسْتُ بِأَتِيهِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ وَلَاكِ أَسْقِنِي إِنْ كَانَ مَأْوُكَ ذَا فَضْلٍ

أراد ولكن قال: وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يُصغَّر الاسمُ في موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزاً، مثل قولهم: دُوَيْهِيَّةٌ تصغيرٌ داهية، وَجَذَلٌ وَعَذِيقٌ، تصغيرٌ جَذَلٍ وَعَذِيقٍ^(٢). قال ليبد: [من الطويل]

وَكُلُّ أَنْاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفِرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

قال: فَتَخَيَّرَ مِنَ الْأَلْفَافِ أَرْجَحَهَا وَزَنَّا، وَأَجَزَلَهَا مَعْنَى وَأَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَأَكْرَمَهَا حَسَبًا، وَأَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا، وَأَدْرَجَ الْكَلَامَ فِي أَمَاكِنِهِ، وَقَلَّبَهُ عَلَى جَمِيعِ وَجْهِهِ، وَلَا تَجْعَلُ اللَّفْظَةَ قَلِيقَةً فِي مَوْضِعِهَا، نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا، فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَنْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي حَاولْتَ تَحْسِينَهُ، وَأَفْسَدْتَ الْمَكَانَ الَّذِي أَرَدْتَ إِصْلَاحَهُ فَإِنَّ وَضَعَ الْأَلْفَافِ فِي غَيْرِ أَمَاكِنِهَا، وَالْقَصْدُ بِهَا إِلَى غَيْرِ مَظَانِّهَا، إِنَّمَا هُوَ كَتَرْقِيعِ الثَّوبِ الَّذِي إِنْ لَمْ تَتَشَابَهَ رِقَاعُهُ، وَلَمْ تَتَقَارَبْ أَجْزَاؤُهُ، خَرَجَ عَنْ حَدِّ الْجِدَّةِ، وَتَغَيَّرَ حَسَنُهُ، كَمَا

(١) الْعَلُوقُ: المنيّة.

(٢) الجَذَلُ: العود الذي تحك به الإبل الجربى لتشفي. أو هو ما عظم من أصول الشجر. العَذِيقُ: النخلة بحملها. وفي ذلك إشارة إلى قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة: «إن جَذِلَها المحكك، وعَذِيقُها المرجب».

قال الشاعر: [من البسيط]

إِنَّ الْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلْقِ يَبِينُ لِلنَّاسِ أَنَّ الثُّوبَ مَرْقُوعٌ
انتهى ما أورده أبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ.

وقال المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي: ومما يتعين على الكاتب استعماله، والمحافظة عليه، والتمسك به، إعطاء كلِّ مقام حقَّه، فإذا كُتِبَ في أوقات الحروب إلى ثَوَابِ المَلِكِ عنه، وإلى مقدِّمي الجيوش والسَّرايا، فليَتَوَخَّ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالَّة على القصد من غير تطويل ولا بَسْط يَضِيعُ المَقْصِدُ، ويفصلُ الكلام بعضه من بعض، ولا تهويلُ لأمر العدو يُضْعِفُ به القلوب، ولا تهوينُ لِأمر يحصلُ به الاغترار، وذكر لذلك أمثلة من إنشائه.

قال: فمن ذلك صُورَةُ كِتَابِ أَنْشَأْتُهُ إِلَى مَقْدَمِ سَرِيَّةِ كَشْفِ - ولم أَكْتُبْ به - وهو:

لَا زَالَ أَحْفَ فِي مَقَاصِدِهِ مِنْ وَطْأَةِ ضَيْفٍ، وَأَخْفَى فِي مَطَالِبِهِ مِنْ زَوْرَةِ طَيْفٍ،
وَأَسْرَعَ فِي تَنْقُلِهِ مِنْ سَحَابَةِ صَيْفٍ، وَأَزْوَعَ لِلْعِدَا فِي تَطْلُعِهِ مِنْ سَلَةِ سَيْفٍ، حَتَّى
يَعْجَبَ عَدُوُّ الدِّينِ فِي الاِطْلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِ مِنْ أَيْنَ ذُهِبَ وَكَيْفَ؟ وَيَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَوَّلَ
قِسْمَتِهِ اللَّقَاءَ حَصَلَ عَلَيْهِ فِي مَقَاصِدِهِ الْحَيْفَ؛ أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ نَحْنُهُ عَلَى الرُّكُوبِ بِطَائِفَةِ
أَعْجَلَ مِنَ السَّيْلِ، وَأَهْوَلَ مِنَ اللَّيْلِ، وَأَيْمَنَ مِنْ نَوَاصِي الْخَيْلِ؛ وَأَقْدَمَ مِنَ النَّيْمِ،
وَأَوْقَعَ عَلَى الْمَقَاصِدِ مِنَ الْغَيْثِ الْمُتَهَمِّمِ، وَأَزْوَعَ فِي مُخَاتَلَةِ الْعِدَا مِنَ الذَّنْبِ الْحَذِرِ؛
عَلَى خَيْلٍ تَجْرَى مَا وَجَدَتْ فَلَاهُ، وَتَطِيعُ رَاكِبَهَا مَهْمَا أَرَادَ مِنْهَا سُرْعَةً أَوْ أَنَاهُ؛ تَتَسَنَّمُ
الْجِبَالَ الصُّمَّ كَالْوَعْلِ، وَإِذَا جَارَتْهَا الْبُرُوقُ غَدَتْ وَرَاءَهَا : [من البسيط]

* تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ ^(١) *

وَلِيَكُنْ كَالنَّجْمِ فِي سُرَاهُ، وَبُعْدِ ذُرَاهُ؛ إِنْ جَرَى فَكَسَّهْمُ، وَإِنْ خَطَرَ فَكَوَّهْمُ؛
وَإِنْ طَلَّبَ فَكَالْلِيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكُ، وَإِنْ طُلِبَ فَكَالْجَنَّةِ الَّتِي لَا يَجِدُ رِيحَهَا مُشْرِكُ؛
حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى عَدُوِّ الدِّينِ مِنْ كُلِّ شَرْفٍ، وَيَرَى جَمْعَهُ مِنْ كُلِّ طَرْفٍ، وَلَا يُسْرِفُ فِي
الإِقَامَةِ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْخَيْرَ فِي السَّرَفِ؛ وَلِيُحَرِّزَ جَمْعَهُمْ، وَيَسْبِقَ إِلَى التَّحَرُّزِ
مِنْهُمْ بَصَرَهُمْ وَسَمْعَهُمْ؛ وَيَنْظُرَهُمْ بَعِينَ مِنْهَا الْحَزْمُ أَنْ تَرَى الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلًا،
وَصَدَّهَا الْعَزْمُ أَنْ تَرَى الْعَدُوَّ الْحَقِيرَ جَلِيلًا؛ بَلْ تَرَى الْأَمْرَ عَلَى فَصِّهِ، وَتَرَوِي الْخَبَرَ

على نَصِّه؛ وإن وَجَدَ مغرَّراً فليأخذ خَبْرَه، إن قَدَّر على الإتيان بعَيْنِه وإلَّا فليذهب أثره؛ ولا يَهيج فيما لديه نارَ حرب إلا بعد الثقة بإطفائها، ولا يُوقظ عليه عَيْنَ عدوِّ مهما ظهر له أن المصلحة في إغفائها؛ وليكشف من أمورهم ما يُبدي عند المُلتقى عَوْرَتهم، ويخمد في حالة الرُّخف قُوْرَتهم؛ وليجعل قلبه في ذلك رَيْبَةً طَرْفه، وطَلِيعَةً طَرْفه، وسَرِيَّةً كَشَفِه والله تعالى يُمِدُّه بلطفه، ويحفظه بمعقباتٍ مِن بين يديه ومن خَلْفِه.

وإذا كَتَبَ عن المَلِك في أوقات حركات العدوِّ إلى أهل الثغور يُعلمهم بالحركة للقاء العدوِّ، فليسطِّ القول في وصف العزائم، وقُوَّةِ الهِمم، وشِدَّةِ الحِمِيَّةِ للدين، وكثرةِ العساكر والجِوش، وسرعة الحركة، وطَيِّ المَراحِل، ومعالجةِ العدوِّ، وتخييلِ أسباب النصر، والوثوقِ بعوائد الله في الظُّفَر، وتقويةِ القلوب منهم، وبَسْطِ آمالهم، وَحْثهم على التيقظ، وَحْصهم على حفظ ما بأيديهم، وما أشبه ذلك، ويبرزه في أمتن كلام وأجله وأمكنه، وأقربه من القُوَّة والبَسالة، وأبعده من اللين والرقَّة، وببالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى، وأستزالي نصره وتأييده، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام، والاعتصام به في الصبر، والاستعانة به على العدوِّ، والرغبة إليه في خذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعلِ الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم، ورجاء تأخرهم، وانتظار العَرَضِيَّات في خُلْفهم، لما في ذلك من إيهام الضَّعف عن لقائهم وأستشعارِ الوَهْن والخوف منهم، وليسلك في مثل ذلك كما سلك المولى شهاب الدين محمود في نحو ما كتب في صدر كتاب سلطانيّ إلى بعض نُواب الثغور عند حركة العدوِّ، فإنه قال:

أصدرناها ومنادي التَّفير قد أعلن: يا خيل الله أركبي، ويا ملائكة الرحمن أصحبي ويا وفود الظُّفَر والتأييد أقربي؛ والعزائم قد رَكَضت على سوابق الرُّعب إلى العُدا والهَمِّمُ قد نَهَضت إلى عدوِّ الإسلام فلو كان في مَطْلَعِ الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى؛ والسيوفُ قد أُنِفَت من العُمود فكان تنفر من قُربها، والأسنةُ قد ظمَّت إلى مَوارد القلوب فتشوقت إلى الارتواء من قُلبها^(١)؛ والكُماةُ قد زَأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها، والجياد قد مَرِحَت لِمَا عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها؛ والجِوشُ قد كاثرت النجومُ أَعْدادُها، وسائرُها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادُها؛ والنفوس قد أَضرمَت الحِمِيَّةُ نارَ غضبها،

(١) القلب: بضم القاف: الآبار واحداها القلب.

وعداها حُرُّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن بَرْد الثغور وطيب شَتِيها؛ والنصرُ قد أشرقت في الوجود دلائله، والتأييدُ قد ظهرت على الوجوه مَخائله، وحُسْنُ اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن أَمَآلِ أوائله؛ والألسُنُ باستنزال نصر الله لِهَجِه والأرجاءُ بأرواح القبول أَرَجِه، والقلوبُ بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتهَجِه والحُمَاةُ وما منهم إلا من استَظَهَر بإمكان قُوته وقُوَّة إمكانه، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عدُوِّ بل عن مكانه؛ والنيَّاتُ على طلب عدوِّ الله حيث كان مجتمعهم والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع الله كان الله معه؛ وما بقي، إلا طَيُّ المَراحِل، والنزولُ على أطراف الثغور نزولُ الغيث على البلد الماحل؛ والإحاطةُ بعدوِّ الله من كل جانب، وإنزالُ نفوسهم على حكم الأمرين الأُمَريْن: مِن عذابٍ واصل، وهم ناصب؛ وإحالةُ وجودهم إلى العَدَم، وإجالةُ السيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قَدَم؛ وأصطلامهم على أيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها، وأبتلاؤهم من حَمَلاتها بريح عادٍ التي تدمر كل شيء بأمر ربها؛ فليكن مرتقبًا لطلوع طلائعها عليه، متيقنًا من كرم الله استئصالَ عدوِّه الذي إن فرَّ أدركته مِن ورائه، وإن ثَبَت أخذته مِن بين يديه؛ وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وضَمُّها، وجميعِ سَوامِ الرعايا من الأماكن المتخوفة ولَمَّها، وإصلاح ما يُحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرقة ورَمَّها، فإن الاحتياط على كل حال مِن أكَّدِ المصالح الإسلامية وأهمُّها؛ فكأنه بالعدوِّ وقد زال طَمَعُه، وزاد ظَلَعُه؛ وذَمَّ عقبى مَسِيرِه، وتحقق سوء منقلبِه ومصيرِه، وتَبَرَّأ منه الشيطان الذي دلَّاه بغروره، وأصبح لحمه مورِّعًا بين ذناب الفلا وضباعها، وبين عِقَبانِ الجَوِّ ونُسُورِه؛ ثِقَّةً من وعد الله الذي تَمَسَّكنا منه باليقين، وتَحَقَّقنا أن الله ينصر من ينصره وأن العاقبة للمتقين.

قال: وزيادة البسط في ذلك ونقصها بحسب المکتوب إليه.

وإذا كَتَب في التهاني بالفتوح، فليس إلَّا بَسْطُ الكلام، والإطنابُ في شكر نِعَمِ الله، والتبرُّؤ من الحول والقُوَّة إلَّا به، ووضفُ ما أعطى من النصر، وذكرُ ما مَنَح من الثَّبات، وتعظيمُ ما يَسُرُّ من الفتح؛ ثم ما وَصَف بعد ذلك مِن عزم وإقدام وصبرٍ وجَلَد عن المَلِك وعن جيشه حُسْن وصفه، ولاقَ ذِكْرُه، وراقَ التوسيعُ منه، وعَذَبُ بَسْطِ الكلام فيه؛ ثم كَلَمَّا اتَّسع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أَحَسَنَ وأذَلَّ على البلاغة، وأدعى لسرور المکتوب إليه، وأحسن لموقع المِنة عنده، وأشهى إلى سمعه، وأشقى لغلِيل تَشوُّقِه إلى معرفة الحال على جَلِيَّتِه، ولا بأس بتهيل أمرٍ

العدو، ووصفِ جَمْعِهِ وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ للظَفَر به؛ وقد ذَكَّرنا في باب التهاني من ذلك ما تَقَدَّمَ شرحه، فلنذكر في هذا الموضع من كلامه فيه ما لم نُورده في باب التهاني.

قال: وإن كان المكتوب إليه مَلِكًا صاحبَ مَمْلَكَةٍ منفردة تَعَيَّن أن يكون البَسْط أكثرَ، والإطنابُ أمدً، والتهويلُ أبلغُ، والشرحُ أتمُّ؛ فمن ذلك فصلُ كتبه في جواب ابن الأحمرِ صاحبِ غُرَناطَةَ من جزيرة الأندلس، قال:

أما بعد حمد الله الذي أَيْدانا بجنوده، وأنجَزَ لنا مِن نصرِ الأُمَّةِ صادقَ وعودِهِ وخَصَّنَا من أَسْتِدَامَةِ الفُتُوحِ بمزايا مَزِيدِهِ، وأَيْدانا بنصره، ونَصَرَنَا بتأييده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف رسله، وخاتَمِ أنبيائه، وأكرم عبيده، وأعزُّ من دَعَا الأمم وقد أنكرت خالقها إلى الإقرار بتوحيده، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ الذين أَسْرَقَ أَفْقَ الدين منهم بكواكب سَعُودِهِ؛ فَإِنَّا أَصْدَرْنَاها وَنَعْمُ اللهُ تَعَالَى بنا مُطِيفِهِ، ومَوَاقِعَ نصره عندنا لطيفِهِ، وجنودُ تأييده لممالك الأعداءِ إلى مَمَالِكِنَا الشريفة مُضِيفِهِ، وثغورُ الإسلامِ بِذُبْنَا عن دين الله منيره، وبإِعْلَانِنَا مَنَارَ الهدى مُنِيفِهِ؛ ونحن نَحْمَدُ الله على ذلك حمدًا نَسْتَدِيرُ به أَخْلَافَ الظَفَر، ونَسْتَدِيمُ به مَوَادَّ التأييدِ على مَنْ كَفَرَ؛ وَنَسْتَمِدُّ به عوائد النصر التي كم أَقْدَمَهَا عَلَيْنَا إِقدام، وَأَسْفَرَ لنا عنها وَجْهَ سَفَرٍ؛ وَنُهِدِي إِلَيْهِ ثَنَاءَ تَعَبَقِ بَشْرِ الرِّياضِ خَمَائِلُهُ، وَتَنَطَّقُ بِمَحْضِ الودادِ مَخَائِلُهُ، وَتُشْرِقُ على أَفْقِ مَفَاخره غَدَوَاتُهُ وَأَصَائِلُهُ؛ يُشَافِهِ مَجْدُهُ بِمَضُونِهِ، وَيُصَارِحُ فخرُهُ بِمَكُونِهِ، وَيَجْلُو على حَضْرَتِهِ العليةِ عَقَائِلَ الشَّرَفِ من أَبْكَارِ الهَنَاءِ وَغُونِهِ؛ وَتُبْدِي لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ وَرُودَ كِتَابِهِ الجَلِيلِ مُسْفَرًا عن لَوَامِعِ صفائه، مَنبِئًا بِجَوَامِعِ وَدِّهِ وَوَفَائِهِ؛ مُشْرِقًا بِأَلْيَاءِ قَرَائِدِهِ، مُحَدِّثًا بِرَوْضِ كَرَمِهِ الذي سَعِدَ رَأْيِي رَائِدِهِ؛ مَحْتَوِيًا على سروره بما بَلَغَهُ من أنباءِ النُّصْرَةِ التي سَارَتْ بِهَا إِلَيْهِ سُرْعَانُ الرُّكْبَانِ، وَذَلَّتْ بِعِزِّ مَا تُلِي مِنْهَا عَلَيْهِ غَبَادُ الصُّلْبَانِ؛ وَطَبَّقَ ذِكْرُهَا المِشَارِقَ والمِغَارِبَ، وَمَزَّقَتْ مَوَاكِبَ أَعْدَاءِ اللهِ التَّارِ وَهَمَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ أَعْدَادُ الكَوَاكِبِ، وَخَلَطَتْ الترابَ بِدمائِهِمْ حَتَّى لَمْ يُبَيِّحْ بِهَا التَّيْثُمَ، وَمَزَّجَتْ بِهَا الْفُرَاتَ حَتَّى مَا تَحَلَّ لِشَارِبٍ؛ وَهِيَ النُّصْرَةُ الَّتِي لَا يَدْرِكُ الوَصْفَ كُنْهَهَا، وَلَا تَعْرِفُ لَهَا الْبَلَاغَةَ مُشَبَّهًا فَتَذَكَّرُ شِبْهَهَا؛ وَلَا يَتَّسِعُ نِطاقُ النُّطْقِ لِذِكْرِهَا، وَلَا تَنْهَضُ الْأَلْسَنَةُ عَلَى طَوْلِ الْأَبْدِ بِشُكْرِهَا؛ فَإِنَّ التَّارَ المَخْذُولِينَ أَقْبَلُوا كَالرَّمَالِ، وَأَصْطَفَقُوا كَالْجِبَالِ؛ وَتَدَفَّقُوا كَالْبَحَارِ الزَّوَاخِرِ، وَتَوَالَوْا كَالْأَمْوَاجِ الَّتِي لَا يُعْرِفُ لَهَا الْأَوَّلُ مِنَ الْآخِرِ؛ فَصَدَمَتْهُمْ جِيوشُنَا الْمَنْصُورَةُ صَدْمَةً بَدَّدَتْ شَمْلَهُمْ، وَعَلِمَتْ الطَّيْرُ أَكْلَهُمْ؛ وَحَصَرَتْهُمْ فِي

الفضاء، وطالبت أرواحهم الكافرة بدين دينها وأسرفت في الاقتضاء؛ وحصدت منهم سيوفنا المنصورة ما يخرج عن وصف الواصف، ومزقت بقتيهم في الفلوات فكانوا كرماد أشتدت به الريح في يوم عاصف؛ وأحاطت بهم كتابنا المنصورة فلم ينج إلا من لا يؤبه له من فريقهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيدة من الفلوات إلى الفرات بين القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غير غريقهم؛ وأعقبهم تلك الكسرة أن هلك طاعيتهم أسفا وحسرة، وحزننا على من قتل من تلك المقاتلة، وأسير من تلك الأسرة، وأماته الرعب من جيوشنا المنصورة فجاءه، وأستولى عليه الوجل فجاءه من أمر الله ما جاءه؛ وقعد أخوه بعده مكانه، والخوف من عساكرنا يضعض أركانه، والفرق من جيوشنا يفرق أعوانه، ويمزق إخوانه، ويوهي سلطانه ويبرئ منه شيطانه؛ فلاذ بالالتجاء إلى سلطنا، وعاذ بأسناد الرجاء من كفنا عنه وحلمنا؛ فكرر رسله ورسائله مستعظفا، ووالى كتبه ووسائله مستعفيا من حربنا ومستسعفا؛ وما هو الآن وجنوده يتوسلون بالخضوع إلى مراحمنا؛ ويتوصلون ببذل الطاعة إلى مكارمنا؛ ويسألون صفح الصفاح الإسلامية عن رقابهم، ويبدون ما أظهره الله عليهم من الذل الذي جعلته تلك النضرة خالدا في أعقابهم؛ وسيوفنا تأنى قبول وسائلهم، وتصر على نهر سائلهم، وتمنع من الكف عن مقاتلتهم، وتأنف أن تعتمد إلا في قمم محاربهم ومقاتلتهم؛ ونحن على ما نحن من الأهبة لغزوهم في غر دارهم، وانتزاع مواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من بين أيديهم وأظفارهم؛ مستنصرين بالله على من بقي في خط المشرق منهم؛ قائمين فيهم بفرض الجهاد الذي لولا دفاع الله به لم يمتنع خط المغرب عنهم؛ ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ولو عدنا نعم الله علينا حاولنا عد ما لا نحصيه ولا نحصره.

وإن اضطر أن يكتب بمثل ذلك إلى ملك غير مسلم لكنه غير محارب، فالحكم في ذلك أن يذكر من أسباب المودة ما يقتضي المشاركة في المصار، وأن أمر هذا العدد مع كثرته أخذ بأطراف الأنامل، وآل أمره إلى ما آل، ويعظم ذكر ما جرى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائد نصر الله، وانتقامه ممن عادانا؛

فمن ذلك ما أنشأ المشار إليه لبعض ملوك البحر - ولم يكتب به - وهو:

صدرت هذه المكاتب مبشرة له بما منحنا الله من نضرة أجزل الصفاء منها سهمه، وأكمل الوفاء من التهنة بها قسمه؛ وخصه الوداد بأجل أجزائها، وأجلسه الاتحاد على أسيرة مسرتها إذا أجلس العناد غيره على بساط عزائها؛ علما بأنه الصديق

الذي تُبهِجُه مَسَارُ صديقه، والصاحبُ الذي يرى مساهمةَ صاحبه في بشرى الظَّفَر بأعدائه أدنى حقوقه؛ وذلك أنه قد علم ما كان من أمر هؤلاء التَّتار في حركاتهم الذميمة، وعَزَمَاتِهِم التي ما أَحْتَقَلُوا لها إلا وكان أَحَدُ سَلاحِهِم فيها الهَزِيمَة، وغاراتِهِم التي ما حَشَدُوا لها إِلَّا وَقَعُوا فيها بالإِياب من الغَنِيمَة؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعُدِمُوا، ولا سَلَكُوا إلينا إِلَّا وهَلَكُوا؛ حتى إِنْ الأرض إلى الآن لم تَجِفَّ من دمائِهِم، وَإِنَّ الفُرات يكاد يَشِفُّ للمتأمل عن أَشلائِهِم؛ وأن الشيطان بعد ذلك جَدَّد طَمَعَهُم، وسَكَنَ هَلَعَهُم؛ وأنسَاهُم مَصارعَ إخوانِهِم، وأَسْلَاهُم بما زَيَّنَ لَهُم من بلوغ أوطارِهِم عن أوطانِهِم؛ وقال لَهُم: لا غالب لَكُم اليوم من الناس، وتلك الوقائع التي أَصَبْتُمْ فيها قد لا يَجْري الأمر فيها على القياس؛ وَحَسَّنَ لَهُم المُحال وعَزَّمَهُم وَجَرَّاهُم على قصد البلاد المحروسة، وفي الحقيقة أَستَجَرَّهُم؛ فَحَشَدُوا جموعَهُم وَجَمَعُوا حُشودَهُم، وَأَسْتَفْرَغُوا في الاستنفار والاستظهار طاقتَهُم ومجهودَهُم؛ ومالَهُم على ذلك من المجاورين من أَبْطَنَ شِقَاقَهُ، وَكَتَمَ نِفَاقَهُ، وأنساه الشيطان ما سلف من تَفِيسِنَا عنه وقد لازم الحَتْفَ خِنَاقَهُ؛ ونحن في ذلك نُوسِعُهُم إِمهالاً، وَنَبْسُطُ لَهُم في التَّوْغُلِ آمالاً، وَنَأْخُذُ أَمْرَهُم بالأنانة أَستدراجاً لَهُم لا إِمهالاً؛ إلى أَنْ بَعُدُوا عن مَواطنِ الهَرَبِ، وَحَصَلَ من أَستدراجِهِم الأَرَبُ؛ فوُثِنَا عَلَيْهِم وَثُوبَ اللَّيْث إذا ظَفِرَ بِصَيْدِهِ، وَنَهَضْنَا نَحْوَهُم نُهَوِّضُ الحازم إذا وَقَعَ عَدُوهُ في أَحْبُولَةٍ كِيدِهِ؛ وَصَدَمْتُهُم جِيوشُنَا المنصورة صَدْمَةً قَلَّتْ غَزَبُهُم، وَأَبْطَلْتُ طَغْنَهُم وَضَرْبَهُم، وَصَبَغْتُ بِدُمَائِهِم تُرْبَهُم؛ وَحَكَّمْتُ السِيفَ في مَقَاتِلِهِم، وَمَكَّنْتُ الحُتُوفَ من صاحبِ رَأْيِهِم ومُقَاتِلِهِم؛ وَسَلَّطْتُ العَدَمَ على وجودِهِم، وَحَطَّطْتُهُم عن سُروجِهِم إلى مَصارعِهِم أو قُبُودِهِم؛ ﴿فَعَلِيلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١١٩]، وعادُوا على عادَتِهِم خاسئين، وَرَجَعُوا على أَعْقَابِهِم خاسرين؛ وما أَغْنَى عَنْهُمْ جَمْعُهُم، وما أَفَادَهُم بَصَرُهُم فيما شاهده من قبل ولا سَمْعُهُم؛ فَرَكَنَ من بَقِيٍّ مِنْهُمْ إلى الفِرار، وعادَ بِيَزْدِ الهَرَبِ مِنْ لَهَبِ تلك السِيفِ الحَرارِ وَظَنَ من أَنهزم مِنْهُمْ أَنه فات الرماح، فَتَنَاولَتْهُ بِأَرمَاحٍ من العطشِ القِفارِ؛ فَوَلَّوْا والرعبُ يَزَلِزِلُ أَقدامَهُم، والدُّغْرُ يَقْلِلُ إِقدامَهُم؛ وَالصَّفَاحُ تَتَخَطَّفُهُم من ورائِهِم والجِراحُ تُطْمِعُ الطَّيْرَ في أَكلِهِم حتى تَقَعَ على أَحْيائِهِم؛ حتى أَصْبَحُوا هَشِيمًا تَلْعَبُ بِهِم الصُّبَا والدُّبُور، أو أَحْيَاءُ يَشْسُ مِنْهُمْ أَهْلُهُم: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: الآية ١٣] وَصَفَحْنَا عَمَّنْ نَافَقْنَا وَوَأَفَقَّهُم وَلَوْلا ذلك لَمَّا نَجَا، وَرَجَا عَواظُنَا في الإِبْقَاءِ على نَفْسِهِ، فَأَجَابَهُ جِلْمُنَا - وَعِلْمُنَا أَنه في القَبْضَةِ -

إلى ما رَجَا؛ فليأخذ المَلِك حظه من هذه البشرى التي تَسُرُّ قلبَ الوليِّ المُحبِّ بوادِرْها، وتُشرح صدر الحَفِيِّ المُحِقِّ مواردُها ومَصَادِرْها؛ والله تعالى يُبهِجُه عنا بسماع أمثالها، ويديمُ سروره بما جلوانه عليه من مثالها.

قال: فَإِنْ كان المكتوب إليه مَتَهَمًا بِمُأَلَاةِ العدوِّ كتب إليه بما يَدُلُّ على التقرُّع والتَهَكُّم، وإبراز التهديد في مَعْرِضِ الإخبار، كما كتب المشار إليه عن السلطان إلى مَتَمَلِّك سِيس^(١) - وكان قد شَهِد الواقعة مع العدو - قال منه:

بَصَّرَه الله برشدِه، وأراه مَوَاقِعَ غَيِّهِ في الإصرار على مخالفتِه ونقض عهده وأسلاه بسلامة نفسه عَمَن رَوَعَتِه السيوف الإسلامية بفقيده؛ صدرت تُعَرِّفه أنه قد تَحَقَّق ما كان من أمر العدو الذي دلَّاه بِغُرُورِه، وَحَمَلَه التمسك بخداعه على مجانية الصواب في أموره؛ وأنهم أَسْتَنَجَدُوا بِكُلِّ طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة؛ وذلك بعد أن أقاموا مَدَّة يشترُونَ المُخَادَعَةَ بالموادعة، وَيُسِرُّون المصارمة في المسالمة؛ وَيُظْهِرون في الظاهر أُمُورًا، ويدبُّرون في الباطن أُمُورًا، وَيَعِدُّون كل طائفة من أعداء الدين مثله وَيُمَتُّونهم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: الآية ١٢٠]؛ وَكُنَّا بِمَكْرِهِم عَالِمِينَ، وعلى معالجتهم عاملين؛ وحين تَبَيَّن مرادهم وتكَمَّل أحْتِشَادُهُمْ؛ استدرجناهم إلى مَصَارِعِهِمْ، واستجرناهم لِيَقْرُبُوا في القتل مِن مَضَاجِعِهِمْ، وَيَعُدُّوا في الهَرَب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوة أشد صدمة لم يكن لهم قَبْل، وَحَمَلْنَا عليهم حَمْلَةً أَلْجَأَهُمْ طُوفَانُهَا إلى ذلك الجبل، وهل تَعَصِم من أمر الله جَيْل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المُتَّسِع، وضائقناهم كما قد رأى ومزَّقناهم كما قد سَمِع، وأنزلناهم على حُكْم السيف الذي نَهَلَ من دمائهم حتى زَوِيَ وأكَل من لُحُومِهِمْ حتى شَبِع، وَتَبِعْتَهُمْ جيوشنا المنصورة تَتَخَطَّفُهُمْ رماحُها، وَتَتَلَقَّفُهُمْ صِفاخُها، وَيَبْدُدُهُمْ في الفُلُوات رُعْبُها، وَيَفْرِقُهُمْ في القِفَار طَعْنُهَا المتدارك وضربُها؛ وَيَقْتُل من فات السيوف منهم العطش والجوع، وَيُخَيِّل للحَيِّ منهم أَنَّ وطنه كالدنيا التي ليس للميت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى ذلك فوق ما وُصِفَ عِيَانًا، وَتَحَقَّق من كل ما لا يحتاج أن نَزِيدَه به علمًا ولا نُقِيمَ له عليه برهانًا؛ وقد عَلِم أَنَّ أمر هذا العدو المخذول ما زال معنا على هذه الوَتِيرَةِ، وأنهم ما أقدموا إلا وَنَصَرَ اللهُ عليهم في مَوَاطِنَ كثيرة؛ وما ساقَتْهم الأطماع في وقتٍ إلا إلى حُتُوفِهِمْ، ولا عَادَ منهم قَطُّ في

(١) سِيس: أو سِيسِيَّة، ثغر في بلاد الشام يقع بين أنطاكية وطرطوس على عين زربة. (ياقوت معجم

وقعة إلا آحاداً تُخبر عن مَصارع الوُفهم؛ ولقد أضاع الحَزَم من حيث لم يَسْتدِم نَعَم الله عليه بطاعتنا التي كان في مِهَادِ أَمْنِها، وِوَهَادِ يَمْنِها؛ وِحِمَاية عفوها، وِبَرْد رَأْفَتِها التي كَدَّرْها بالمخالفة بَعْدَ صَفْوِها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويَحْمِي أهل مِلَّتِه بالحَذَر من الحركات التي ما نَهَضوا إليها إلا وجرّوا ذبول الحَسار؛ ولقد عَرَّض نفسه وأصحابَه لسيوفنا التي كان من سَطَوَاتِها في أمان، ووَثِق بما ضَمِن له التُّتار عَناء كان عنه في غنى، وأوقع رُوحه بمضافرة المغول في حومة السيوف التي تخَطَّفت أوليائه مِن هنا وَمِن هنا؛ واقتَحَم بنفسه مَوارِدَ هلاك سَلَبَت رداء الأَمَن عن مَنَكِبِيه وأَعْتَزَّ هو وقومُه بما زَيَّن لهم الشيطان من غُرُورِه ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]، وما هو والوقوفُ في هذه المَواطِن التي تنزلُ فيها أقدام الملوك الأكاسرة وأتَى لِضعافِ التُّقَادِ قِدرَةٌ على الثَّباتِ لوَثَّباتِ الأسود الضارية واللُّيُوثِ الكاسرة؛ لقد أَعْتَرض بين السهم والهِدَفِ بَنَحْرِه، وتَعَرَّض للوقوف بين ناب الأسد وظُفْرِه؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في الوصول إليها؛ ونُجْريه وأهلَ بلاده مُجْرى أهلِ ذِمَّتِنَا الذين لا نُؤَيِّسهم من عفونا مهما أَسْتقاموا، ونَسْلُكُ بهم حُكْمَ من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قَبْضَتِنَا نَزَحُوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقَّق أنه ما بَقِيَ يَنْسَى ملازِمَةَ رِبْقَةِ الحَتَفِ خِنَاقَه، ولا يَرْجِعُ يَهْوَِرُ نفسه في مَوارِدِ الهلاك، وهل يَرْجِعُ إلى الموت من ذاقَه؟ فَيَسْتَدْرِكُ بابَ الإِنابَةِ قَبْلَ أن يُغْلِقَ دَوْنَه، ويصون نفسه وأهلَه قَبْلَ أن تَبْذُلَ السيوفُ الإِسلامِيَّةَ مَصُونَه، ويبادر إلى الطاعة قبل أن يَبْذُلْها فلا تُقْبَلَ، وَيَتَمَسَّكُ بأذيالِ العفو قبل أن تُرْفَعَ دُونَه فلا تُسْبَلُ؛ وَيُعْجَلُ بِحَمْلِ أُمُوالِ القَطِيعَةِ وإلا كان أهلُه وأولادُه في جُمْلَةٍ ما يُحْمَلُ منها إلينا، وَيُسَلِّمُ مَفاتِحَ ما عدا عليه من قُتُوحنا، وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخَّر في بلاده بين يَدِينَا؛ ويَكُونُ هو السببُ في تَمَرُّقِ شَمْلِه، وتَفَرُّقِ أَهْلِه، وقُلْعِ بَيْتِه من أصلِه؛ وَهَدَمِ كَنائِسِه، وأَبْذالِ نَفْسِه ونَفائِسِه؛ واسترقاق حَرَمِه، وأَسْتِخدامِ أولادِه قَبْلَ خَدَمِه؛ وأَقْتِلاعِ قِلاعِه، وإِحْراقِ رُبُوعِه ورِباعِه^(١)، وتعجيلِ رُؤْيِه ما أوعَدَ به قبل سَماعِه، ومن لقازان بأن يجابَ إلى مثل ذلك، أو يُسَمَحَ له مع الأَمَن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ لِيَقْنَعَ بما أَبْقَت جِوشُنَا المؤيَّدَةُ في يده من الخيل والحول، وَيَعِيشَ في الأَمَن ببعض ما نَسْمَحُ له به، ومن للُغُورِ بالحول؛ والسيوفُ

(١) الرِّباع: جمع رُبْع، وهو الفصيل في أول التَّاج، والمراد الماشية.

الآن مُصَغِيَةً إلى جوابه لتُكفَّ إن أبصر سُبُل الرشاد، أو تَتَعَوَّضَ برؤوس حُمَاتِهِ وكُمَاتِهِ عن الأغماد إن أصرَّ على العناد، والخير يكون.

وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلَّق بذلك - فالأحسن فيها بَسْطُ الكلام، وتُعْتَبَرُ كثرته وقلَّته بحسَبِ الرتَب، ويجب أن يراعى فيها أمور:

منها بَراعة الاستهلال بذكر الرتبة أو المال، أو قُدْرِ النعمة، أو لقبِ صاحب التقليد أو أسمِه بحيث لا يكون المَطْلَعُ أجنبياً من هذه الأحوال، ولا بعيداً منها، ولا مبايناً لها، ثم يَسْتَصِحُّبُ ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أوَّل الخطبة إلى آخرها؛ قال: وَيَحْسُنُ أن يكون الكلام في التقليد منقسمًا إلى أربعة أقسام متقاربة المقادير، فالرُّبُعُ الأوَّلُ الخُطْبَةُ، والثاني ذِكْرُ مَوْقع الإنعام في حقِّ المقلِّد، وذِكْرُ الرتبة وتفخيمُ أمرها، والثالث في أوصاف المقلِّد وذِكْرُ ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة وبُعدِ صِيت، وسُمْنَةٍ وشجاعة إن كان نائباً، ووَصْفُ العدل والرأي وحسن التدبير، والمعرفة بوجوه الأموال، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً؛ وكذلك في كلِّ رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا؛

ومنها أن يُرَاعِيَ المناسبة وما تقتضيه الحال، فلا يُعْطِي أحداً فوق حَقِّه، ولا يصفه بأكثر مما يراد مِن مثله، ويراعي أيضاً مقدار النعمة والرتبة، فيكون وصفُ المِنة على مقدار ذلك.

ومنها أن لا يصف المتولِّيَ بما يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقُصُ له، فإنَّ ذلك مما يُوغِر الصدور، ويؤرِّث الضغائن في القلوب، ويدلُّ على ضعف الآراء في اختيار الأوَّل، وله أن يصف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوَّل؛

ومنها أن يَتَخَيَّرَ الكلام والمعاني، فإنه مما يَشِيع وَيَذِيع، ولا يُعْذَرُ المَقْصُرُ في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت، فإنَّ مَجَالَ الكلام عليه مَتَّسِعٌ، والبلاغة تَظْهَرُ في القليل والكثير، والأمر الجاري في ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياء خارجة عن العادة، نادرة الوقوع، فيحتاج الكاتب فيها إلى حسن التصرف على ما تقتضيه الحال؛ فمن ذلك تقليدُ من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبيّ كتبه لمتملك سويس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده، وهو:

الحمد لله الذي خَصَّ أياมนา الزاهرةً باصطناع ملوك الملل، وفضَّل دولتنا القاهرةً بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيضُ والأسل، وجعل من خصائص

ملكنا إطلاقَ الممالك وإعطاءَ الدُّول، والمَنَّ بالنفوس التي جعلها النصر لنا من جملة الخَوْل، وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مَدَّ إلى عوارفنا كَفَّ الأمل، وأفاض بمواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة حُلَّ الأمن بعد الوجَل، وأنزَع بالآثنا لمن تمسك بولائنا أرواحَ رعاياه من قُبضة الأجل، وجعل بَرْد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب، إذ ربما صَحَّت الأجسام بالعلل؛ نَحْمَدُه على نعمه التي جعلت عفونًا ممن رجاه قريبًا وكرمنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مُجيبًا، وبرنا لمن أقبل إليه منيًّا بوجه الأمل مُثيبًا، وبأسنا مصيبًا لمن لم يجعل الله له في التمسك بمَراحمنا نصيبًا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تَعَصِمُ دم من تَمَسَّك بذيامها، وتَحْسِمُ مَوَادَّ من عاندها بانتقام حسامها، وتَقْصِمُ عُرَى الأعناق ممن أطمعه الغرور في انفصال أحكامها وأنفصامها، وتَقْصِمُ مَنْ قصد إطفاء ما أظهره الله من نورها، وانقطاع ما قضاه من دوامها، وتَجْعَلُ كلمة حَمَلَتِها هي العليا، فلا تَزَالُ أعناقُ جاحديها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله المبعوث بالهدى ودين الحق إلى كلِّ أمة، المنعوت في الكتب المنزلة بالرأفة والرحمة، المخصوص مع عموم المعجزات بخمس منهنَّ الرعبُ الذي كان يتقدَّمه إلى مَنْ قصده، ويسبقه مَسِيرَةُ شهر إلى من أمَّه، المنصوص في الصحف المحكَّمة على جهاد أمته، الذي لا حياة لمن لم يَتَمَسَّك من طاعته بذيَمته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأوضحوا بشِرْعته إلى الله المسالك، وجلَّوا بنور سُنته عن وجه الزمن كلَّ حال حالك، وأوردوا من كفر بربههم ورسله مَوارد الممالك، ووثقوا بما وعد الله نبيَّه حين رَوَى له مَشارِقُ الأرض ومَغَارِبُها من أن مُلْكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاة لا تَزَالُ الأرض لها مسجداً، ولا يَبْرَحُ ذِكْرُها مُغِيرًا في الآفاق ومنجداً؛ ما أَسْتَفْتَحْتُ ألسنة الأسيئة النصر بإقامتها، وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإنه لما آتانا الله مُلْكَ البَسِيطة، وجَعَلَ دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطية؛ ومَكَّنَ لنا في الآفاق، وأنَهَضَنَا من الجهاد في سبيله بالسنة والفرض، وجَعَلَ كلَّ يوم تُعَرِّضُ فيه جيوشنا من أمثلة يوم العَرَض؛ وأظَلَّتْنا بوادِرُ الفتوح، وأظَلَّتْ على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر النعمة دعوة نوح وأيدنا بالملائكة والروح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً فانتَصَرَ بالأب والابن والروح؛ وألقت إلينا ملوك الأقطار السَّلَم، وبَذَلَتْ كرائم بلادها رغبة في الالتجاء من عفونا إلى ظل

أعلى من علم؛ وتَوَسَّل من كان منهم يُظهِر الغِلظة بالدَّلَّة والخضوع وتَوَصَّل من كان منهم يُبدي القوَّة بالإخلاص الذي رآوه لهم أَقْوَى الجُنن وأَوْقَى الدروع؛ عَاهَدَنَا اللهُ تعالى أَلَّا نَرَدَّ مِنْهُمْ أَمَلًا، وَلَا نَصُدَّ عَنْ مَشَارِعِ كَرَمِنَا نَاهِلًا؛ وَلَا نَخِيبَ مِنْ إِحْسَانِنَا رَاجِيًا، وَلَا نُجْلِي عَنْ ظِلِّ بَرْنَا لَاجِيًا؛ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ شَكْرٌ لِلْقُدْرَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَنَا عَلَى ذَلِكَ الْأَمَلِ، وَوُثُوقًا بِأَنَّهُ حَيْثُ كَانَ فِي قَبْضَتِنَا كَمَا نَشَاءُ نَجْمَعُ عَلَيْهِ الْأَنَامِلَ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اللَّاجِيُّ لِلْغَلِّ مُسِيرًا، وَعَلَى عِدَاوَةِ الْإِسْلَامِ مُصِيرًا؛ فَيَكُونَ هُوَ الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ، وَالْجَانِي^(١) عَلَى مَوْضِعِ رَمْسِهِ^(٢)؛ وَلَمَّا كَانَ مِنْ تَقَدَّمَ بِالْمَمْلَكَةِ الْفَلَانِيَّةِ قَدْ زَيْنَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُ، وَعَقَّدَ بِجِبَالِ الْغُرُورِ أَمَالَهُ؛ وَحَسَّنَ لَهُ التَّمَسُّكَ بِالتَّنَارِ الَّذِينَ هُمْ بِمَهَابَتِنَا مُحْصَرُونَ فِي دِيَارِهِمْ، مَأْسُورُونَ فِي حَبَائِلِ إِدْبَارِهِمْ؛ عَاجِزُونَ عَنْ حِفْظِ مَا لَدَيْهِمْ، قَاصِرُونَ عَنْ ضَبْطِ مَا اسْتَلْبَثَتْهُ سَرَايَانَا الْمَنْصُورَةُ مِنْ يَدَيْهِمْ؛ لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ لَهُ عِنْدَ سَيُوفِنَا ثَارٌ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ عِنْدَنَا مِنْ خُطَّتِي خَسَفَ: إِمَّا الْقَتْلَ أَوْ الْإِسَارَ؛ وَحِينَ تَمَادَى الْمَذْكُورُ فِي غَيْهِ، وَحَمَلَهُ الْغُرُورُ عَلَى رُكُوبِ جَوَادِ بَغِيهِ؛ أَمَرْنَا جِيُوشَنَا الْمَنْصُورَةَ فَجَاسَتْ خِلَالَ تِلْكَ الْمَمَالِكِ وَدَاسَتْ حَوَافِرُ خَيْلِهَا مَا هُنَاكَ، وَسَاوَتْ فِي عُمُومِ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْحَرِّ وَالْمَمْلُوكِ وَالْمَالِكِ؛ وَأَلْحَقْتَ رَوَاسِيَ جِبَالِهِمْ بِالضَّعِيدِ، وَجَعَلْتَ حُمَاتِهِمْ كَزُرُوعِ فَلَاتِهِمْ مِنْهَا قَائِمٌ وَخَصِيدٌ؛ فَاسْلَمَهُمُ الشَّيْطَانُ وَمَرَّ، وَتَرَكَهُمْ وَفَرَ، وَمَاكَرَهُمْ وَمَا كَرَّ^(٣) وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ السَّاعَةَ مَوْعِدُهُمْ ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ [القَمَرُ: الْآيَةُ ٤٦] وَأَخْلَفَهُمْ مَا ضَمِنَ لَهُمْ مِنَ الْعَوْنِ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الْأَنْفَالُ: الْآيَةُ ٤٨]؛ وَكَانَ الْمَلِكُ فَلَانٌ مِمَّنْ يَرِيدُ طُرُقَ النِّجَاةِ فَلَمْ يَرِ إِلَيْهَا بِسِوَى الطَّاعَةِ سَبِيلًا، وَيَأْمُلُ أَسْبَابَ النِّجَاحِ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهَا غَيْرَ صَدَقِ الْإِنْتِمَاءِ دَلِيلًا؛ فَأَبْصَرَ بِالْحَذَقِ مَوْضِعَ رُشْدِهِ، وَأَدْرَكَ بِسَعْيِهِ نَافَرَ سَعْدِهِ؛ وَأَرَاهُ الْإِقْبَالَ كَيْفَ تَثَبَّتْ قَدُمُهُ فِي الْمَلِكِ الَّذِي زَلَّتْ عَنْهُ قَدُمُ مَنْ سَلَفَ، وَأَظْهَرَ لَهُ الْإِشْفَاقُ عَلَى رَعَايَاهُ مَصَارِعَ مِنْ أَوْرَدَهُ سَوْءَ تَدْبِيرِ أَخِيهِ مَوَارِدِ التَّلَفِ، وَعَرَفَهُ التَّمَسُّكَ بِإِحْسَانِنَا كَيْفَ أَحْتَوَتْ يَدُهُ عَلَى مَا لَمْ يُبْقِ غَضْبُنَا فِي يَدِ أَخِيهِ مِنْهُ إِلَّا الْأَسَى وَالْأَسْفَ؛ وَحَسَنْتَ لَهُ الثِّقَةُ بِكَرْمِنَا كَيْفَ يَجْمَلُ الطَّلِبُ، وَعَلِمْتَهُ الطَّاعَةَ كَيْفَ تُسْتَنْزَلُ عَوَارِفُنَا عَنْ بَعْضِ مَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ سَيُوفُنَا وَإِنَّمَا الدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَ؛ وَأَنْتَمَى إِلَيْنَا فَصَارَ مِنْ خَدَمِ أَيْامِنَا، وَصَنَائِعِ إِنْعَامِنَا، وَقَطَعَ عِلَاقَتَهُ مِنْ غَيْرِنَا؛ فَلَجَأَ مِنَّا إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَظَلٌّ مَدِيدٍ،

(٢) الرمس: القبر.

(١) الجاني: الراكع.

(٣) ماكرهم: خادعهم. ما كَرَّ: لم يهجم.

ونَصِرَ عَتِيدٌ؛ وَحَرَمَ يَاوِي أَمَلُهُ إِلَيْهِ، وَكَرَّمَ ثَقَرَّ نَضَارَتُهُ نَازِرِيَهُ، وَإِحْسَانٌ يُمْتَعَهُ بِمَا أَقَرَّهِ عَطَاؤُنَا فِي يَدَيْهِ، وَأَمْتَنَانٍ يَضَعُ عَنْهُ إِضْرَهُ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ؛ اقْتَضَى إِحْسَانُنَا أَنْ نُغْضِيَ لَهُ عَنْ بَعْضِ مَا حَلَّتْ جِيوشُنَا ذَرَاهُ وَحَلَّتْ سَطَوَاتُ عَسَاكِرِنَا غُرَاهُ؛ وَأَضْعَفَتْ عَزَمَاتُ سَرَايَانَا قَوَاهُ، وَنَشَرَتْ طَلَائِعُ جُنُودِنَا مَا كَانَ سَتَرَهُ صَفْحُنَا عَنْهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ بِلَادِهِمْ وَطَوَاهُ؛ وَأَنْ نَخْوَلَهُ بَعْضُ مَا وَرَدَتْ خِيُولُنَا مِنْهَا، وَوَطِئَتْ جِيَاذُنَا غَارِبَهُ وَكَاهَلَهُ؛ وَسَلَكْتَ كُمَاتِنَا فَمَلَكْتَ دَارِسَهُ وَآهَلَهُ؛ وَأَنْ نُبْقِيَ مَمْلَكَةَ الْبَيْتِ الَّتِي مَضَى سَلْفُهُ فِي الطَّاعَةِ عَلَيْهِ، وَيَسْتَمِرَّ مُلْكُ الْأَرْمَنِ الَّتِي أَهْمَلَ السَّعْيَ فِي مَصَالِحِهِ بِيَدَيْهِ؛ لِيَتَيَمَّنَ رَعَايَاهُ بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ أَمِنُوا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ بِسَبَبِهِ؛ وَيَتَحَقَّقُوا أَنَّ أَثْقَالَهُمْ بِحُسْنِ تَوْصُلِهِ إِلَى طَاعَتِنَا قَدْ خَفَّتْ، وَأَنَّ بَوَادِرَ الْأَمْنِ بِلَطْفِ تَوْصُلِهِ إِلَى مَرَاضِينَا قَدْ أَطَافَتْ بِهِمْ وَخَفَّتْ وَأَنَّ سِيَوْفَنَا الَّتِي كَانَتْ مَجْرَدَةً عَلَى مَقَاتِلِهِمْ بِجَمِيلِ اسْتِعْطَافِهِ قَدْ كَفَّتْهُمْ بِأَسْنَا وَكَفَّتْ وَأَنَّ سَطَوَاتِنَا الْحَاكِمَةَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ قَدْ عَفَّتْ^(١) عَنْهُمْ بِمَلَاطِفَتِهِ وَعَفَّتْ^(٢)؛ فَرَسَمَ أَنْ يُقْلَدَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْفَلَانِيَةِ، وَيَسْتَقَرَّ بِيَدِهِ اسْتِقْرَارًا لَا يَنْزَاعُ فِي اسْتِحْقَاقِهِ وَلَا يُعَارِضُ فِيهَا سَبَقُ مَنْ إِعْطَانِهِ وَإِطْلَاقِهِ؛ وَلَا يَطَالِبُ عَنْهُ بِقَطِيعَةٍ^(٣)، وَلَا يُطَلِّبُ مِنْهُ بِسَبَبِهِ غَيْرُ طَوِيَّةٍ مُخْلِصَةٍ وَنَفْسٍ مُطِيعَةٍ؛ وَلَا يَخْشَى عَلَيْهِ يَدًا جَائِرَةً، وَلَا سَرِيَّةً فِي طَلَبِ الْغَزَا سَائِرَةً؛ وَلَا يَطْرُقُ كِنَاسَهُ^(٤) أَسَدُ جِيُوشِ مَفْتَرِسَةٍ، وَلَا سَبَاحُ نِهَابٍ مُخْتَلِسَةٍ؛ بَلْ تَسْتَمِرُّ بِلَادُهُ الْمَذْكُورَةُ فِي ذِمَامِ رَعَايَتِنَا، وَخَصَانَةِ عَنَانَتِنَا؛ وَكَتَفِ إِحْسَانِنَا، وَوَدِيعَةِ بَرْنَا وَأَمْتَنَانِنَا؛ لَا تَطْمَحُ إِلَيْهَا عَيْنُ مُعَانِدٍ، وَلَا يَمْتَدُّ إِلَيْهَا إِلَّا سَاعِدُ مُسَاعِدٍ، وَعَضْدُ مُعَاوِدٍ؛ فَلِيُقَابِلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ الَّذِي هَدَانَا إِلَى الطَّاعَةِ وَصَانَ بِإِخْلَاصٍ وَلَآئِهِ نَفْسَهُ وَنَفَائِسَ بِلَادِهِ مِنَ الْإِضَاعَةِ؛ وَلِيَقْرَنَ ذَلِكَ بِإِصْفَاءِ مَوَارِدِ الْمَوَدَّةِ، وَإِضْفَاءِ مَلَابِسِ الطَّاعَةِ الَّتِي لَا تَزْدَادُ بِحُسْنِ الْوَفَاءِ إِلَّا جَدَّهُ؛ وَأَسْتَمِرَّ الرِّمَاطُ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ، وَاجْتَنَابُ الْمَخَادَعَةِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ فِي مَا اسْتَقَرَّ مَعَهُ الْحِلْفُ^(٥) عَلَيْهِ، وَمُبَايَنَةُ مَا يَخْشَى أَنْ يَتَوَجَّهَ بِسَبَبِهِ وَجْهٌ عَثَبَ إِلَيْهِ؛ وَأَسْتَدَامَةُ هَذِهِ النِّعْمَةِ بِحِفْظِ أَسْبَابِهَا، وَأَسْتِقَامَةُ أَحْوَالِ هَذِهِ الْمِثَّةِ بِرَفْضِ مُوجِبَاتِ الْكَدْرِ وَاجْتِنَابِهَا، وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ الَّتِي لَا تُعْتَبَرُ ظَوَاهِرُ الْأَحْوَالِ الصَّالِحَةِ إِلَّا بِهَا.

(١) عفت: أعطت العفو، أي صفحت.

(٢) عفت: زالت.

(٣) القطيعة: الضريبة.

(٤) الكناس: بيت الأسد.

(٥) الحلف: العهد.

ومن تقليدِ كتبه المُشارُ إليه أيضًا لسلامش بمملكة الروم حين ورد كتابه يسأل ذلك قَبْل حضوره، أوله:

الحمد لله الذي أيدنا بنصره، وأمدنا من جنود الظفر بما لم يؤت ملك في عصره، وجعل مهابتنا قائمة في جهاد عدو الدين، إن قَرُب مقام كسره، وإن بُعد مقام خصره، ونشر دعوة ملكنا في الأقطار كلها إذا اقتضت دعوة غيرنا من ملوك الأمصار على مصره، وأنجد من نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذي لم تزل أرواح العدا بأسرها في أسره، وعصّد من تمسك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بما هو أقرب إلى مقاتل عدوه من بيضه المزهفة وسُمره، وأعاد بنا من حقوق الدين كل ضالة ملِك ظن العدو أن أمره غالبٌ عليها والله غالبٌ على أمره؛ فجنودنا إلى نُصرة من دعاها بالإيمان أقرب من رجع نفسه إليه، وأسرع من ردّ الصدى جوابه عليه؛ وأسبق إلى عدو الدين من مواقع عيانه، وأقدر على التصرف في أرواح أهل الشرك من تصرف الكمي في عيانه؛ وأدب عن حمى الدين من الجفون عن نواظرها، وأضرى على نفوس المعتدين من أسود عنت الفرائس لكواسرها؛ قد عودها النصر الإلهي ألا تسلّ ظباها فتعتمد حتى تستباح ممالك، وضمن لها الوعد المحمدي أنها الطائفة الذين لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك؛ نحمده على نعمه التي لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول، ونقلد بيمنها من لجأ إلينا سيف نصر يصدع به ليل العدا ولو أن النجوم نصول، وتورد بأسمها من أنتصر بنا مورد عز يحرمه لمع الأسته فوقه، فليس لظمان من العدا إليه ووصول؛ وبعد، فإن أولى من أضغت عزائمنا الشريفة إلى نداء إخلاصه، وأجابت مكارمنا العقيمة دعاء تميزه بالولاء واختصاصه، وقابلت مراسمنا انتصاره في الدين بالتفكير لإعانتته على ما ظفر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصه، وتكفلت له مهابتنا بالأمن على ملك مذ وسمه باسمنا الشريف يثس العدو من استخلاصه؛ وأجيت كتبه في الاستنجاد بسرعان الكتاب، ولَمعان القواضب، وتتابع أمداد جيوشنا التي تنوء بحملها كواهل المشارق والمغارب، وتدق أمواج عساكرنا التي تُنشد طلائعها ملوك العدا: [من الكامل]

* «أين الفرار ولا مفر لهارب» *

وتألق بروق النصر من خفق ألويتنا الشاهدة بأن قيلنا: [من الطويل]

* «إذا ما التقى الجمعان أول غالب» *

ومنه:

وَقَوَّضْتُ إِلَيْهِ مَرَّاسِمُنَا الْحُكْمَ فِي الرعايا بالعدل والإحسان، وَقَلَّدْتُهُ أَوْامِرُنَا مِنْ عُقُودِ النَّظَرِ فِي تِلْكَ الْمَمَالِكِ مَا تَوَدَّ جِبَاهُ الْمُلُوكِ لَوْ حَلَّتْ بِدُرِّهَا مَعَاقِدَ التَّيْجَانِ، وَعَلَّقَتْ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ مَا بَنَّا تَنْفُذَ مَوَاقِعِهِ، وَكَذَا الْأُمُورِ الْمَعْتَبِرَةَ لَا تَنْفُذَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ؛ مِنْ أَلْقَى اللَّهَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَهَدَاهُ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ فَأَصْبَحَ فِيهِ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَأَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَفَقَلَهُ مِنْ جِزْبِ الشَّيْطَانِ إِلَى حِزْبِهِ، وَأَنْقَذَهُ بِطَاعَتِهِ مِنْ مَوَارِدِ الْهَلَاكِ بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ أَذِنَ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَقَدْ خَسِرَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةَ مِنْ أَذْنٍ مِنَ اللَّهِ بِحَرْبِهِ؛ وَأَيَّقَظُهُ مِنْ طَاعَتِنَا الَّتِي أَوْجِبُهَا عَلَى الْأُمَمِ لَمَّا أَبْصَرَ بِهِ رَشْدَهُ، وَرَأَى قَصْدَهُ، وَعَلِمَ بِهِ أَنَّ الَّذِي كَانَ فِيهِ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ^(١) لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وَأَنَّ الَّذِينَ أَنْتَقَلَ إِلَيْهِ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ؛ وَأَنْهَضَهُ مِنْ مُوَالَاتِنَا بِمَا حَتَمَ بِهِ التَّهْوِضَ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا، وَأَخْرَجَهُ بِنُورِ الْهُدَى مِنْ عِدَادِ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ تَزَكَّاهُمْ خَوْفُنَا: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنْ أَيْلٍ مُّظْلِمًا﴾ [يُونُس: الآية ٢٧]؛ وَأَرَاهُ الرِّشْدُ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْرَثَنَا مُلْكَ الْإِسْلَامِ فَبَطَاعَتِنَا يَتِمُّ الْإِنْتِمَاءُ إِلَيْهِ، وَأَعْطَانَا مَقَالِيدَ الْبَسِيطَةِ فَمِنْ أَعْتَصَبَ مِنْهَا شَيْئًا أَنْتَزَعَهُ اللَّهُ لَنَا بِجُنُودِهِ الْمَسْؤُومَةِ مِنْ يَدَيْهِ؛ فَلَجَأَ مِنْ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ إِلَى الظِّلِّ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ كُلُّ مَنِيرٍ وَسَرِيرٍ، وَرَجَا مِنْ كَرَمِنَا الْإِعْتَصَامَ بِجِيُوشِنَا الَّتِي مَا رَمَيْنَا بِهَا عَدُوًّا إِلَّا ظَنَّ أَنَّ الرَّمَالَ تَسِيلُ وَالْجِبَالَ تَسِيرُ؛ وَتَحْيِيزَ مِنَّا إِلَى فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتَصَرَ بِسَيُوفِنَا الَّتِي هُوَ يَعْلَمُ كَيْفَ تَسْلُهَا عَلَى الْعِدَا الْأَحْلَامِ؛ وَمَتَّ إِلَيْنَا بِذِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ عِنْدُنَا أَبَرُّ الذِّمَمِ، وَطَلَبَ تَقْلِيدَهُ الْحُكْمَ مِنَّا مَنُ عُرِفَ بِإِعَاذَتِهِ النَّظَرَاتِ الصَّادِقَةِ أَنَّهُ كَانَ يَحْسِبُ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحِمُهُ وَرَمَ^(٢)؛ وَعَقَدَ بِنَا بِنَاءَ رَجَائِهِ، وَهَلْ لِمُسْلِمٍ عَنْ مَلِكِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَغْدِلٍ؟ وَأَنْزَلَ بِنَا رَكَائِبَ آمَالِهِ، وَهَلْ بَعْدَ رَامَةِ لِمَرَامٍ مِنْ مَنَزَلٍ؟ فَتَلَقَّتْ نِعْمُنَا كِرَائِمَ قَصْدِهِ بِالْتَّرْحِيبِ، وَأَحَلَّتْ وَفَادَةَ أَنْتِمَائِهِ بِالْحَرَمِ الَّذِي شَأُوهُ بَعِيدٌ وَنَصْرُهُ قَرِيبٌ؛ وَتَسَارَعَتْ إِلَى نُضْرَتِهِ جُنُودُنَا الَّتِي أَيَّامُهَا مَشْهُورَةٌ فِي

(١) البقية: الأرض المستوية. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كِرْكِبٍ يَّقِيعًا يَجْزِيهِمُ الْعَذَابُ مَاءً حَمِيمًا إِذَا جَاءَهُمْ لُرُجٌ مِّنْ سَحَابٍ مِّمَّنَّ فِيهِمْ أَعْمَلُوهُمْ كِرْكِبٍ يَّقِيعًا يَجْزِيهِمُ الْعَذَابُ مَاءً حَمِيمًا﴾ [النور: الآية ٣٩].

(٢) هذا حل لبيت المتنبي الوارد في قصيدته الميمية التي يعاتب فيها سيف الدولة ومطلعها:
واحر قلباه ممن قلبه شميم ومن بجسمي وحالي عنده سقم
أما البيت الذي حله هنا فهو التالي:
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

عدوِّها، وآثارها مشكورة في رَواحها وغُدوِّها، وأعلامها منصورة في أنتزاحها ودنوِّها؛ وتتابعُ يتلو بعضها بعضًا تتأبَعُ الغمام المتراكم، والموج المتلاطم؛ تَقْدَم عليه بالنصر القريب من الأمد البعيد، وتُعلم بوادرها أنَّ طلائعها عنده وساقتها بالصعيد؛ ولما كان فلان هو الذي أراد الله به من الخير ما أراد، ووُطد له بعنائه أركان الرِشاد؛ وجعل له بعد الجهل به عِلْمًا، وتداركه برحمته، فما أَمسى للإسلام عدوًّا حتى أصبح هو ومن معه له سَلْمًا؛ ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: الآية ٥٨]، وبكرمه العَميم فليُفسحوا صدورهم ويشرحوا، وبإرشاده الجلي وهدايته فليَدْعُوا قومهم إلى ذلك وَيَنْصَحُوا؛ وحين وَضَحَتْ له هذه الطرقُ أُرشدته من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة، ودلته على مُوالاةِ مَلِك الإسلام التي من لم يَتَمَسَّك بها فقد فارق الجماعة؛ فإن الله تعالى قَرَن طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة أولي الأمر، وَحَثَّ على ملازمة الجماعة في وقت يكون المتمسك فيه بدينه كالقابض على الجمر؛ وهذا فعلٌ من أراد الله به خيرًا، وسعيٌ من يُحسِن في دين الله سيرةً وسيرًا؛ ولذلك أَقْتَضَتْ آراؤنا الشريفةُ إمضاء عزمه على الجهاد بالإيجاد، وإنفاذ سهمه في أهل العناد بالإسعاف والإسعاد؛ وأرسلنا الجيوش الإسلامية كما تَقْدَم شرحه يَطْوُونَ الصَّحَاصِحَ^(١)، وَيَسْتَقْرِبُونَ المَدَى النازح^(٢)، وَيَأْخُذُونَ كُلَّ كَيْمِي فلو أَسْتَطَاع السَّمَاكُ لم يَتَسَمَّ بالرامح، وَيَحْتَسِبُونَ الشُّقَّةَ^(٣) في طلب عدوِّ الإسلام عِلْمًا أنهم لا يَنْفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديًا إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح؛ فَرُسِمَ بالأمر الشريف - لا زال يَهْبُ الدُّوْلُ، ويقَلْدُ أجيادُ العظماء ما تَوَدَّ لو تَحَلَّتْ ببعض فرائده تيجانُ الملوك الأول - أن تُفَوَّضَ إليه نيابةُ الممالك الفلانية تفويضًا يصون به قلاعها، ويضول بمهابته على من حاول أنتزاعها من يده وأقتلاعها؛ ويُجرىها على ما أَلِفَتْ ممالكنا من أَمْنٍ لا يَرُوعُ سِرُّه، ولا يَكْدُرُ سِرُّه؛ ولا يُوجَدُ فيه باغ تُخاف السبيلُ بسببه، ولا من يجرّد سيفَ بغِيٍّ وإن جَرَّده قُتِلَ به؛ وَلِيُخَفِّظَ من الأطراف ما أَسْتودعه الله وهذا التقليدُ الشريفُ حِفْظُهُ، وَلِيَعْمَلَ في قتال مُحارِبِهِ من العُدا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: الآية ١٢٣].

(١) الصحاصح: مفردة الصحصح، وهو ما استوى من الأرض وكان أجرد.

(٢) المدى النازح: المسافة البعيدة. من نزع أي بعد.

(٣) الشقة: التعب، يحتسبون الشقة: يقدمون المشقة ينون بها وجه الله.

ومنه: وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى قصدت عدواً سابقت خيولها خيالتها، وجارت جياذها ظلالها، وأيفت سنايها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها؛ وما هي قد تقدمت ونهضت لإنجاده، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت؛ أو تضد الجبال لصدمت.

ومنه: والشرع الشريف مهُمُّه المقدم، وأمره السابق على كل ما تقدم فليغل مناره، ويستشف من أموره أنواره؛ ويُنفذ أحكامه، ويعاضد حكاه؛ ومن عدل عن حكمه معانداً، أو ترك شيئاً من أحكامه جاحداً؛ فقد برئت الذمة من دمه حتى يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن عناده ويُنيب إلى الله؛ فإن الله يهدي إليه من أناب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: الآية ٢٥].

وأما الرسائل التي تتضمن أوصاف السلاح وآلات الحرب وأوصاف الخيل والجوارح وأنواع الرياضات وما أشبه ذلك، فالكاتب فيه مطلئ العنان، مُخْلِ بينه وبين فصاحته، موكل إلى اطلاعه وبلاغته؛ وقد تقدم من أوصاف السلاح ما فيه كفاية لمن يريد ذلك.

وأما الخيل والجوارح وما يلتحق بذلك من الفهود والضواري فلا غنية للكاتب عن معرفته جياذها، والأمارات الدالة على قراحتها، وكل طير من الجارح وأفعاله وأستطالته، وكيفية فعله، وتمكنه من الطير والوحش؛ وسنورد إن شاء الله تعالى فن الحيوان الصامت - وهو الفن الثالث من هذا الكتاب - ما يقتدي الكاتب بمقاله، ويُسيج على منواله.

وأما الرسائل التي تعمل رياضة للخواطر وتجربة للقرائح، كالمفاخرات بين الفواكه والأزهار، ووصف الرياحين والأنهار والغدران والسواقي والجداول والبحار والمراكب وأمثال ذلك، فقد تقدم منها في الفن الأول من هذا الكتاب ما وقفت أو تقف عليه، وسنورد منها إن شاء الله تعالى في الفن الرابع في النبات ما تجده هناك.

وأما الرسائل الإخوانية وما يتجدد من الأمور ويطرأ من الحوادث وغير ذلك، فسنورد إن شاء الله تعالى منها في هذا الباب ما أنتخبناه من رسائل الكتاب والبلغاء المشاركة والمغاربة على ما تقف عليه؛ ولنبدأ من ذلك بذكر شيء من كلام الصحابة والصدر الأول.

ذكر شيء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنه والتابعين وشيء من كلام الصدر الأوّل وبلاغتهم

قَدَّمْنَا أَنَّ الكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي صِنَاعَتِهِ إِلَى حِفْظِ مَخَاطَبَاتِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمَحَاوِرَاتِهِمْ وَمَرَاجَعَاتِهِمْ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ نُورِدَ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَا سَتَقِفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

فَمِنْ ذَلِكَ الرِّسَالَةِ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى عَلِيٍّ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ كَلَامِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَجَوَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ قَدْ أَعْتَنَى النَّاسُ بِهَا وَأَوْرَدُوهَا فِي الْمَجَامِيعِ^(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَفْرَدَهَا فِي جُزْءٍ، وَقَطَعَ بِأَنَّهَا مِنْ كَلَامِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهَا وَنَفَاهَا عَنْهُمْ، وَقَالَ: إِنَّهَا مَوْضُوعَةٌ^(٢)، وَأَخْتَلَفَ الْقَائِلُونَ بِوَضْعِهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ فُضْلَاءَ الشَّيْعَةِ وَضَعُوهَا، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ الْإِسْتِنَادَ إِلَى أَنْ عَلِيًّا بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بِسَبَبِ مَا تَضَمَّنَتْهُ؛ وَهَذَا الْإِسْتِنَادُ ضَعِيفٌ، وَحُجَّةٌ وَاهِيَّةٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَلِيًّا بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَايَعَ بَيْعَةَ رَضِيَ بَاطْنُهَا فِيهَا كَظَاهِرُهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ وَطِئَ مِنَ السُّبِّيِّ الَّذِي سُبِّيَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَسْتَوْلَدَ مِنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ، وَلَا جَوَابَ لَهُمْ عَنْ هَذَا؛ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ فُضْلَاءَ السُّنَّةِ وَضَعُوهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهَذِهِ الرِّسَالَةُ لَمْ تُورَدْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِثْبَاتًا لَهَا أَنَّهَا مِنْ كَلَامِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلَا نَفْيًا، وَإِنَّمَا أَوْرَدْنَاهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَاتِّسَاقِ الْكَلَامِ، وَجُودَةِ الْأَلْفَاظِ، وَهِيَ نَحْنُ نُوْرِدُهَا عَلَى نَصِّ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ.

قال أبو حَيَّانَ عَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّوْحِيدِيُّ الْبَغْدَادِيُّ^(٣):

سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ بْنِ بَشْرِ الْمَرْوُورِيِّ بِبَغْدَادٍ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ - وَكَانَ غَزِيرُ الرِّوَايَةِ، لَطِيفُ الدَّرَايَةِ - فَجَرَى حَدِيثَ السَّقِيفَةِ، فَرَكَبَ كُلُّ مَرَكَبًا، وَقَالَ قَوْلًا، وَعَرَّضَ بِشَيْءٍ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍّ؛ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ لَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَجَوَابَ عَلِيٍّ

(١) المجاميع: مفردة المجموع، كل مؤلف جمعت فيه أشياء متفرقة من شعر أو رسائل الخ.

(٢) موضوعة: منحولة، نسبت خطأ إلى غير أصحابها.

(٣) أبو حيان التوحيدى: (٩٢٢ - ١٠٢٣ م)، أديب ومفكر متفلسف. عاش الجزء الأكبر من حياته في بغداد وكان منبؤًا لم تقدر قيمته، فغير الحال. أهم كتبه «الإمتاع والمؤانسة» و«الهوامل والشوامل» والحج العقلي (المنجد).

عنها، ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من بنات الحقائق، ومخبات الصناديق، ومنه حفظتها ما رويها إلا لأبي محمد المهلب في وزارته، فكتبها عني بيده، وقال: لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على علم وحلم وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدة غوص؛ فقال له العباداني^(١): أيها القاضي، لو أتممت المِنة علينا بروايتها سمعناها، فنحن أوعى لها عنك من المهلب، وأوجب ذماماً عليك؛ فاندفع وقال: حدثنا الخزاعي بمكة، عن أبي ميسرة قال: حدثنا محمد بن قُليح عن عيسى بن دأب نبأ صالح بن كيسان ويزيد بن رومان، قالوا: حدثنا هشام بن عروة، نبأ أبو النخاح قال: سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها، ويسر خيرها؛ بلغ أبا بكر عن عليّ تلکؤ وشماس، وتهمم^(٢) ونفاس^(٣)، فكره أن يتمادي الحال فتبدو العورة، وتشتعل الجمرة، وتفرق ذات البين، فدعاني، فحضرته في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحده، فقال: يا أبا عبيدة، ما أيمن ناصيتك، وأبين الخير بين عينيك، وطالما أعز الله بك الإسلام، وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله ﷺ بالمكان المحو، والمحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» ولم تزل للدين ملئجاً، وللمؤمنين مُرتجى، ولأهلك ركنًا، ولإخوانك رداء؛ قد أردت لك لأمر له خطر مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف؛ ولئن لم يندمل جرحه بمسبارك^(٤) ورفقك، ولم تُجب حيتته برقيتك، فقد وقع ألياس، وأعضل البأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك، فتأت له يا أبا عبيدة، وتلطّف فيه، وأنصَح لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، ولهذه العصابة غير آل جُهدا، ولا قال^(٥)، حمدا؛ والله كالك وكناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله؛ امض إلى عليّ وأخفِض له

(١) العباداني: نسبة إلى عبادان. وعبادان بلدة تقع إلى الشرق من مصب دجلة في البحر، في أرض سبحة فيها مشهد لعلي بن أبي طالب. وعبادان نسبة إلى عباد بن حصين الحبلي لأنه أول من رابط ثمة، بزيادة الألف والنون على طريقة أهل البصرة. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٩٨، ط جوتنجن).

(٢) تهمم: طلب. من تهمم فلان الشيء: طلبه؛ والمراد هنا طلب الخلافة.

(٣) نفاس: منافسة.

(٤) المسبار: فتيل يدخل في الجرح ليعرف عمقه، وليداوى به.

(٥) قال: من قلى الشيء: أبغضه.

جَنَاحَكَ، وَأَغْضَضَ عِنْدَهُ صَوْتَكَ، وَأَعْلَمَ أَنَّهُ سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ، وَمَكَانُهُ مَمَّنْ فَقَدَنَاهُ بِالْأَمْسِ ﷺ مَكَانَهُ، وَقُلْ لَهُ: الْبَحْرُ مَغْرَقَهُ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَهُ؛ وَالْجَوُّ أَكْلَفٌ^(١)، وَاللَّيْلُ أَغْدَفٌ^(٢)، وَالسَّمَاءُ جَلْوَاءٌ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءٌ؛ وَالصُّعُودُ مُتَعَذِّرٌ، وَالْهَبُوطُ مُتَعَسِّرٌ؛ وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَوْوْفٌ، وَالْبَاطِلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ، وَالْعُجْبُ قَدَاحَةُ الشَّرِّ، وَالضُّغْنُ رَائِدُ الْبَوَارِ، وَالتَّعْرِيضُ سِجَالٌ^(٣) الْفِتْنَةِ، وَالْقَحَّةُ ثَقُوبٌ^(٤) الْعِدَاوَةِ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مُتَكِبِيٌّ عَلَى شِمَالِهِ، مُتَحَبِّلٌ^(٥) بِيَمِينِهِ، نَافِخٌ حِضْنِيهِ^(٦) لِأَهْلِهِ، يَنْتَظِرُ الشَّتَاتِ وَالْفُرْقَةَ، وَيَدْبُ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالسُّحْنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ، عِنَادًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلًا، وَلَادَمَ ثَانِيًا، وَلِنَبِيِّهِ ﷺ وَدِينِهِ ثَالِثًا، يُوسُوسُ بِالْفُجُورِ، وَيُدْلِي بِالْعُرُورِ، وَيُمْنِي أَهْلَ الشَّرِّ، يُوجِي إِلَى أَوْلِيَائِهِ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا بِالْبَاطِلِ، ذَابًا لَهُ مِنْذُ كَانَ عَلَى عَهْدِ أَبِينَا آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَادَةً لَهُ مِنْذُ أَهَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ، لَا مَنَجَى مِنْهُ إِلَّا بَعْضُ النَّاجِذِ عَلَى الْحَقِّ، وَغَضُّ الطَّرَفِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَوُطْءُ هَامَةِ عَدُوِّ اللَّهِ بِالْأَشَدِّ فَلْأَشَدِّ، وَالْأَكْدُ فَلْأَكْدُ، وَإِسْلَامُ النَّفْسِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَبْتِغَاءِ رِضَايِهِ؛ وَلَا بَدْءَ الْآنَ مِنْ قَوْلٍ يَنْفَعُ إِذَا ضَرَّ السَّكُوتُ وَخِيفَ غَيْبُهُ، وَلَقَدْ أَرَشَدَكَ مِنْ أَفَاءِ ضَالَّتِكَ، وَصَافَاكَ مَنْ أَحْيَا مَوَدَّتَهُ بِعِتَابِكَ، وَأَرَادَ لَكَ الْخَيْرَ مَنْ آثَرَ الْبَقَاءَ مَعَكَ، مَا هَذَا الَّذِي تُسْأَلُ لَكَ نَفْسُكَ، وَيَدْوَى^(٧) بِهَ قَلْبُكَ، وَيَلْتَوِي عَلَيْهِ رَأْيُكَ، وَيَتَخَاوَصُ^(٨) دُونَهُ طَرْفُكَ، وَيَسْتَشِيرِي فِيهِ ضِغْنُكَ، وَيَتَرَادَفُ مَعَهُ نَفْسُكَ، وَتَكْثُرُ عِنْدَهُ صُعْدَاؤُكَ، وَلَا يَفِيضُ بِهِ لِسَانُكَ؟ أَعْجَمَةُ بَعْدَ إِفْصَاحٍ؟ أَتَلْبِيسٌ بَعْدَ إِضْوَاحٍ؟ أَدِينٌ غَيْرُ دِينِ اللَّهِ؟ أَخُلُقٌ غَيْرُ خُلُقِ الْقُرْآنِ؟ أَهْدِي غَيْرُ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ؟ أَمِثْلِي تَمْشِي إِلَيْهِ الضَّرَاءُ وَتَدْبُ لَهُ الْخَمْرُ^(٩)؟ أَوْ مِثْلُكَ يُغْضُ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ وَيُكْسِفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ؟ مَا هَذِهِ الْقَعْقَعَةُ بِالشَّنَانِ^(١٠)؟ وَمَا هَذِهِ الْوَعُوعَةُ بِاللِّسَانِ؟ إِنَّكَ وَاللَّهُ جِدُّ عَارِفٍ بِاسْتِجَابَتِنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَبِخُرُوجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحْيَيْنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ وَنُصْرَةَ لَدِينِهِ، فِي زَمَانٍ أَنْتَ

(١) الأكلَف: من الكلف، وهو لون بين السواد والبياض.

(٢) أغدَف: من أغدَف الليل: أظلم وأرخبى سدوله.

(٣) السجَال: الدلو.

(٤) ثقبوب: مفردة ثقباب، وهو عود الزند.

(٥) متحبِّل: متصيد بالحبالة.

(٦) حِضْنِيهِ: كناية عن التكبر والخيلاء.

(٧) يدوى: يمرض، يصاب بالداء. والدوي مرض باطن في الصدر.

(٨) يتخاوص: من التخاوص، أي غرض النظر مع تحديد كمن يقوم سهما.

(٩) تمشي إليه الضراء وتدب له الخمر: أي يخاتل ويمكر به. يقال للرجل إذا اختل صاحبه ومكر به. والضراء: الاستخفاء، والخمر: ما وراءك من شيء.

(١٠) القعقة بالشنان: كناية عن الترويع والتهويل. وأصله تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع.

فيه في كِن الصُّبا، وَخَدِرِ العَرَّارة، وَغَنُفَوَانِ الشَّيْبَةِ غَافِلًا عَمَّا يُشِيب وَيُرِيب، لَا تَعِي ما يُراد وَيُشَاد، وَلَا تُحْصِلُ ما يَسَاق وَيَقَاد، سَوَى ما أَنْت جَارِ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِكَ الَّتِي إِلَيْهَا عُذِلَ بِكَ، وَعِنْدَهَا حُطٌّ رَحْلُكَ، غَيْرَ مَجْهُولِ الْقَدَرِ، وَلَا مَجْهُودِ الْفَضْلِ، وَنَحْنُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نَعَانِي أَحْوَالًا تُزِيلُ الرِّوَاسِي، وَنَقَاسِي أَهْوَالًا تُشِيبُ الثَّوَاصِي؛ خَائِضِينَ غِمَارَهَا، رَاكِبِينَ تَيَّارَهَا؛ نَتَجَرَّعُ صَابَهَا^(١)، وَنُشْرِجُ عِيَابَهَا^(٢)؛ وَنُحَكِّمُ آسَاسَهَا، وَنُبْرِمُ أَمْرَاسَهَا؛ وَالْعَيُونُ تَحْدَجُ بِالْحَسَدِ، وَالْأَنْوْفُ تَعْطُسُ بِالْكِبَرِ، وَالصُّدُورُ تَسْتَعِرُ بِالْغَيْظِ، وَالْأَعْنَاقُ تَتَطَاوَلُ بِالْفَخْرِ، وَالشُّفَارُ تُشَحِّذُ بِالْمَكْرِ، وَالْأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ، لَا نَنْتَظِرُ عِنْدَ الْمَسَاءِ صَبَاحًا، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً، وَلَا نُدْفِعُ فِي نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْسُوَ الْمَوْتَ دُونَهُ، وَلَا نَبْلُغُ مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ جَزَعِ الْعَذَابِ مَعَهُ، وَلَا نُقِيمُ مَنَازِلًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ، فَادِينِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ، وَالْخَالِ وَالْعَمِّ، وَالْمَالِ وَالنَّشَبِ، وَالسَّبَدِ وَاللَّبَدِ^(٣)، وَالْهَلَّةِ وَالْبِلَّةِ^(٤)، بِطَيْبِ أَنْفُسٍ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ، وَرُخْبِ أَعْطَانٍ، وَثَبَاتِ عَزَائِمٍ، وَصِحَّةِ عَقُولٍ، وَطَلَاقَةِ أَوْجِهٍ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ؛ هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارٍ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ كُنْتَ عَنْهَا غَافِلًا وَلَوْلَا حَدَاثَةُ سِنِّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاكِلا؛ كَيْفَ وَفَوَازُكَ مَشْهُومٌ^(٥)، وَعُوذُكَ مَعْجُومٌ! وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ، وَأَرْهَصَ الْخَيْرَ لَكَ، وَجَعَلَ مَرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ عِلْمٍ أَقُولُ مَا تَسْمَعُ؛ فَأَرْتَقِبْ زَمَانَكَ، وَقَلِّصْ أَرْدَانَكَ^(٦)؛ وَدَعِ التَّقَعُّسَ^(٧) وَالتَّجَسُّسَ لِمَنْ لَا يَظْلَعُ لَكَ إِذَا خَطَا، وَلَا يَتَزَحَّزَحُ عَنْكَ إِذَا عَطَا؛ فَالْأَمْرُ غَضٌّ، وَالنَّفُوسُ فِيهَا مَضٌ^(٨) وَإِنَّكَ أَدِيمٌ هَذِهِ الْأُمَّةَ فَلَا تَحَلِّمْ^(٩) لَجَاجَا، وَسِيْفُهَا الْعَضْبُ فَلَا تَنْبُ أَعُوجَاجَا، وَمَاوُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحُلْ أُجَاجَا؛ وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا بَكْرٍ، هُوَ لِمَنْ يَرِغِبُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يَجَاحِشُ»^(١٠) عَلَيْهِ، وَلِمَنْ يَتَضَاءَلُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يَنْتَفِجُ^(١١)

(١) صابها: مرارتها. والصاب شجر مر أو عصارة ذلك الشجر وربما كان الصبر ذاته. (لسان العرب، مادة صوب).

(٢) اشرج العيبة أو شرجه: شد عراها.

(٣) السبد واللبد: كناية عن القليل والكثير. وأصل السبد: الوبر واللبد: الصوف المتلبد.

(٤) الهلة والبلة: كناية عن كل شيء. يقال: ما أصاب هلة ولا بلة: أي شيئًا. والهلة من الفرح والاستهلال، والبلة من البلل والخير.

(٥) مشهوم: ذكي كالشهم.

(٦) قلص أردانك: شمر ثوبك.

(٧) التقعس: التأخر.

(٨) مض: الألم والحزن.

(٩) حلّم: أصيب بالحلم وهو تأكل الجلد.

(١٠) يجاحش: يدافع.

(١١) ينتفج: يشب.

إليه، هو لمن يقال: هو لك، لا لمن يقول: هو لي» ولقد شاورني رسول الله ﷺ في الصُّهر، فذكر فتيتاً من قريش، فقلتُ: أين أنت من علي؟ فقال ﷺ: «إني لأكره لفاطمة مِئعةً شُبابه، وحدائهُ سِنه، فقلتُ له: متى كُنْفْتَهُ يَدُك، ورعته عينُك، حَفَّتْ بهما البركة، وأُسْبِغَتْ عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبته به رغبةً فيك، وما كنتُ عَرَفْتُ منك في ذلك حَوْجاءَ ولا لَوْجاءَ^(١)، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرِك، وأجد رائحةً سواك، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآنَ لي؛ ولئن كان عَرَضَ بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضاً عن غيرِك، وإن كان قال فيك فما سَكَتَ عن سواك، وإن تَلَجَّلَجَ في نَفْسِك شيءٍ فهلُمَّ فالحكم مَرِضِي، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطاع؛ ولقد نُقِلَ رسول الله ﷺ إلى ما عند الله عزَّ وجلَّ وهو عن هذه العِصابة راضٍ، وعليها حَدِبٌ، يَسْرُه ما يَسْرُها، ويسوؤه ما يسوؤها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسَخِطُه ما أسخطها، أما تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربِه وسُجرائِه^(٢) إلا أبانه بفضيلة، وخَصَّه بمزية، وأفرده بجلالة؟ أنظنه ﷺ ترك الأمة سدىً بَدَداً، عَباهِلَ مَباهِلَ^(٣)، طَلاحى^(٤)، مَعْتُونَةً^(٥) عن الحقِّ، لا ذائد ولا رائد، ولا ضابط ولا حائط ولا رابط، ولا ساقِي ولا واقِي، ولا هادي ولا حادي؛ كلا، والله ما أَشْتاق إلى ربه تعالى، ولا سألُه المَصِيرَ إلى رضوانه وقُزْبِه إلا بعد أن ضَرَبَ المَدَى^(٦)، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوى^(٧)؛ وأَمَنَ المسالكَ والمطارح، وسَهَّلَ المِبارَكَ والمَهايِجَ^(٨)، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخَ الشُّركِ بإذن الله تعالى، وشَرَمَ وجَهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَعَ أنفَ الفتنة في ذات الله، وتَقَلَّ في عين الشيطان بعون الله، وصَدَعَ بِمِلءٍ فيه ويده بأمر الله عزَّ وجلَّ؛ وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة، إن استَقَالُونِي لك، وأشاروا عندي بك، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فأدخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على

(١) الحوجاء: الحاجة، واللوجاء: أيضاً. (اللسان مادة لوج).

(٢) سجراء: واحده سجير وهو الصفي.

(٣) العباهِل المَباهِل: المهمل من الإبل أو الناس.

(٤) الطلاحى: الإبل التي تشتكي بطونها من أكل الطلح. أراد هنا القوم الذين لا راعي لهم يصدهم عما يسوؤهم.

(٥) معنونة: من عنت القرس أي حبستها بالعنان.

(٦) المدى: الغاية. يريد بلغ الغاية.

(٧) الصوى: معالم الطريق.

(٨) المَهايِج: مفردة مهيج، أي الطريق الواسع البين، أو البلد الواسع.

مَصَالِحِهِمْ، وَالْفَاتِحَ لِمَغَالِقِهِمْ، وَالْمُرْشِدَ لَضَالَّتِهِمْ، وَالرَادَعَ لَعَوَاتِهِمْ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ، وَدَعَانَا نَقْضَ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِصُدُورِ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغِلِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الضَّغَائِنِ وَالْحِقْدِ، وَنَلَقَّ اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ؛ وَبَعْدَ، فَالنَّاسُ ثُمَامَةٌ^(١) فَارْفُقْ بِهِمْ، وَأَخْنُ عَلَيْهِمْ، وَلِنْ لَهُمْ، وَلَا تُشْقِ نَفْسَكَ بِنَا خَاصَّةٍ مِنْهُمْ، وَأَتْرِكَ نَاجِمَ الْحَقْدِ حَصِيدًا، وَطَائِرَ الشَّرِّ وَاقِعًا، وَبَابَ الْفِتْنَةِ مُغْلَقًا، فَلَا قَالٍ وَلَا قِيلَ، وَلَا لَوْمَ وَلَا تَعْنِيفَ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ شَهِيدٌ، وَبِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ بِصِيرٌ.

قال أبو عُبَيْدَةَ: فلما تأهَّبْتُ لِلنَّهْوِضِ قال عمرُ رضي الله عنه: كُنْ لَدَى الْبَابِ هُنْئِلَهُ فلي معك ذرَّةٌ مِنَ الْقَوْلِ، فَوَقَفْتُ وَمَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي إِلَّا أَنَّهُ لِحِقْنِي بِوَجْهِ يَنْدِي تَهْلَلًا، وَقَالَ لِي: قُلْ لِعَلِّي: الرُّقَادُ مَخْلَمَةٌ، وَالْهَوَى مَقْحَمَةٌ؛ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصَّافَات: الْآيَةُ ١٦٤]، وَحَقٌّ مُشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ، وَنَبَأٌ ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ؛ وَإِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسَى مَنْ مَنَحَ الشَّارِدَ تَأَلُّفًا، وَقَارَبَ الْبَعِيدَ تَلَطُّفًا؛ وَوَزَنَ كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ، وَلَمْ يَخْلُطْ خَبْرَهُ بِعِيَانِهِ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ فِتْرَةَ مَكَانٍ شِبْرَهُ دَيْنًا كَانَ أَوْ دُنْيَا، ضَلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ مُسْتَعْمَلٍ فِي جَهْلٍ، وَلَا خَيْرَ فِي مَعْرِفَةٍ مَشُوبَةٍ بِكُفْرٍ، وَلَسْنَا كَجِلْدَةٍ رُفِعَ^(٢) الْبَعِيرُ بَيْنَ الْعِجَانِ وَالذَّنَبِ، وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ، وَكُلُّ سِيلٍ فإِلَى قَرَارِهِ؛ وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لِعِيٍّ وَشَيْءٍ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرْقٍ أَوْ رَفَقٍ، وَقَدْ جَدَعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ، وَقَصَمَ ظَهَرَ كُلِّ جَبَّارٍ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ كَذُوبٍ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يُونُس: الْآيَةُ ٣٢] مَا هَذِهِ الْخُزْرَوَانَةُ^(٣) الَّتِي فِي قَرَّاشٍ^(٤) رَأْسِكَ؟ مَا هَذَا الشَّجَا الْمَعْتَرِضُ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ؟ مَا هَذِهِ الْقَذَاةُ الَّتِي تَغَشَّتْ نَازِرَكَ؟ وَمَا هَذِهِ الْوَحْرَةُ^(٥) الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِيْفَكَ؟ وَمَا هَذَا الَّذِي لَبِسَتْ بِسَبَبِهِ جِلْدَ الثُّمِيرِ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بِالشَّحْنَاءِ وَالثُّكْرِ، وَلَسْنَا فِي كِسْرِيَّةٍ كَسْرَى، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرَ، تَأْمَلُ لِإِخْوَانِ فَارَسَ وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ؛ قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا لِسَيْفُونَا، وَدَرِيئَةً لِرِمَاحِنَا، وَمَرْغَى لَطْعَانِنَا، وَتَبْعًا لِسُلْطَانِنَا؛ بَلْ نَحْنُ نُورُ نُبُوَّةٍ، وَضِيَاءُ رِسَالَةٍ، وَثِمَرَةُ حِكْمَةٍ، وَأَثَرَةُ رَحْمَةٍ، وَعِنْوَانُ نِعْمَةٍ، وَظِلُّ عِصْمَةٍ؛ بَيْنَ أُمَّةٍ

(١) الثُمَامَةُ: نَبَاتٌ هَشٌّ ضَعِيفٌ تَسُدُّ بِهِ خِصَاصُ الْبُيُوتِ. كَنَايَةٌ عَنْ ضَعْفِ النَّاسِ.

(٢) الرُّفْعُ: أَصُولُ الْفَخْزَيْنِ مِنْ بَاطِنٍ.

(٣) الْخُزْرَوَانَةُ: الْكَبِيرُ.

(٤) الْقَرَّاشُ: عِظَامٌ دَقَاقٌ تَلِي الْقَحْفَ.

(٥) الْوَحْرَةُ: نَوْعٌ مِنَ الْحَشَرَاتِ، صَغِيرَةٌ حُمْرَاءُ، إِذَا شَمَتَ طَعَامًا أَوْ أَكَلَتْ مِنْهُ سَمَتَهُ، وَرَبْمَا هَلَكَ مِنْ أَكَلٍ مِنْهُ بَعْدَهَا. وَقَدْ شَبَّهُوا الْعِدَاوَةَ بِهَا لِأَنَّهَا تَلْزُقُ بِالصَّدْرِ لَزُوقِ الْوَحْرَةِ بِالْأَرْضِ.

مَهْدِيَّةً بِالْحَقِّ وَالصَّدَقِ، مَأْمُونَةً عَلَى الرَّثْقِ وَالْفَتْقِ، لَهَا مِنَ اللَّهِ إِبَاءٌ أَبِي، وَسَاعِدٌ قَوِيٌّ؛ وَيَدٌ نَاصِرَةٌ، وَعَيْنٌ نَاطِرَةٌ؛ أَنْظِنَ ظَنًّا يَا عَلِيُّ أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَثَبَّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مُفْتَاتًا عَلَى الْأَمَّةِ، خَادِعًا لَهَا، أَوْ مَتَسَلِّطًا عَلَيْهَا؟ أَتَرَاهُ حَلَّ عُقُودِهَا وَأَحَالَ عَقُولَهَا؟ أَتَرَاهُ جَعَلَ نَهَارَهَا لَيْلًا، وَوَزَنَهَا كَيْلًا؛ وَيَقْظَتَهَا رُقَادًا، وَصَلَاحَهَا فُسَادًا؟ لَا وَاللَّهِ، سَلَا^(١) عَنْهَا فَوَلَّيْتْ لَه، وَتَطَامِن^(٢) لَهَا فَلَصِصَتْ بِهِ، وَمَالَ عَنْهَا فَمَالَتْ إِلَيْهِ، وَأَشْمَأَزَ دُونَهَا فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، حَبَوَّةَ حَبَاهُ اللَّهُ بِهَا، وَعَاقِبَةً بَلَغَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، وَنِعْمَةً سَرَبَلَهُ جَمَالُهَا، وَيَدًا أَوْجَبَ عَلَيْهِ شُكْرَهَا وَأَمَّةَ نَظَرَ اللَّهُ بِهِ لَهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ، وَأَرَأْفُ بِعِبَادِهِ، يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَإِنَّكَ بِحَيْثُ لَا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يُجْجَدُ حَقُّكَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ، وَلَكِنْ لَكَ مِنْ يَزَاحِمُكَ بِمَنْكِبٍ أَضْحَمَ مِنْ مَنْكِبِكَ، وَقُرْبٍ أَمْسَ مِنْ قَرَابَتِكَ، وَسُنٍّ أَعْلَى مِنْ سَنِّكَ، وَشَيْبَةٍ أَرْوَعَ مِنْ شَيْبَتِكَ، وَسِيَادَةٍ لَهَا أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِرْعٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَوَاقِفَ لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَمَلٌ وَلَا نَاقَةٌ، وَلَا تُذَكَّرُ فِيهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا سَاقَةِ؛ وَلَا تُضْرَبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا إِبْصِيعٍ، وَلَا تُخْرَجُ مِنْهَا بِبَازِلٍ وَلَا هَبْعٍ^(٣)؛ وَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِلَاقَةَ نَفْسِهِ وَعَيْنِيَّةَ سِرِّهِ، وَمَفْرَعَ رَأْيِهِ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ، وَمَرْمَقَ طَرْفِهِ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ شَهْرَةً مَغْنِيَةً عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَلَعَمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَرَابَةً، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ مِنْكَ قُرْبَةً^(٤)، وَالْقُرَابَةُ لِحِمِّ وَدَمٍ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ، وَهَذَا فَرْقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ؛ وَمَهُمَا شَكَّكَتْ فِي ذَلِكَ فَلَا تُشْكُ أَنْ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَرِضْوَانُهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ، فَادْخُلْ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ الْيَوْمَ وَأَنْفَعُ غَدًا، وَأَلْفِظْ مِنْ فَيْكِ مَا يَعْلَقُ بِلَهَاتِكَ، وَأَنْفِثْ سَخِيمَةَ صَدْرِكَ عَنْ ثِقَاتِكَ، فَإِنْ يَكُ فِي الْأَمَلِ طُولٌ، وَفِي الْأَجْلِ فُسْحَةٌ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ، وَتَشْتَرِبُهُ هَنِيئًا أَوْ غَيْرَ هَنِيءٍ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْكَ، وَلَا تَابِعٌ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكِ، يَمُصُّ إِهَابَكَ، وَيَعْرُكُ أَدِيمَكَ، وَيَزِرِّي عَلَى هَذِيكَ، هُنَالِكَ تَقَرَّعَ أَلْسُنٌ مِنْ نَدَمٍ، وَتَجَرَّعَ الْمَاءَ مَمْزُوجًا بِدَمٍ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ عَمْرِكَ، وَدَارِجٍ قَوَيْتِكَ، فَتَوَدُّ أَنْ لَوْ سُقِيَتْ بِالْكَأْسِ الَّتِي أَبَيْتَهَا، وَرُدِّدْتَ إِلَى حَالَتِكَ أَلْتِي اسْتَبْرَأْتُهَا، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِينَا وَفَيْكَ أَمْرٌ هُوَ بِالْغَيْهِ، وَغَيْبٌ هُوَ شَاهِدُهُ، وَعَاقِبَةٌ هُوَ أَلْمَرْجُوُّ لَسْرَائِهَا وَضَرَائِهَا، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ، الْغَفُورُ الْوَدُودُ.

(١) سلا: نسي.

(٢) تطامن: انخفض، ابتعد عنها.

(٣) البازل: الجمل في التاسع سنه. الهَبْع: الفصل في آخر التاج.

(٤) القرية: الوسيلة.

قال أبو عُبَيْدَة: فمَشِيتَ مَتَزَمِّلًا^(١) أَتَوُّهُ كَأَنَّمَا أَخْطُو عَلَى رَأْسِي فَرَقًا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَشَفَقًا عَلَى الْأُمَّةِ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ، فَأَبْثَثْتُهُ بَيْتِي كُلَّهُ، وَبَرِثْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَرَفَقْتُ بِهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَعَاهَا، وَسَرْتُ فِي مَفَاضِلِهِ حُمَيَّاهَا؛ قَالَ: حَلَّتْ مُغْلَوْطَةٌ، وَوَلَّتْ مُخْرَوْطَةٌ^(٢)، وَأَنْشَأَ يَقُولُ: [مِنَ الرَّجَزِ]

إِحْدَى لِيَالِيكَ فَهَيْسِي هَيْسِي لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ^(٣)

نَعَمْ يَا أَبَا عُبَيْدَة، أَكُلُّ هَذَا فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ يُجَسِّنُونَ بِهِ، وَيَضْطَبِعُونَ^(٤) عَلَيْهِ؟ قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: فَقُلْتُ: لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ الدِّينِ، وَرَاتِقٌ فَتَقَّ الْمُسْلِمِينَ، وَسَادٌّ ثُلُمَةَ الْأُمَّةِ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجَلَانِ^(٥) قَلْبِي، وَقَرَارَةِ نَفْسِي؛ فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ قَعُودِي فِي كِسْرِ هَذَا الْبَيْتِ قَصْدًا لِلْخِلَافِ، وَلَا إِنْكَارًا لِلْمَعْرُوفِ، وَلَا زَرَايَةَ عَلَى مُسْلِمٍ، بَلْ لَمَّا وَقَدْ نِي^(٦) بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فِرَاقِهِ، وَأَوْدَعَنِي مِنَ الْحُزَنِ لِفَقْدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّنِي لَمْ أَشْهَدْ بَعْدَهُ مَشْهَدًا إِلَّا جَدَّدَ عَلَيَّ حُزْنًا، وَذَكَّرَنِي شَجْنًا، وَإِنْ الشُّوقَ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ، وَقَدْ عَكَفْتُ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ أَنْظِرَ فِيهِ، وَأَجْمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ رَجَاءُ ثَوَابٍ مُعَدٍّ لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ، وَسَلَّمَ لِعَلَمِهِ وَمَشِيتِهِ، وَأَمَرِهِ وَنَهْيِهِ؛ عَلَى أَنِّي مَا عَلِمْتُ أَنَّ التَّظَاهَرَ عَلَيَّ وَاقِعٌ، وَلِي عَنْ الْحَقِّ الَّذِي سَبَقَ لِي دَافِعٌ، وَإِذْ قَدْ أُفْعِمَ الْوَادِي بِي، وَخُشِدَ النَّادِي مِنْ أَجْلِي، فَلَا مَرَحَبًا بِمَا سَاءَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَرْنِي، وَفِي النَّفْسِ كَلَامٌ لَوْلَا سَابِقُ عَقْدٍ، وَسَالَفُ عَهْدٍ، لَشَفَقْتُ نَفْسِي بِخُنْصِرِي وَبِنْصِرِي، وَخُضْتُ لُجَّتَهُ بِأَخْمَصِي وَمَفْرَقِي، وَلَكِنِّي مُلْجِمٌ إِلَى أَنْ أَلْقَى رَبِّي، وَعِنْدَهُ أَحْتَسِبُ مَا نَزَلَ بِي، وَإِنِّي غَادٍ إِلَى جَمَاعَتِكُمْ، مَبَايِعُ لِسَاحِبِكُمْ، صَابِرٌ عَلَى مَا سَاءَنِي وَسَرَكُمْ، ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

قال أبو عُبَيْدَة: فَعَدْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَصَصْتُ الْقَوْلَ عَلَى غَرِّهِ^(٧)، وَلَمْ أَخْتَزِلْ شَيْئًا مِنْ حُلُوهِ وَثَرِّهِ، وَبَكَرْتُ عُذْوَةً إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا كَانَ

(١) متزملًا: متلففًا بغطاء. يريد أنه خرج مستخفيًا.

(٢) مغلوطة: من الاعلواط، وهو ركوب الرأس على الأمور من غير روية. مخروطة: سريعة.

(٣) هيسي هيسي: مثل يضرب للرجل يأتي الأمر فيحتاج فيه إلى الجِدِّ والاجتهاد والهيس: السير.

(٤) يضطبعون به: يظطرون عليه. من الاضطباع أي جعل الشيء تحت الضبع، أي العُضد.

(٥) جلجلان القلب: سويداؤه. (٦) وقده: تركه عليلاً.

(٧) غره: الكسر المثنى في جلد أو ثوب. يقال: اطو الثوب على غروره، أي على مكاسره. ويريد هنا بالغر الأصل.

صباح يومئذ إذا عليّ يَخترِق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فبايعه، وقال خيراً، ووَصَفَ جميلاً، وجلس زَمِينًا^(١)، واستأذن للقيام فمضى، وتبعه عمر مكرماً له، مستثيراً لما عنده، فقال عليّ رضي الله عنه: ما قعدت عن صاحبكم كارهاً له، ولا أتيتَه فَرَقاً، ولا أقول ما أقول تَعْلَةً، وإنني لأعرف منتهى طَرْفي، وَمَحْطَ قَدَمي، وَمَنْزَع قوسي، ومَوْقِع سهمي، ولكن قد أَرَمْتُ على فأسِي^(٢) ثِقَةً بربّي في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضي الله عنهما: «كَفَيْكَ غَرْبَكَ»^(٣)، وأستوقف سربك؛ ودع العصا بليحاتها، والدلاء على رِشائها^(٤)، فإنّا من خَلْفِها وورائها؛ إن قَدَحْنَا أَوْرِينَا، وإن مَتَحْنَا أَرْوِينَا^(٥)، وإن قَرَحْنَا أَدَمِينَا، ولقد سمعتُ أمائيلَكَ التي لَعَزَت فيها عن صدر أَكِل بالجوى، ولو شئتُ لقلتُ على مقاتلك ما إن سمعته ندمتُ على ما قلتُ؛ وزعمتُ أنك قعدتُ في كسر بيتك لِمَا وَقَدَكَ به رسول الله ﷺ من فقده، فهو وَقَدَكَ ولم يَقْدُ غَيْرَكَ؟ بل مُصَابُهُ أَعْمُ وأَعْظَمُ من ذلك، وإنّ مِنْ حَقِّ مُصَابِهِ ألا تَصْدَع شَمْلَ الجماعة بفرقة لا عصام لها، ولا يؤمّن كيدُ الشيطان في بقائها، هذه العربُ حَوْلَنَا، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لم نَلْتَقِ في مَسائِه؛ وزعمتُ أن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، فمن علامة الشوق إليه نُصرة دينه، وموآزرَةُ أوليائه ومعاونَتُهُمْ؛ وزعمتُ أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تَفَرَّقَ منه، فَمِنْ العُكُوفِ على عهد الله النصيحة لعباد الله، والرافةُ على خلق الله، وبِذْلُ ما يَصْلُحون به، وَيَرْشُدون عليه؛ وزعمتُ أنك لم تعلم أن التظاهر وقع عليك، وأيّ حَقِّ لُطْ^(٦) دونك؟ قد سمعتُ وعلمتُ ما قالت الأنصار بالأمس سراً وجهراً، وتقلّبت عليه بطناً وظهراً، فهل ذكرتك، أو أشارت بك، أو وَجَدْتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه: إنك تصلح لهذا الأمر، أو أوماً بعينه، أو هَمَمَهم في نفسه؟ أُنظِرْ أن الناس ضَلُّوا من أجلك، وعادوا كَفَّارًا زهّداً فيك، وباعوا الله تعالى تحاملاً عليك؟ لا والله، لقد جاءني عَقِيل بن زيادِ الخَزَرَجِيُّ في نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيلُ بن يعقوبِ الخَزَرَجِيُّ وقالوا: إن علينا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على

(١) زمينا: وقورا.

(٢) أزميت على فاسي: كتمت ما في نفسي. وأصله أزم الفرس على فأس اللجام: أي عض وأمسك.

(٣) الغرب: الدموع.

(٤) الرشاء: الحبال.

(٥) أن متحنأ أروينا: أن استبتطنا الماء سقينا.

(٦) لط: جحد، منع.

من يَعْقِدُ الخلافة، فَأَنْكَرْتُ عليهم، ورددتُ القول في نحورهم حين قالوا: إنه يَنْتَظِرُ الوَحْيَ، وَيَتَوَكَّفُ^(١) مناجاةَ المَلِك، فقلت: ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبية محمد ﷺ، أكان الأمرُ معقودًا بأنشودة^(٢)، أو مشدودًا بأطراف لِيطة^(٣)؟ كَلَّا والله، لا عَجْمَاءُ بحمد الله إلا وقد أَفْصَحَتْ، ولا شَوْكَاءُ إلا وقد تَفَتَّحَتْ؛ ومن أعجب شَأْنِك قولُك: لولا سالفُ عهد، وسابقُ عَقْدٍ، لَشَفِيتُ غِيظي، وهل تَرَكَ الدِّينَ لأَهله أن يَشْفُوا غِيظَهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليَّةٌ قد استأصل الله شأفتَها، واقتلَعَ جرثومتَها؛ وهَوْرٌ^(٤) ليلَها، وَعَوْرٌ سِيلَها؛ وأبدلَ منها الرُّوحَ والرَّيحانَ، والهدى والبرهان؛ وزعمتُ أنك مُلْجَمٌ، ولعمري إنَّ من اتقى الله، وآثرَ رضاه، وطلَّبَ ما عنده، أمسك لسانه، وأطبَّقَ فاه، وجعل سعيه لما وراه.

فقال عليُّ رضي الله عنه: مهلاً مهلاً: يا أبا حفص، والله ما بَذَلْتُ ما بَذَلْتُ وأنا أريد نَكْثَه، ولا أَقَرُّتُ ما أَقَرُّتُ وأنا أَبْتَغِي حَوْلًا عنه؛ وإن أخسرَ الناسَ صَفْقَةً عند الله من آثَرِ النِّفاق، وأَحْتَضَنَ الشَّقَاق؛ وفي الله سلوةٌ عن كل كارث، وعليه التوكُّل في كلِّ الحوادث؛ إرجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقع القلب، مبرود الغليل، فَسِيحَ اللَّبَانِ^(٥)، فَصِيحَ اللِّسان، فليس وراء ما سَمِعْتَ وقلتُ إلا ما يَشُدُّ الأزرَّ، وَيَحْطُ الوِزْرَ، وَيَضَعُ الإصرَ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وتوفيقه.

قال أبو عُبَيْدة رضي الله عنه: فانصرف عليٌّ وعمرُ رضي الله عنهما، وهذا أصعب ما مرَّ عليَّ بعد رسول الله ﷺ.

ومن كلام عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهو مما اتصل إلينا بالرواية الصحيحة، والأسانيد الصريحة، عن محمد بن أحمد بن أبي المثنى، عن جعفر بن عون، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أنه بلغها أن أقوامًا يَتَنَاولُونَ أبا بكر رضي الله عنه، فأرسلتُ إلى أَزْفَلَةٍ من الناس، فلَمَّا حضروا أسَدَلْتُ أَسْتارَها، وَعَلَّتْ وِسَادَها، ثم قالت: أَيْي وما أَيْيَه! أَيْي والله لا تَغطوه الأيدي، ذاك طَوْدٌ مُنِيف، وظلٌّ مَدِيد؛ هيهات، كذبت الظُّنون، أَتَجَحَّ إذ أَكْذَبْتُمْ، وَسَبَقَ إذ وَنَيْتُمْ: [من البسيط]

* سَبَقَ الجَوَادِ إذا اسْتَوَلَى على الأَمَدِ *

(١) يتوكف: ينتظر. يقال: توكف الخبر: انتظره.

(٢) الأنشودة: عقدة تحل إذا جذب أحد طرفيها. (٣) الليطة: قشر القصب.

(٤) يقال: تهوّر الليل: ولى أكثره وانكسر ظلامه.

(٥) اللبان: الصدر.

فَتَى قَرِيشٍ نَاشِئًا، وَكَهْفُهَا كَهَلًا، يَفُكْ عَانِيَهَا، وَيَرِيشُ مُمْلِقَهَا، وَيَزَابُ شَعْبَهَا، وَيَلْمُ شَعَثَهَا، حَتَّى حَلِيَّتَهُ قَلْبُوبَهَا، ثُمَّ اسْتَشْرَى فِي دِينِ اللَّهِ، فَمَا بَرِحَتْ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى اتَّخَذَ بَقِنَاءَهُ مَسْجِدًا يُخَيِّي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمَبْطُلُونَ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ، وَقَيْدَ الْجَوَانِحِ، شَجِيَّ النَّشِيجِ^(١)، فَنَاعَطَفْتُ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَلِدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٥﴾ [البقرة: الآية ١٥] فَأَكْبَرْتُ ذَلِكَ رَجَالًا قَرِيشَ، فَحَنَّتْ قِسِيَّهَا، وَفَوَّقْتُ^(٢) سِهَامَهَا، وَامْتَلَوُهَا^(٣) غَرَضًا فَمَا قَلَّوْا لَهُ صَفَاةً^(٤)، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاةً، وَمَرَّ عَلَى سِيَسَائِهِ^(٥)، حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ^(٦)، وَأَلْقَى بَرْكَهَ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالًا وَأَشْتَاتًا، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ ﷺ نَصَبَ الشَّيْطَانُ رِوَاقَهُ، وَمَدَّ طُنْبِيهَ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الْإِسْلَامِ، وَمَرَجَ عَهْدُهُ، وَمَاجَ أَهْلُهُ، وَبُغِيَ الْغَوَائِلُ، وَظَلَّتْ رَجَالُ أَنْ قَدْ أَكْثَبَ نَهْزُهَا، وَلَاتَ حِينَ الَّذِينَ يَرْجُونَ، وَأَتَى وَالصَّدِيقُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ؟ فَقَامَ حَاسِرًا مَشْمُرًا، فَجَمَعَ حَاشِيَّتِيهِ، وَرَفَعَ قُطْرِيهِ، فَردَّ رَسَنَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ، وَلَمْ شَعْنَهُ بِطَبِّهِ^(٧)، وَأَقَامَ أَوْدَهُ^(٨) بِثِقَافِهِ، فَابْدَعَرَ النِّفَاقُ بَوَاطِنَهُ، وَأَتَنَاشَ الدِّينَ فَتَنَعَشَهُ، فَلَمَّا أَرَاهُ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَرَّرَ الرُّؤُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْبِهَا، أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ، فَسَدَ ثُلُمَتُهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ، وَشَقِيقِهِ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدِلَةِ، ذَاكَ ابْنُ الْخَطَّابِ، اللَّهُ دَرَّ أُمَّ حَفَلَتْ لَهُ، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ! لَقَدْ أَوْحَدْتُ بِهِ، فَفَتَّخَ الْكُفْرَةَ وَدَيَّخَهَا، وَشَرَّدَ الشُّرْكَ شَذَرَ مَذَرَ^(٩)، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَخَعَهَا^(١٠)، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا، وَلَقَطَتْ جَنِينَهَا، تَرَأَاهُ وَيَصْدِفُ عَنْهَا، وَتَصْدِي لَهُ وَيَأْبَاهَا، ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فَيْئَهَا، وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَبَهَا؛ فَأَرْوَنِي مَا تَرْتَابُونَ؟ وَأَيُّ يَوْمِي أَبِي تَنْقُمُونَ؟ أَيُّومَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدَلَ فِيكُمْ، أَمْ يَوْمَ طَغْيِهِ وَقَدْ نَظَرَ لَكُمْ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت: أنشدكم الله، هل أنكرتم مما قلتُ شيئًا؟ قالوا: اللهم لا.

(١) النشيج: البكاء من غير انتحاب.

(٢) فوقت سهامها: جعلت لها فوقًا. والفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. يعني صوبتها.

(٣) امتلأوه غرضًا: جعلوه هدفًا يرمى.

(٤) الصفاة: الصخرة.

(٥) السيساء: منتظم فقار الظهر.

(٦) الجران: باطن عنق الفرس.

(٧) طيه: مداواته.

(٨) الأود: الاعوجاج.

(٩) شذر مذر: أي فرقوا في كل جهة.

(١٠) بخعها: أذلها وأتعبها.

ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها

الأَرْفَلَةُ: الجماعة. وتَغْطُوهُ: تَنَاوَلُهُ. والطَّوْد: الجبل. والمُنِيف: المُشْرِف، وأَكْدَيْتُمْ: خَبْتُمْ وَيُسَّسَ من خيركم. ووَنَيْتُمْ: فَتَرْتَم وضعفتم. والأَمْد: الغاية. وَيَرِيش: يُعْطِي وَيُفْضِل. والمُمْلِق: الفقير. وَيَرَأَب: يَجْمَع. والشَّعْبُ: المتفرِّق. وَيَلْمُ: يَضْمُ. واستَشْرَى: جَدَّ وَأَنكَمَش. والشَّكِيمَةُ: الأنْفَةُ والحَمِيَّةُ. والوَقِيدُ: العَلِيل. والجوانح: الضلوع القِصارُ التي تقرب من الفؤاد. والشجِي: الحزين. والنَّشِيجُ: صوتُ البكاء. وانعطفْتُ: انشئت. وامتلوه: مثلوه. والغرض: الذي يُقصد للرَّمْي. وقلَّوا: كَسَروا. والصفاء: الصخرة الملساء. وقَصَفُوا: كَسَروا. وسيساؤه: شدته، والسَّيسَاءُ: عَظْم الظَّهْرِ، والعرب تضربه مثلاً لشدَّة الأمر، قال الشاعر^(١):
[من الطويل]

لقد حَمَلْتُ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ حَرَبَنَا عَلَى يَابِسِ السَّيسَاءِ مُخْدَوِدِ الظَّهْرِ

والجِرَانُ: الصُّدُرُ. وَرَسَتْ: ثَبَتَتْ. وَمَرَجَ: اِخْتَلَطَ. وماجَ أَهْلُهُ: اضْطَرَبُوا وتنازعوا. وَبُغِيَ الغوائلُ، معناه وطُلبُ البلايا. وَأَكْتَبَ: قَرَّبَ. والتَّهَزُّ: اختلاسُ الشيء والظَّفَرُ به مبادرةً. ولات حين الذي يطلبون، معناه: وليست الساعة حينَ ظَفَرِهِمْ. وقولها: فَجَمَعَ حاشيتيه وَرَفَعَ قُطْرِيه، معناه تحزَّم للأمر وتأهَّبَ له. والفُطْرُ: الناحية. والطَّبُّ: الدواء. والأَوْدُ: العَوَجُ. والثِّقَافُ: تقويمُ الرماح وغيرها. وابْدَعَرُ: تَفَرَّقَ. وانتاش الدِّينَ، أي أزال عنه ما يُخاف عليه. وَنَعَشَهُ: رَفَعَهُ. وأراح الحقُّ على أَهْلِهِ، أي أعاد الزكاة التي مَنَعَتْهَا العرب فقاتلَ عليها حتى رُدَّتْ إلى حكم رسول الله ﷺ. وَقَرَّرَ الرُّؤُوسَ على كواهلها، معناه وقَّى المسلمين القتل. والكاهلُ: أعلى الظهر وما يتصل به. وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْبِهَا، معناه أنه حقن دماء المسلمين في أجسادهم. والأُهْبُ: جمعُ إهاب، وأصلُ الإهاب الجلد، فَكُنْتُ به عن الجسد. وقولها: اللَّهُ ذَرَأَ أُمَّ حَقَلَتْ لَهُ، أي جمعت له اللبن. وقولها: أَوْحَدَتْ بِهِ، معناه جاءت به منفردًا لا نظير له. وقولها: فَفَتَّخَ الكُفْرَةَ، معناه أَذْلَهَا. وَدَيَّحَهَا: صَغَّرَ بِهَا. وَبَعَجَ الأرضَ وَبَحَّعَهَا، معناه شَقَّهَا واستقصى غَلَّتْهَا. وَشَدَّرَ مَذَرَ، معناه تفريقًا، يقال: شَدَّرَ مَذَرَ، وَشَغَّرَ بَغَرَ، بمعنى واحد. وقولها: حتى قاءت أَكْلَهَا، معناه أخرجت الخير. وَتَرَأَّمَهُ: تعطف عليه. وَتَصَدَّى لَهُ: تَعَرَّضُ لَهُ.

(١) الشاعر هو الأخطل، الشاعر الأموي المشهور.

ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كَتَبَ به إلى معاوية بن أبي سفيان جوابًا عن كتابه - وهو من محاسن الكتب - كتب رضي الله عنه :

أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكُرُ فيه أصطفاء الله تعالى محمدًا ﷺ لدينه، وتأيدَه إِيَّاهُ بمن أيدَه به من أصحابه، فلقد خَبَأَ لنا الدهرُ منك عَجَبًا، أَفْطَيْقَتْ تُخْبِرُنَا بِآلَاءِ اللَّهِ عِنْدَنَا؟ فَكُنْتُ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِيٍّ مَذْرُوٍّ إِلَى التُّضَالِ؛ وَزَعَمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فَلَانٌ وَفَلَانٌ، فَذَكَرْتُ أَمْرًا إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْ كُلُّهُ؛ وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلُ وَالْمَفْضُولُ، وَالسَّائِلُ وَالْمَسْئُولُ؟ وَمَا الطُّلُقَاءُ وَأَبْنَاءُ الطُّلُقَاءِ وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ؟ هِيَاهُ لَقَدْ «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا»^(١)، وَطَفِيقٌ يَحْكُمُ فِيهَا مِنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا، أَلَا تُزْبِعُ عَلَى ظُلْمِكَ^(٢)، وَتَعْرِفُ قُصُورَ دَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ، فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ، وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي النَّيِّهِ، رَوَّاعٌ عَنِ الْفَضْلِ، أَلَا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحْدِثُ - أَنَّ قَوْمًا اسْتَشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ - وَلِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا اسْتَشْهِدَ شَهِيدُنَا (هُوَ حِمَزَةٌ) قِيلَ: سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَلِكُلِّ فَضْلٍ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِأَحَدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ، وَذُو الْجَنَاحَيْنِ (هُوَ جَعْفَرُ) وَلَوْلَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِيةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فُضَائِلَ جَمَّةٍ تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تُمَجِّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ، فَدَعَ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الدِّينَةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدَ صَنَائِعِ لَنَا، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عِزِّنَا، وَعَادَى طَوْلُنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاهُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا فِعْلَ الْأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ، وَأَنْتَى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟ وَمَتَا النَّبِيُّ وَمَنْكُمُ الْمَكْذُوبُ^(٣)، وَمَتَا أَسَدُ اللَّهِ، وَمَنْكُمُ أَسَدُ الْأَحْلَافِ، وَمَنَا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْكُمُ صَبِيَّةُ النَّارِ، وَمَنَا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمَنْكُمُ حَمَالَةُ الْحَطَبِ؛ فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ، كِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْفِتَنِ بَيْنَهُمْ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا: مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ يَفْتَخِرُ بِقَبِيلَةٍ لَيْسَ مِنْهَا.

(٢) الظَّلْعُ: الْعَيْبُ، وَالْعَرَجُ.

(٣) الْمَكْذُوبُ: أَبُو جَهْلٍ، وَأَسَدُ اللَّهِ: حِمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ. وَأَسَدُ الْأَحْلَافِ: أَبُو سُفْيَانَ. وَسَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَلِذَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. وَصَبِيَّةُ النَّارِ: أَوْلَادُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ. وَخَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ. وَحَمَالَةُ الْحَطَبِ: أُمُّ جَمِيلُ بِنْتُ حَرْبِ عَمَةِ مُعَاوِيَةَ وَزَوْجَةُ أَبِي لَهَبٍ.

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران: الآية ٦٨] فنحن مرّةً أولى بالقرابة، وتارةً أولى بالطاعة؛ ولما احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فَلَجُوا^(١) عليهم، فإن يكن الفلجُ به فالحقُّ لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم؛ وزعمتُ أنّي لكلّ الخلفاء حسدٌ، وعلى كلّهم بغيتُ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فتكون المَعذرةُ إليك: [من الطويل]

✽ وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها^(٢) ✽

وقلتُ: إني كنت أفاذُ كما يقاد الجملُ المخشوشُ^(٣) حتى أبايعَ، ولعمر الله لقد أردتُ أن تَدُمَ فحمِدتُ، وأن تَفْضَحَ فافتضحت، وما على المسلم من غُضاضةٍ في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً في يقينه، وهذه حُجَّتِي إلى غيرك قُضْدُها، ولكنني أطلّقتُ لك منها بقدر ما سَنَحَ من ذِكْرِها.

ثم ذُكِرْتُ ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لِرَجْمِهِ منك، فأينما كان أَعْدَى له، وأَهْدَى إلى مَقَاتِلِهِ؟ أَمِنْ بَدَلٍ له نُصْرَتُهُ فاستقعدته وأستكفّه، أَمِنْ أَسْتَنْصَرَهُ فتراخى عنه، وَبَثَّ الْمُنُونَ إليه، حتى أتى قَدْرَهُ عليه؟ كَلَّا والله ﴿٦٩﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٠﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] وما كنْتُ أَعْتَذِرُ من أنّي كنْتُ أَنْقِمَ عليه أحداً، فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له «فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»: [من الطويل]

✽ وقد يستفيد الظنّة المتنصّح^(٤) ✽

وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما أستطعتُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هُود: الآية ٨٨]؛ وذكرْتُ أنه ليس لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد أضحكتُ بَعْدَ استعبار، متى أَلْفَيْتُ بني عبد المطلب عن الأعداء ناكِلِينَ^(٥)، وبالسيف مخوفين؟ «لَبْتُ قَلِيلًا

(١) فلج: فاز.

(٢) ظاهر عنك عارها: لم يعلق بك عارها. وقوله: «وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها» عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي وصوره: وعيرها الواشون أنّي أحبها. (ابن منظور، لسان العرب، مادة ظهر).

(٣) المخشوش: الذي أدخل الخشاش في أنفه. والخشاش بكسر الخاء: خشبة تدخل في أنف الجمل.

(٤) الظنّة: التهمة. وصدر هذا البيت: ولم سقت في آثارهم من نصيحة.

(٥) الناكل: المتراجع والمحجم.

يلحق الهيجا حمل^(١) فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مُزقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسرلين سرايل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، قد صحتهم ذرية بذرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجذك وأهلك^(٢) ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الْفَالِيلِينَ بَعِيدٌ﴾ [هود: الآية ٨٣].

ومن كلام الأحنف بن قيس حين وبّخه معاوية بن أبي سفيان بتخذيله عائشة رضي الله عنها، وأنه شهد صفين، وقال له: فعلت وفعلت؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لم ترد الأمور على أعقابها؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لعلّ عواتقنا، ولئن مددت بشبر من عذر، لئمدت باعاً من خثر^(٣)، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو جلمك؛ قال معاوية: أفعل.

وجلس معاوية يوماً وعنده وجوه الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجل من أهل الشام، فقام خطيباً، فكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله عنه، فأطرق الناس، وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل أنفاً ما قال لو علم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله، ودع علياً فقد لقي الله، وأفرد في حفرته، وخلا بعمله، وكان والله - ما علمنا - المبرز بسبقه، الطاهر في خلقه؛ الميمون الثقيبه، العظيم المصيبه. قال معاوية: يا أحنف، لقد أغضيت العين على القذى، وقلت بغير ما ترى، وأيم الله لتضعدن المنبر فلتلعننه طائعا أو كارها؛ فقال الأحنف: إن تغفني فهو خير، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري بشفتاي؛ فقال معاوية: قم فاصعد؛ قال: أما والله لأنصفنك في القول والفعل؛ قال معاوية: وما أنت قائل إن أنصفتني؟ قال: أصعد فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه، ثم أقول: أيها الناس، إن معاوية أمرني أن ألعن علياً، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا، وأدعى كل واحد منهما أنه مبيغي عليه وعلى فتيته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله؛ ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك ورسلك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والفئة الباغية على المبيغي عليها، آمين يا رب العالمين؛ فقال معاوية: إذن تغفيك يا أبا بحر.

(١) لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل: مثل يضرب للتهديد بالحرب وحمل هو ابن بدر. (انظر لسان العرب، مادة حمل).

(٢) أخوه: حنظلة. وخاله: الوليد بن عتبة. وجده: عتبة بن ربيعة.

(٣) الخثر: القبح.

وَأَتَى الْأَحْنَفُ مُضْعَبَ بْنِ الزَّيْبِرِ يَكْلِمُهُ فِي قَوْمِ حَبْسِهِمْ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ،
إِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي بَاطِلٍ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي حَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ؛
فَخَلَاهُمْ.

ولما قَدِمَ وفدُ العراقِ على معاويةَ وفيهمُ الأحنفُ، خرجَ الآذَنُ فقال: إِنَّ أَمِيرَ
المؤمنينَ يعزمُ عليكم أَلَّا يَتَكَلَّمَ أَحَدٌ إِلَّا لِنَفْسِهِ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ قَالَ الْأَحْنَفُ: لَوْلَا
عَزْمَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَخْبَرْتُهُ أَنْ دَافَقَ (أَيَّ الْجَمَاعَةِ) دَقَّتْ^(١)، وَنَازَلَةُ نَزَلَتْ، وَنَائِبَةُ
نَابَتْ، وَكُلُّهُمْ بِهِمُ الْحَاجَةُ إِلَى مَعْرُوفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِرِّهِ؛ فَقَالَ: حُسْبُكَ يَا أَبَا بَحْرٍ،
فَقَدْ كَفَيْتَ الْغَائِبَ وَالشَّاهِدَ.

ولما خطبَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ بِالْبَصْرَةِ قَامَ الْأَحْنَفُ فَقَالَ:

لِلَّهِ الْأَمِيرُ! قَدْ قُلْتَ فَاسْمَعْتَ، وَوَعظْتَ فَأَبْلَغْتَ؛ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، إِنَّمَا السِّيفُ
بِحَدِّهِ، وَالْقَوْسُ بِشِدَّةِ، وَالرَّجُلُ بِمَجِيدِهِ؛ وَإِنَّمَا الثَّنَاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ؛
وَلَنْ تُنْيِيَ حَتَّى تَبْتَلِي، وَلَا تَحْمَدُ حَتَّى تُعْطَى.

ولما حُكِّمَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ أَتَاهُ الْأَحْنَفُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُوسَى، إِنَّ هَذَا
مَسِيرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنْ عِزِّ الدُّنْيَا أَوْ ذُلِّهَا آخِرَ الدَّهْرِ، أَدْعُ الْقَوْمَ إِلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ، فَإِنْ أَبَوْا
فَادْعُهُمْ أَنْ يَخْتَارَ أَهْلُ الشَّامِ مِنْ قُرَيْشِ الْعِرَاقِ مَنْ أَحَبُّوا، وَيَخْتَارَ أَهْلُ الْعِرَاقِ مِنْ
قُرَيْشِ الشَّامِ مَنْ أَحَبُّوا، وَإِيَّاكَ إِذَا لَقِيتَ أَبْنَ الْعَاصِ أَنْ تَصَافَحَهُ بَنِيَّةً، وَأَنْ يُقْعِدَكَ عَلَى
صَدْرِ الْمَجْلِسِ، فَإِنَّهَا خَدِيعَةٌ، وَأَنْ يَضُمَّكَ وَإِيَّاهُ بَيْتٌ فَيَكْمُنُ لَكَ فِيهِ الرِّجَالُ، وَدَعِهِ
فَلْيَتَكَلَّمْ لَتَكُونَ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ، فَالْبَادِيءُ مُسْتَغْلَقٌ، وَالْمَجِيبُ نَاطِقٌ؛ فَمَا عَمِلَ أَبُو مُوسَى
إِلَّا بِخِلَافِ مَا قَالَ الْأَحْنَفُ وَأَشَارَ بِهِ، فَكَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا كَانَ؛ فَلَقِيَهُ الْأَحْنَفُ بَعْدَ ذَلِكَ
فَقَالَ لَهُ: أَذْخَلَ وَاللَّهِ قَدَمِيكَ فِي خُفٍّ وَاحِدَةٍ.

وقال بخراسان: يَا بَنِي تَمِيمٍ، تَحَابُّوا تَجْتَمِعْ كَلِمَتُكُمْ وَتَبَادَّلُوا تَعْتَدِلْ أُمُورُكُمْ،
وَأَبْدُوا بِجِهَادِ بَطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ يَصْلَحُ دِينُكُمْ، وَلَا تَغْلُوا^(٢) يَسْلَمْ لَكُمْ جِهَادُكُمْ.

ولما قَدِمَتِ الْوُفُودُ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَامَ هِلَالُ بْنُ
بِشْرِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّا غُرَّةُ^(٣) مَنْ خَلَقْنَا مِنْ قَوْمِنَا، وَسَادَةٌ مِنْ وَرَاءِنَا مِنْ
أَهْلِ مِصْرِنَا؛ وَإِنَّكَ إِنْ تَصَرَّفْتَ بِالزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِنَا، وَالْفَرَائِضِ لِعِيَالَتِنَا، يَزْدَدُ بِذَلِكَ

(٢) غَلَّ غُلُولًا: خَانَ فِي الْمَغْنَمِ.

(١) دَفَّتْ: نَزَلَتْ أَوْ أَتَتْ.

(٣) غُرَّةُ الْقَوْمِ: أَشْرَافُهُمْ.

الشريف تأملاً، وتكن لهم أبا وُصُولاً؛ وإن تكن مع ما نُمْتُ به من وسائلك، وندلي به من أسبابك كالجدل^(١) لا يَحُلْ ولا يَرْتَجِلْ، نَرْجِعْ بأنوفِ مصلومة^(٢)، وُجُودِ^(٣) عاثرة، فَمِحنًا^(٤) وأهالينا بِسَجَلٍ مُتْرَعٍ^(٥) (أي الدُّلُو المَلانة) من سِجالك المترعة.

وقام زيد بنُ جَبَلَةَ فقال: يا أمير المؤمنين، سَوَدَ الشريف، وأكرمَ الحبيب، وازرع عندنا من أياديك ما تسدُّ به الخِصاصة، وتطرده به الفاقة؛ فإننا بِقُفٍّ^(٦) من الأرض يابس الأكناف، مقشعرُ الدُّرُوة، لا مُتَجَرِّ ولا زرع، وإننا من العرب اليوم إذ أتيناك بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ.

فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ الخير بيد الله، والجِرْصُ قائدُ الجِزْمان، فأتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قِيلاً ولا قالاً، وأجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف سبباً يكفيك وفادة الوفود، وأستمache الممتاح^(٧)، فإن كلَّ امرئٍ إنما يجمع في وعائه الأقلَّ ممن عسى أن تقتحِمَه الأعيُنُ فلا يوفد إليك.

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية - وكانت من الفصحاء -

حُكِي أنها لما وَفَدَتْ على معاوية قال لها كيف كان كلامك يوم قُتِلَ عَمَّار بنُ ياسِر؟ قالت: لم أكن والله زُورته^(٨) قَبْلُ ولا رَوَيْته بعد، وإنما كانت كلماتُ نَفْثَهن لساني حين الصدمة، فإن شئتُ أن أُخْبِرَ لك مقالاً غيرَ ذلك فعلتُ، قال: لا أشاء ذلك، ثم أَلْتَفَتَ إلى أصحابه فقال: أيكم حَفِظَ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد، قال: هاته، قال: نعم، كأني بها يا أمير المؤمنين عليها بُزْدُ زَيْدِي، كَثِيفُ الحاشية، وهي على جَمَلِ أَرْمَكِ^(٩)، وقد أحيطَ حولها وببدها سوطٌ منتشرُ الضُّفْرِ^(١٠)، وهي كالفحل يهدُر في شِقْشِقَتِهِ تقول: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: الآية ١] إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورَفَعَ العَلَمَ، فلم يدَعكم في عَمِيَاء

(١) الجَدَل: العضو.

(٢) مصلومة: مقطوعة، من صلِم أي قطع.

(٣) جدود: جمع جد، أي حظ.

(٤) محنا: أعطنا، من المنيح أي العطاء.

(٥) سجل مترع: دلو ملآن.

(٦) القف: ما ارتفع من الأرض.

(٧) الممتاح: الطالب المستخرج، ومتح الماء: استخرجه.

(٨) زورته: هذبه وثقفته، من قولهم زور الحديث إذا أزال زوره أي اعوجاجه.

(٩) أرمك: من الرمكة، وهي لون التراب. (١٠) الضُّفْر: الفتل.

مبهمة، ولا سوداء مدلهمة؛ فأئني تريدون رحمكم الله؟ أفرارًا عن أمير المؤمنين، أم فرارًا من الزخف، أم رغبة عن الإسلام، أم أردت إذا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٢١﴾ [محمّد: الآية ٣١] ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيّل الصبر، وضُغف اليقين، وأنشَرت الرغبة، وببديك يا رب أزمّة القلوب، فأجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، ورّد الحق إلى أهله؛ هلّموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصيّ الوفيّ، والصّديق الأكبر؛ إنها إحنٌ بدرية^(١) وأحقادٌ جاهلية، وضغائنٌ أحدىة^(٢)، وثَبَّ بها معاوية حين الغفلة ليُدرك ثارات بني عبد شمس؛ ثم قالت: ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَمْنَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢]، صبرًا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بك غداً قد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة، فرّت من قسورة، لا تُدرِي أين يُسلَك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، و﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَارِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٠]، حين تُحلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار؛ أيها الناس، إنّ الأكياس استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، وأستبطؤوا مُدّة الآخرة فسعّوا لها؛ والله أيها الناس، لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فألى أين تريدون - رحمكم الله -؟ عن ابن عمّ رسول الله ﷺ، وزوج أبنته، وأبي أبنيه، خلق من طينته، وتفرّع عن نُبُعته، وخَصّه بسِرّه، وجعله بابَ مدينته، وأعلّم بحبّه المسلمين، وأبان بغيظه المنافقين؛ فلم يزل كذلك يؤيّده الله بمعونته، ويمضي على سنن استته، لا يعرّج لراحة اللذات؛ وهو مفلّق الهام، ومكسر الأصنام؛ إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون؛ فلم يزل كذلك حتى قتل مبارِزي بذر، وأفنى أهل أحد، وفَرَّقَ جَمَعَ هَوازن، فيا لها وقائع زرعَتْ في قلوب قوم نفاقاً، وردّة وشقاقاً! وقد أجتهدتُ في القول، وبالعُتُ في النصيحة، وبالله التوفيق؛ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

(١) إحنٌ بدرية: مفردة إحنة، أي الحقد. بدرية نسبة إلى موقعة بدر التي نسبت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها النبي على المشركين.

(٢) ضغائنٌ أحدىة: نسبة إلى أحد المعركة التي جرت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها المشركون.

فقال معاوية: والله يا أم الخير^(١) ما أردت بهذا إلا قتلي، والله لو قتلتك ما حرجتُ في ذلك؛ قالت: والله ما يسوؤني يا ابنَ هند أن يُجريَ الله ذلك على يدي من يُسعِدني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيْتُ أن أقول فيه؟ استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيها^(٢) يا أم الخير، هذا والله أصلُك الذي تَبين عليه، قالت: لكن الله يشهد ﴿وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: الآية ٧٩] ما أردتُ بعثمانَ نقصًا، ولقد كان سبًا قًا إلى الخيرات، وإنه لرفيعُ الدرجات؛ قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ اغتيل من مأمِنه، وأتني من حي لم يحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة؛ قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الضبع يُعركُ في المِرْكَن^(٣)؛ قال: حقًا لتقولن ذلك، وقد عَزَمْتُ عليك؛ قالت: وما عسيْتُ أن أقول في الزبير ابنَ عمة رسول الله ﷺ وحواريه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ولقد كان سبًا قًا إلى كلِّ مكرمة في الإسلام؛ وإني أسألك بحق الله يا معاوية - فإن قريشًا تحدث أنك من أحلمها - أن تسعني بفضل حِلْمك، وأن تُعفيني من هذه المسائل، وأمض إلى ما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك، ورَدَّها مكرمةً إلى بلدِها.

وممن أشتَهَرَ بالفصاحة والبلاغة زياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وسنذكر نبذة من كلامها في التاريخ عند ذكرنا لأخبارهما لما ولي كلُّ منهما العراق، وما خطب الناس به، ولنذكر في هذا الموضع من كلام الحجاج ما لم نُورده هناك.

قيل: لما قَدِمَ الحجاج البصرةَ خطب فقال: أيها الناس، من أعياه داؤه، فعندي دواؤه؛ ومن استطال أجله، فعلي أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه وضعتُ عنه ثقله؛ ومن استطال ماضي عمره قصرْتُ عليه باقيه؛ إن للشيطان طينًا، وللسلطان سيفًا؛ فمن سَقَمَت سريرته، صحت عقوبته؛ ومن وضعه دُبُّه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة؛ ومن سبقته بادرةً فيه، سبق بدنه بسفك دمه؛ إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق^(٤) ولا تكم،

(١) أم الخير بنت الحريش البارقية: (٢) إيها: حسبك.

(٣) المِرْكَن: الوهاب الذي يغسل فيه، ولعلها تريد: لا تدعني أدنس بالذم أهل الطهارة، وألصق العيوب بمن لا عيب فيه.

(٤) الترنيق: الضعف في الأمر.

ومن أَسْتَرَحَى لَبِيْهِ^(١) ساء أدبه، إِنَّ الحِزْمَ والعِزْمَ سلباني سَوَطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمُه في يدي، وَنِجَادُه في عنقي، وَدُبَابُه قِلَادَةُ لِمَن عَصَانِي، والله لا أَمْر أَحَدُكُمْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ فَيَخْرُجَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ إِلَّا ضَرَبَتْ عُنُقَهُ.

قال مالك بنُ دِينَار^(٢): رُبَّمَا سَمِعْتُ الْحِجَّاجَ يَذْكُرُ مَا صَنَعَ فِيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمَا صَنَعَ بِهِمْ، فَيَقَعُ فِي نَفْسِي أَنَّهُمْ يَظْلُمُونَهُ لِبَيَانِهِ وَحَسَنِ تَخْلِيصِهِ لِلْحَجَّجِ.

وخطب الحِجَّاجُ بَعْدَ وَقْعَةِ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ^(٣) فقال: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَسْتَبْطَنَكُمْ فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامَعَ وَالْأَطْرَافَ وَالْأَعْضَاءَ وَالشَّغَافَ، ثُمَّ أَقْضَى إِلَى الْمِخَاخِ وَالْأَصْمَاخِ، ثُمَّ أَرْتَفَعَ فَعَشَّشَ، ثُمَّ بَاضَ فَفَرَّخَ، فَحَاشَكُمْ نِفَاقًا وَشَقَاقًا، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا، وَأَتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ، وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ؛ فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةُ، أَوْ تَعْظُكُمْ وَقْعَةُ؛ أَوْ يَحْجُزْكُمْ إِسْلَامٌ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ؟ حَيْثُ رُمْتُمُ الْمَكْرَ، وَسَعَيْتُمُ بِالْغَدْرِ، وَاسْتَجْمَعْتُمُ لِلْكَفْرِ، وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ خَذَلَ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ، وَأَنَا أَرْمِيكُمْ بِطَرْفِي، تَتَسَلَّلُونَ لِيَوَادًا، وَتَنْهَزُمُونَ سِرَاعًا ثُمَّ يَوْمَ الزَّوَايَةِ^(٤) وَمَا يَوْمَ الزَّوَايَةِ! بَهَا كَانَ قَسْلُكُمْ وَتَنَازُعُكُمْ وَتَحَاذُلُكُمْ وَبِرَاءَةُ اللَّهِ مِنْكُمْ، وَنُكُوصُ وَلِيْكُمْ عَنْكُمْ إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشُّوَارِدِ إِلَى أَوْطَانِهَا النَّوَازِعِ إِلَى أَعْطَانِهَا؛ لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ؛ حَتَّى عَظَّكُمْ^(٥) السِّلَاحَ، وَقَصَّمَتْكُمْ الرِّمَاحَ، ثُمَّ دِيرُ الْجَمَاجِمِ، وَمَا دِيرُ الْجَمَاجِمِ! بَهَا كَانَتِ الْمَعَارِكُ وَالْمَلَاخِمُ؛ بِضَرْبِ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ، وَيَصْرِفُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ؛ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، وَالْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ، وَالْغَدْرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ، وَالثُّورَةَ بَعْدَ

(١) اللَّيْبُ: مَا يَشُدُّ الرَّحْلَ أَوْ السَّرْحَ عَلَى صَدْرِ الدَّابَّةِ فَيَمْنَعُهُ مِنَ الْاسْتِخَارِ. يَعْنِي أَنَّ اللَّيْنَ يَفْسُدُ الرِّعْيَةَ.

(٢) مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: (١٣١ هـ = ٧٤٨ م)، هُوَ مَالِكُ بْنُ دِينَارِ الْبَصْرِيِّ، أَبُو يَحْيَى، مِنْ رِوَاةِ الْحَدِيثِ، كَانَ وَرَعًا، يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَيَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ بِالْأَجْرَةِ، تَوَفَّى فِي الْبَصْرَةِ. (الْأَعْلَامُ، لِلزُّرْكَلِيِّ).

(٣) دَيْرُ الْجَمَاجِمِ: بَظَاهِرُ الْكُوفَةِ عَلَى بَعْدِ سَبْعَةِ فَرَاسِخٍ مِنْهَا بِاتِّجَاهِ الْبَصْرَةِ. سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَتْ تَصْنَعُ فِيهِ الْجَمَاجِمُ وَهِيَ أَقْدَاحٌ مِنَ الْخَشَبِ. وَوَقْعَةُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ نَشِبَتْ بَيْنَ الْحِجَّاجِ بْنِ يُوْسُفَ الثَّقَفِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَشْعَثِ. وَانْهَزَمَ فِيهَا ابْنُ الْأَشْعَثِ.

(٤) يَوْمُ الزَّوَايَةِ: وَقْعَةُ أُخْرَى بَيْنَ الْحِجَّاجِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ جَرَتْ فِي مَكَانٍ بِالْقَرْبِ مِنَ الْبَصْرَةِ اسْمُهُ الزَّوَايَةُ.

(٥) عَظَّكُمْ السِّلَاحَ: عَضَّكُمْ.

الثَّورات؛ إن بعثتكم إلى تُغوركُم غَلَلْتُم^(١) وجُبُنتُم، وإن أَمِنتُم أَرَجَفْتُم، وإن خِفْتُم نَافَقْتُم؛ لا تَذْكُرُون حَسَنَةً، ولا تَشْكُرُون نِعْمَةً؛ يا أَهْلَ الْعِرَاقِ هَلْ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكُثٌ، أَوْ اسْتَغَوَاكُمْ غَاوٍ، أَوْ اسْتَفْزَكُم عَاصٍ، أَوْ اسْتَنْصَرَكُم ظَالِمٌ، أَوْ اسْتَعْصَدَكُم خَالِعٌ، إِلَّا اتَّبَعْتُمُوهُ وَأَوَيْتُمُوهُ وَنَصَرْتُمُوهُ وَزَكَّيْتُمُوهُ؟ يا أَهْلَ الْعِرَاقِ، قَلَمَّا شَغَبَ شَاغِبٌ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ، أَوْ زَفَرَ كَاذِبٌ إِلَّا كُنْتُمْ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ؛ يا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَمْ تَنْهَكُمُ الْمَوَاعِظَ، وَلَمْ تَزْجُرْكُمُ الْوَقَائِعَ. ثُمَّ أَلْتَفْتُ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ^(٢) عَنْ فِرَاحِهِ، يَنْفِي عَنْهَا الْمَدْرَ، وَيَبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ، وَيَكْنُثُهَا مِنَ الْمَطَرِ؛ وَيَحْمِيهَا مِنَ الضُّبَابِ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذَّنَابِ؛ يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ الْجَنَّةُ وَالرَّءَاءُ، وَأَنْتُمْ الْعُدَّةُ وَالْجِذَاءُ.

ومن مكاتباته إلى المهلب بن أبي صفرة وأجوبة المهلب له

كتب الحجاج إليه وهو في وجه الخوارج: أما بعد، فإنه بلغني أنك قد أقبلت على جباية الخراج، وترك قتال العدو، وإني وليتك وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي، وعباد بن حصين الحبطي، وأخترتك وأنت رجل من الأزد، وأنا أقسم إن لم تلقهم في يوم كذا أشرعت إليك صدر الرمح. فأجابه المهلب: ورد علي كتابك تزعم أنني أقبلت على جباية الخراج، وترك قتال العدو لعجز؛ وزعمت أنك وليتني وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعباد بن حصين، ولو وليتهما لكانا مستحقين لذلك في فضلهما وغنائهما؛ وأنت اخترتني وأنا رجل من الأزد، ولعمري إن شراً من الأزد لقبيلة تنازعها ثلاث قبائل لم تستقر في واحدة منهم؛ وزعمت أنني إن لم ألقهم في يوم كذا أشرعت إلي صدر الرمح، فلو فعلت لقلبك إليك ظهر المجن^(٣).

ووجه إليه الحجاج يستبطئه في مناجزة القوم، وكتب إليه: أما بعد، فإنك جيت الخراج بالعلل، وتحصنت بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعز ناصراً وأكثر عدداً، وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبناً، ولكنك اتخذتهم أكلاً، ولإبقائهم أيسر عليك من قتالهم، فناجزهم وإلا أنكرتني، والسلام.

(١) غللتم: من الغلول وهو الخيانة في الغنime.

(٢) الظليم الرامح: ذكر النعام الضارب برجله.

(٣) المجن: الترس. وقلب له ظهر المجن، أي عاداه وحاربه.

فقال المهلب للجراح: يا أبا عُقبة، والله ما تركتُ حيلةً إلّا أحتلتُها، ولا مَكيدةً إلّا عَمِلْتُها، وليس العَجَبُ من إبطاء النصر، وتراخي الظفر، ولكن العَجَبُ أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره؛ ثم ناهَضهم ثلاثة أيام يغاديههم، ولا يزالون كذلك إلى العصر حتى قال الجراح: قد أعذرت؛ وكتب إلى الحجاج: أتاني كتابك يستبطن لقاء القوم، على أنك لا تظن بي معصية ولا جبناً، وقد عاتبني معاتبة الجبان، وأوعدتني وعيد العاصي، فسأل الجراح والسلام. فكتب إليه الحجاج: أما بعد، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ويرجعون بعدرك، وذاك أنك تُمسك حتى تَبْرأ الجراح وتُنسى القَتلى، ويَجْم الناس، ثم تلقاهم فتحمل منهم مثل ما يحملون منك من وخشة القتل وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجِدْ لكان الداء قد حُسِم، والقرن قد قُصِم، ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأن من ورائك رجالاً، وأمامك أموالاً، وليس للقوم إلّا ما معهم، ولا يُدرك الوجيف بالذبيب^(١)، ولا الظفر بالتعذير^(٢).

فكتب إليه المهلب: أما بعد، فإني لم أعطِ رسلك على قول الحق أجراً، ولم أحتج منهم مع المشاهدة إلى تلقين؛ وذكرت أنني أجم^(٣) القوم، ولا بد من راحة يستريح فيها الغالب ويحتال المغلوب؛ وذكرت أن في الإجمام ما يُنسي القَتلى، ويُبرئ الجراح، وهيئات أن يُنسى ما بيننا وبينهم، يأبى ذلك قتل من لم يجن، وفروخ لم تتقرف^(٤)؛ ونحن والقوم على حالة، وهم يرقبون حالات، إن طمِعوا حاربوا، وإن ملؤا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتني فالداء بإذن الله محسوم، وإن أعجلتني لم أطغك ولم أغص، وجعلت وجهي إلى بابك، وأنا أعوذ بالله من سخط الله ومقت الناس.

وقال المهلب^(٥) لبيته: يا بني تبادلوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفون، فكيف بني العلات^(٦)؛ إن البر ينسأ في الأجل، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تُورث القلة،

(١) الوجيف: السرعة.

(٢) التعذير: التقصير في الأمر.

(٣) أجم الناس: أراحهم.

(٤) تتقرف: تبرا. (٥) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري: من أشجع الناس، حمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز. وكان سيذاً جليلاً نبيلاً. ولم يُعَب بشيء إلا بالكذب. وآخر ما ولي خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي وفيها توفي سنة ٨٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٣٢).

(٦) بنو العلات: الأبناء من أمهات شتى وأب واحد.

وتعقب النارَ بعد الذَّلَّة؛ واتقوا زَلَّةَ اللسان، فإنَّ الرجلَ تَزَلُّ رِجلُهُ فَيَتَعَثَّ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فَيَهْلِكُ؛ وعليكم في الحربِ بالمَكيدة، فإنَّها أبلغُ من التَّجْدَةِ.

ولَمَّا اسْتَخْلَفَ أَبْنَهُ المَغيرةَ على حربِ الخوارج، وعاد هو إلى عندِ مُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ، جَمَعَ النَّاسَ فقال لهم: إني قد استخلفت عليكم المَغيرةَ، وهو أبو صغيركم رَقَّةً ورحمةً، وابنُ كبيركم طاعةٌ وتبجيلاً وبرًّا، وأخو مثله مواساةٌ ومناصحةٌ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم، وليلنَّ له جانيكم، فوالله ما أردتُ صواباً قطَّ إلا سبقتني إليه.

وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بَلَغَ الغُلظةَ قام إليه رجل من آل صُوحانَ فقال: مهلاً مهلاً يا بني مَرْوان، تَأْمُرُونَ ولا تَأْتِمِرُونَ، وَتَنْهَوْنَ ولا تُنْهَوْنَ، وَتَعْظُونَ ولا تَتَعْظُونَ؛ أَفَنَقْتِدِي بِسِيرَتِكُمْ في أَنْفُسِكُمْ، أم نَطِيعُ أَمْرَكُمْ بالسُّنَّتِكم؟ فإن قُلتُم: إقْتَدُوا بسيرتنا، فَأَتَى وَكَيْفَ، وما الْحُجَّةُ، وما الْمَصِيرُ من الله؟ أَتَقْتِدِي بِسِيرَةِ الظُّلْمَةِ الفَسَقَةِ الجَوْرَةِ الخَوْنَةِ، الذين أَتَخَذُوا مالَ الله دُولاً، وَعَبِيدَهُ خَوَلاً؟ وإن قُلتُم: اسمعوا نصيحتنا، وَأَطِيعُوا أَمْرنا، فكيف يَنْصَحُ لغيره من يَعْشُ نَفْسَهُ؟ أم كيف تَحِبُّ الطَّاعَةَ لمن لم تُثَبِّتْ عند الله عدالته؟ وإن قُلتُم: خذوا الحِكمةَ من حيث وجدتموها، وأقبلوا العِظَةَ ممَّن سمعتموها، فعلام وليناكم أَمْرنا، وحَكْمناكم في دماننا وأموالنا؟ أما علمتم أنَّ فينا من هو أَنْطَقُ مِنْكُم باللغات، وَأَفْصَحُ بالعِظَاتِ؟ فَتَحَلَّوْا عنها، وَأَطْلِقُوا عِقَالَهَا، وَخَلُّوا سَبِيلَهَا، يَتَدَبَّ إِلَيْهَا آلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الذين شَرَّدْتُمُوهم في البلاد، وَمَزَقْتُمُوهم في كلِّ وادٍ، بل تُثَبِّتُ في أيديكم لانقضاء المَدَّةِ، وبلوغِ المُهْلَةِ، وَعِظَمِ المِخْنَةِ؛ إِنَّ لِكُلِّ قائِمٍ قَدَرًا لا يَعدُّوه، وَيَوْمًا لا يَخْطُوهُ، وَكِتَابًا بَعْدَهُ يَتْلُوهُ، ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٢٧] ثم التُّمِسَ الرجلُ فلم يوجَد.

ومن كلام قَطَرِيٍّ بنِ الفُجاءة^(١) - وكان من البلغاء الأبطال، فمن ذلك خطبته المشهورة التي قال فيها:

أما بعد، فإنِّي أحذركم الدنيا فإنها حُلوةٌ خَصْرَةٌ، حُفَّتْ بالشهوات، وراقت بالقليل، وَتَحَبَّيْتُ بالعاجلة، وَحَلَيْتُ بالآمال، وَتَزَيَّنْتُ بالغرور؛ لا تَقُومُ نَضْرَتُها، ولا تُؤْمِنُ فجيعتها؛ غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ، وحائلةٌ زائلةٌ، ونافذةٌ بائدةٌ، أَكَالَةٌ عَوَالَةٍ؛ لا تَعْدُو إِذَا

(١) قطري بن الفجاءة: هو جعونة بن مازن المازني الخارجي: خرج في دولة بني أمية وحارب ولاية الأمويين عشرين سنة بشجاعة حتى غلبه وقته سفيان بن الأبرد الكلبي سنة ٧٨ هـ.

تناهت إلى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَا عَنْهَا أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَأَيُّ أَنْزَلْتُهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥] مع أن أمرًا لم يكن معها في حَبْرَةٍ (أي السرور)، إلا أعقبته بعدها حسرة، ولم يَلْقَ من سَرَائِهَا بَطْنًا إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ صَرَائِهَا ظَهْرًا، ولم تَصِلْهُ غَيْثُهُ رِخَاءً، إِلَّا هَطَلَتْ عَلَيْهِ مُزْنُهُ بِلَاءً؛ وَحَرِيَّةً إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً، أَنْ تُمَسِّيَ لَهُ خَاذِلَةٌ مُتَنَكِّرَةٌ؛ وَإِنْ جَانِبَ مِنْهَا أَعْدَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبًا^(١)، فَإِنْ أَنْتَ أَمْرًا مِنْ غَصُونِهَا وَرَقًا أَرْهَقْتَهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَمْ يُمَسِ مِنْهَا أَمْرٌ فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا فِي قَوَادِمِ خَوْفٍ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ فَإِنْ مَنَ عَلَيْهَا؛ لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى، مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمَنُ وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْبَقُ وَيُطِيلُ حَزَنَهُ، وَيُبْكِي عَيْنَهُ؛ كَمِ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي حُلْمٍ تَنَبَّأَ إِلَيْهَا قَدْ صَرََعَتْهُ، وَذِي أَحْتِيَالٍ فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ؛ وَكَمِ ذِي أَتْبَهَةٍ فِيهَا قَدْ صَبَّرَتْهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا، وَمَنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّتْهُ لِلْيَدِينِ وَالْفَمِ؛ سُلْطَانُهَا دُولٌ، وَعَيْشُهَا رَيْقٌ (أي الماء الكدر): وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ، وَحُلُوهَا صَبِيرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ^(٢)، وَقِطَافُهَا سَلَعٌ^(٣)؛ حَيْثُهَا بَعَرَضُ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بَعَرَضُ سُقْمٍ، وَمَنِيعُهَا بَعَرَضُ أَهْتِضَامٍ؛ وَمَلِكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَسَلِيمُهَا مَنَكُوبٌ وَجَارُهَا مُحْرُوبٌ؛ مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ، وَهَوَلُ الْمُطْلَعِ، وَالْوَقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكْمِ الْعَدْلِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَمْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١] أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَوْصَحَ مِنْكُمْ آثَارًا؛ وَأَعَدُّ عَدِيدًا، وَأَكْثَفَ جَنُودًا، وَأَشَدَّ عُقُودًا، تُعْبَدُوا^(٤) لِلدُّنْيَا أَيُّ تَعَبُدُ، وَآثَرُوهَا أَيُّ إِيْثَارُ، وَظَنُّوهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّغَارِ، فَهَلْ بَلَغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفَذِيَّةٍ، أَوْ أَعْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخُطْبٍ؟ بَلْ قَدْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَضَعُضَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَقَّرَتْهُمْ بِالْفَجَائِعِ؛ وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ رَاذَا وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَنُّوهَا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ، إِلَى آخِرِ الْمُسْنَدِ^(٥)؛ هَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّعْبَ^(٦)، وَأَحْلَلْتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ؟ أَفْهَذِهِ تَوَثِّرُونَ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرُصُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

(١) أَوْبًا الْمَكَانُ: كَثُرَ فِيهِ الْوَبَاءُ أَوْ الْمَرَضُ الْعَامُ.

(٢) رِمَامٌ: مَفْرُودُهَا رُمَّةٌ، وَهِيَ قِطْعَةُ الْجَبَلِ الْبَالِيَةِ. يَرِيدُ الْقَوْلُ إِنْ حَبَالَهَا بِالْيَةِ.

(٣) السَّلْعُ: ضَرْبٌ مِنَ الصَّبْرِ.

(٤) تُعْبَدُوا لِلدُّنْيَا: صَارُوا عِبِيدًا لِلدُّنْيَا. يُقَالُ تَعَبَدَ فُلَانٌ فَلَانًا إِذَا اتَّخَذَهُ عَبْدًا.

(٥) الْمُسْنَدُ: الدَّهْرُ.

(٦) السَّعْبُ: الْجُوعُ.

أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهَرُمْ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ ﴿١٥﴾ [هُود: الآية ١٥] فبُنِيت الدارُ لمن أقام فيها، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدَّ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللَّهو، وقد قال الله تعالى: ﴿أَتَنْتَبَهُونَ كُلَّ يَوْمٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَخَذُونَ مِصَافٍ لَّعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٨ - ١٣٠].

وذكر الذين قالوا: من أشدَّ منا قوَّة ثم قال: حملوا إلى قبورهم فلا يُدعون رُكبانا، وأنزلوا فلا يُرعون ضيفانا، وجعلَ الله لهم من الضريح أكنانا، ومن الوحشة ألوانا، ومن الرُفات جيرانا؛ وهم في جيرة لا يجيبون داعيًا، ولا يَمنعون ضيماً، إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن قحطوا^(١) لم يَقْطُوا؛ جَمَعَ وَهُمْ آحاد، جيرة وهم مُتَنَافِئُونَ^(٢)، لا يزورون ولا يزورون؛ حُلَمَاء قد ذَهَبَتْ أَصْغَانُهُمْ، وَجُهَلَاء قد مات أحقادهم؛ لا يُرجى نفعهم، ولا يُخشى دفعهم؛ وكما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَدِيرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص: الآية ٥٨] فاستبدلوا بظهر الأرض بطنًا، وبالسَّعة ضيقًا، وبالأهل غربة، وبالثور ظُلْمة، وفارقوها كما دخلوها، حُفَاة غُرَاة فُرَادَى، غَيْرَ أَنْ طَعَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاة الدائمة، وإلى خلود الأبد، يقول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤] فاحذروا ما حذركم الله، وانفِعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عَصَمْنَا الله وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ، وَرَزَقْنَا وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ.

ومن كلام أبي مُسلم الخُرَاساني صاحب الدولة^(٣)، قيل له: ما كان سبب خروج الدولة عن بني أمية؟ فقال: لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقةً بهم، وأدَنُوا أَعْدَاءَهُمْ تَأَلُّفًا لَهُمْ، فلم يَصِرِ الْعَدُوُّ بِالْدُنُوِّ صَدِيقًا، وصار الصديقُ بِالْبُعَادِ عَدُوًّا.

وقيل له في حَدَاثَتِهِ: إنا نراك تَأَرَّقَ كَثِيرًا ولا تنام، كأنك موَكَّلُ بَرْغِي الكواكب، أو متوقِّعُ الْوَحْيِ فِي السَّمَاءِ، فقال: والله ما هو ذاك، ولكن لي رأيٌ جَوَّال، وَغَرِيزَةٌ خَيْرَةٌ وَذَهْنٌ صَافٍ، وَهَمَّةٌ بَعِيدَةٌ، وَنَفْسٌ تُثَوِّقُ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ، مع عيش كعيش الْهَمَجِ وَالرَّعَاعِ، وَحَالٍ مُتَنَاهِيَةٍ مِنَ الْإِتْضَاعِ، وإني لأرى بعضَ هذا مُصِيبَةٌ لَا تُجَبَّرُ بِسَهَرٍ، وَلَا تُتَلَفَى بِأَرَقٍّ؟ قيل له: فما الذي يَبْرُدُ غَلِيلَكَ، وَيَشْفِي أَحَاكَ^(٤) صدرك؟

(١) قَحِطَ: أَصِيبَ بِالْقَحِطِ، أَيِ الْجَدْبِ.

(٢) مُتَنَافِئُونَ: مُتَبَاعِدُونَ، مِنْ نَأَى أَيِ بَعْدَ.

(٣) الْأَصَحُّ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبَيُّنِ لِلْجَاحِظِ، ج ٢ وَلَيْسَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ.

(٤) الْأَحَاكُ: شِدَّةُ الْعَطَشِ.

قال: الظَّفَرُ بالْمُلْك؛ قيل له: فاطْلُب؛ قال: إن الملك لا يدرك إلا بركوب الأهوال؛ قيل: فاركب الأهوال؛ قال: هيهات، العقلُ مانعٌ من ركوب الأهوال؛ قيل: فما تصنع وأنت تبلى حسرةً، وتذوبُ كَمَدًا؟ قال: سأجعل من عقلي بعضه جهلاً، وأحاول به خطراً، لأنال بالجهل ما لا يُنال إلا به، وأدبّر بالعقل ما لا يُحفظ إلا بقوة، وأعيش عيشاً يبين مكان حياتي فيه من مكان موتي عليه، فإن الخُمول أخو العدم، والشهرة أبو الكون.

وكتب إليه عبد الحميد بن يحيى كتاباً عن مروان بن محمد، وقال لمروان: قد كتبتُ كتاباً إن نَجَعَ فذاك، وإلا فالهلاك، وكان لكبر حجمه يُحْمَل على جمل، نفث فيه حواشي صدره، وضمنه غرائب عُجْرِهِ وَبُجْرِهِ^(١)، فلما ورد على أبي مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلا قدر ذراع فإنه كتب عليه: [من الطويل]

مَحا السيفُ أسطارَ البلاغة وأنتَحى ليوث الوغى يقدم من كل جانب
فإن يقدموا نُغْمِلُ سيوفاً شحيذة يَهُون عليها العثب من كل عاتب
ورَدّه، فأيس الناس من معالجته.

وقيل: إنه شَجَرَ بينه وبين صاحب مَرْوٍ كلامٌ أَرْبَى فيه صاحب مَرْوٍ عليه، فاحتمله أبو مسلم وقال: مَهْ، لسانٌ سَبَق، وهممٌ أخطأ، والغضب شيطان، وأنا جرأتك عليّ باحتمالك، فإن كنت للذنب متعمداً فقد شاركك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعك؛ فقال له صاحب مرو: عِظْمْ ذَنْبِي يَمْنَعُ قلبي من الهدوء؛ فقال أبو مسلم: يا عَجَبًا، أقابلك بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تُحسِن! فقال صاحب مرو: الآن وثقتُ بعفوك.

ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين

خَطَب يوسف بن عمر^(٢) فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمِّل أَمَلًا لا يَبْلُغُه، وجامع مَالًا لا يَأْكُلُه، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطلٍ جَمَعَه، ومن حقٍّ

(١) عجره وبجره: كل أموره والأصل، إن العجر هي العروق المتعقدة في الجسد. والبحر، العروق المتعقدة في البطن خاصة.

(٢) يوسف بن عمر: (١٢٧٠ هـ = ٧٤٥ م) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي، أمير من جبايرة الولاة في العهد الأموي، ولّى اليمن لهشام بن عبد الملك ثم ولّى له العراق وخراسان. (الزركلي، الأعلام).

مَنَعَهُ؛ أصابه حرامًا، وورثه عدوًّا؛ وأَحْتَمَلَ إضره، وباء بوزره، ووَرَدَ على ربّه آسَفًا لاهفًا ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: الآية ١١].

وقال خالد بن عبد الله القسري^(١) على المنبر خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس، نافسوا في المكارم، وسارعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه، ومهما يكن لأحدكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها فالله أحسن لها جزاء، وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم؛ فلا تملوا النعم فتحوّل نقمًا؛ واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرًا، وأورث ذكرًا؛ ولو رأيتم المعروف رجلًا رأيتموه حسنًا جميلًا يسر الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلًا رأيتموه مشوهًا قبيحًا، تنفر منه القلوب، وتغص عنه الأبصار؛ أيها الناس، إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفوًا من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل من قطعه، ومن لم يطب خزئه لم يزك نبتة؛ والأصول عن مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو؛ أقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قيل لما ولي أبو بكر بن عبد الله المدينة وطال مكثه عليها كان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله ﷺ، وإسعاف من آخرين لهم على ذلك، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر، فلما فرغ من خطبة الجمعة، قال: أيها الناس، إني قائل قولًا، فمن وعاه وأذاه فعلى الله جزاؤه، ومن لم يعه فلا يعدو من ذمامها، إن قصرتم عن تفصيله، فلن تعجزوا عن تحصيله، فأرعوه أبصاركم، وأوعوه أسماعكم، وأشعروهم قلوبكم؛ فالموعظة حياة، والمؤمنون إخوة ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: الآية ٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: الآية ٩] فاتوا الهدى تهتدوا، واجتنبوا الغي ترشدوا، ﴿وَتَوَوُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الثور: الآية ٣١] والله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، أمركم بالجماعة ورضيها لكم، ونهاكم عن الفرقة وسخطها منكم، ف ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى سَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] جعلنا الله وإياكم ممن تبع رضوانه، وتجنب

(١) خالد بن عبد الله القسري: (٦٦ - ١٢٦ هـ = ٦٨٦ - ٧٤٣ م)، أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأجدادهم. من أهل دمشق ولّى مكة للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقيين (الكوفة والبصرة) وأقام في الكوفة حتى عزله هشام سنة ١٢٠ هـ. (الزركلي، الأعلام).

سخطه، فإنما نحن به وله؛ وإن الله بعث محمدًا ﷺ بالدين، واختاره على العالمين، واختار له أصحابًا على الحق، ووزراء دون الخلق، إختصهم به، وأنتخبهم له، فصدّقوه ونصروه، وعزّروه ووَقَّروه، فلم يُقدِّموا إلَّا بأمره، ولم يُحْجِمُوا إلَّا عن رأيه، وكانوا أَعوانه بعهدِهِ، وخُلفاءه مِن بَعْدِهِ، فوصفهم فأحسنَ صِفَتَهُمْ، وذَكَرَهُمْ فَأَنَّى عليهم، فقال - وقوله الحق - : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] إلى قوله: ﴿تَقَفَرُ أُولَئِكَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: الآية ٢٩] فمن غاظوه كَفَرُوا وخاب، وفجر وخَسِرَ، وقال الله عز وجل: ﴿لِلْفَقْرَةِ الْمُهَجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: الآيات ٨ - ١٠]، فمن خالف شَريطَةَ الله عليه لهم، وأمره إِيَّاهُ فيهم، فلا حقَّ له في القِيءِ، ولا سَهْمٌ له في الإسلام في أي كثيرة من القرآن؛ فَمَرَقَتْ مَارِقَةً من الدين، وفَارَقُوا المسلمين، وجعلوهم عِضِينَ^(١)؛ وَتَشَعَّبُوا أَحْزَابًا، أَشَابَاتٍ وَأَوْشَابًا^(٢)؛ فخالفوا كتاب الله فيهم، وثنَّاء عليهم، وآذوا رسول الله ﷺ فيهم؛ فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفِتْرَانِ الْبَيْنُ﴾ [الزمر: الآية ١٥]، ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٤]؛ ما لي أرى عيونًا خُزْرًا^(٣)، وَرِقَابًا صُعْرًا، وبطونًا بُجْرًا^(٤)؟ شَجَى لَا يُسِيغُهُ الْمَاءُ، وداءٌ لَا يُشْرِبُ فِيهِ الدَّوَاءُ؛ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: الآية ٥] الهِنَاءُ^(٥) والطلاء حتى يَظْهَرَ الْعَذْرُ، وَيَبْوَحَ السَّرُّ، وَيَضْحَ الْغَيْبُ، وَيُسْوَسُ^(٦) الْجُئْبُ^(٧)؛ فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدَى؛ وَيَحْكُمُ، إِنِّي لَسْتُ أَتَاوِيًا^(٨) أَعْلَمُ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ؛ قَدْ حَلَبْتُكُمْ أَشْطَرًا وَقَلْبَتُكُمْ أَبْطَنًا وَأَظْهَرًا؛ فَعَرَفْتُ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ، وَعَلِمْتُ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِتْهِمْ، وَأَسْرَوُا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْضُ، وَلَدُّوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ، وَوَجَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْذَنُونَ لَهُمْ، وَيُصْغُونَ إِلَيْهِمْ؛ مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ، وَطَوْلِ الرِّوَاغِ، هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا^(٩)، فَلَسْتُ

(١) عضيين: جمع عضه، وهي الفرقة.

(٢) إشبَات وأوشَاب: يعني أخلاط الناس.

(٣) خُزْرًا: جمع أخضر، وهو النظر من طرف عينه.

(٤) البجر: العظيمة.

(٥) الهناء: القطران.

(٦) يسوَس: يروِّض ويذل.

(٧) الجُئْب: الصعب الذي لا ينقاد.

(٨) الأناوي: الغريب عن القوم.

(٩) لعله يريد أن أعد لكل عمل جزاء.

أَعْتَنِشْ^(١) أَتَبَا وَلَا تَائِبَا، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ﴾ [المائدة: الآية ٩٥] فأسيروا خيرًا وأظهروه، وأجهروا به وأخلصوا، فطالما
 مشيتم القهقري ناكصين، وليعلم من أدبر وأصر أنها موعظة بين يدي نعمة؛ ولستُ
 أدعوكم إلى أهواء تُتبع، ولا إلى رأي يُبتدع؛ إنما أدعوكم إلى الطريقة المثلى، التي
 فيها خيرُ الآخرة والأولى؛ فمن أجاب فإلى رُشده، ومن عمي فعن قصده؛ فهلتم إلى
 الشرائع الجذائع^(٢)، ولا تولوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي
 هو خير، ﴿يَسْأَلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] إياكم وبُنيات^(٣) الطريق، فعندها
 الترنيق والرّهق^(٤)، وعليكم بالجادة، فهي أسد وأورد، ودعوا الأمانى فقد أردت من
 كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، والله الآخرة والأولى، ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِذَنبٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَى﴾ [طه: الآية ٦١]، ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ
 هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: الآية ٨].

هذا ما أتفق إيراده من رسائل وخطب بلغاء الصحابة - رضي الله عنهم - وكلام
 التابعين وغيرهم مما يحتاج الكاتب إلى حفظه.

وأما رسائل المتقدمين والمعاصرين التي يحتاج إلى النظر إليها دون حفظها -
 فهي كثيرة جدًا، سُورِد من جيدها ما تقف عليه إن شاء الله.

ذكر شيء من رسائل وفصول الكتاب والبلغاء المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين من المشاركة والمغاربة

وهذه الرسائل والفصول كثيرة جدًا، وقد قدّمنا منها فيما مرّ من كتابنا هذا ما
 حلا ذكره، وفاح نشره؛ وأيس به سامعه، وأيس من الإتيان بمثله صانعه، وأوردنا في
 كل باب وفصل منه ما يناسبه، وسُورِد إن شاء الله في فني الحيوان والنبات عند ذكر
 كلّ حيوان أو نبات يستحق الوصف ما سمعناه وطالعناه من وصفه نظمًا ونثرًا، مع ما
 يندرج في فن التاريخ من الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات عند ذكر الوقائع،
 وإنما نُورده ثم وإن كان هذا موضعه ليكون الكلام فيه سياقةً، وتَرِدُ الوقائع يتلو بعضها

(١) أعتنش: أظلم.

(٢) الأصح الجوامع لا الجذائع.

(٣) بنيات الطريق: يريد بها الطرق الصغيرة المتشعبة من الطريق الرئيسة. ويعني: إياكم وسلوك
 طريق غير طريق الجماعة.

(٤) الرهق، والترهيق: السفه، أو ركوب الشر.

بعضاً، فلا ينقطع الكلام على ما تقف إن شاء الله تعالى عليه في مواضعه، فلنورد في هذا الموضوع ما هو خارج عن ذلك التَّمَط من كلامهم، ولنبدأ بذكر شيء من المكاتبات البليغة المَوْجزة.

من ذلك ما كتب به عبد الحميد بن يحيى بالوصاة بإنسانٍ فقال: حقُّ مُوصل هذا الكتاب عليك كحقه عليّ إذ رآكَ مَوْضِعاً لأمّله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزتُ حاجته، فحقّق أمّله.

ومنه ما حُكي أنّ المأمونَ قال لعمر بن مَسْعَدَةَ^(١): أكتب إلى فلان كتابَ عناية بفلان في سطر واحد، فكتب: هذا كتابٌ واثقٌ بمن كُتِب إليه، مُعْتَنٍ بمن كُتِبَ له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

وكتب عمرو بن مَسْعَدَةَ إلى المأمون يستعطفه على الجند: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قِلي من أجناده وقُوّاده في الطاعة على أفضل ما تكون عليه طاعةُ جندي تأخّرت أرزاقهم، وأخّلت أحوالهم. فأمر بإعطائهم رِزق ثمانية أشهر.

وكتب أحمد بن يوسف^(٢) إلى المأمون يذكره بمن على بابِه من الوفود فقال: إنّ داعي نَدَاك، ومنادي جَدْوَاك، جَمعا ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد؛ فمنهم من يَمُتُ بِحُرْمَةٍ، ومنهم من يُذلي^(٣) بِخِدْمَةٍ؛ وقد أجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يَنعَشهم بِسَيِّئِهِ^(٤)، ويَحْتَوِش ظُنُونهم بِطَوِيلِهِ فَعَلَ. فوَقَعَ المأمون في كتابه: الخَيْرُ مَتَّبِع، وأبوابُ الملوك مَواطِنُ لذوي الحاجات، فأحص أسماءهم، وأجل مَوَائِدَهم، ليصير إلى كلِّ أمرٍ منهم قدر أَسْتَحْقاقِهِ، ولا تَكْذُر معروفاً بِالْمَظَل والحجاب، فإنَّ الأوّل يقول: [من الوافر]

فإنك لن تَرى طَرْدًا لَحُرٍّ كإلصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ
ولم يَجْلُب مَوَدَّةَ ذي وفاء كمثل البذل أو بسطِ اللسانِ

(١) عمرو بن مسعدة: (٢١٧ هـ = ٨٣٢ م)، هو عمرو بن مسعدة بن سعد، أبو الفضل الصولي، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء. اتصف بإنشائه بالإيجاز والجزالة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) أحمد بن يوسف: (٢١٣ - هـ = ٨٢٨ م)، هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء المعروف بالكتاب. وزر للمأمون وولي ديوانه. كان فصيحاً قوي البديهة ينظم الشعر. (الزركلي، الأعلام).

(٤) السبب: العطاء.

(٣) بدلي: يتوسل.

وكتب محمدٌ إلى يحيى بن هرمة^(١) - وكان عامِلَه على أَصْفَهانَ، وقد تظَلَّم منه أهلُها - : يا يحيى، قد كَثُرَ شاكُوك، وَقَلَّ شاكُوك؛ فإِما عَدَلْتَ، وإِما اَعْتَرَلْتَ.

وكتب أبو بكر الخُوَارَزْمِي جوابًا عن هدية: وصلتِ التُّخفة، وَلَمْ يكن لها عيب إلا أَن باذَلْها مَسْرِفٌ في البَرِّ، وقابِلْها مَقْتَصِدٌ في الشكر؛ والسَّرَفُ مذمومٌ إلا في المجد، والاقتصادُ محمودٌ إلا في الشكر والحمد.

وكتب مَلِكُ الروم إلى المعتصم يتوعَّده ويتهدَّده، فأَمَرَ الكُتَّاب أن يكتبوا جوابَه، فكَتَبوا فلم يعجبه مما كتبوا شيء، فقال لبعضهم: اُكْتُب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ قرأتُ كِتابَكَ، وفَهِمْتُ خِطابَكَ، والجوابُ ما تَرى لا ما تَسْمَعُ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾ [الرَّعد: الآية ٤٢]^(٢).

ومن كلام بديع الزَمانِ أبي الفضل أحمدَ بنِ الحسين الهَمْدانيّ - قيل: ذُكِر الهَمْدانيّ في مجلس أبي الحسين بن فارس فقال ما معناه: إِنَّ البديعَ قد نَسِيَ حَقَّ تعليمنا إِيَّاه، وَعَقَّنَا وشمخَ بأنفِه، عَنَّا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغيُّرِ نوعِ الإنسان؛ فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى أبي الحسين:

نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحَمُّ المَسْنُون، وإن طُتَّتِ الظنون؛ والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تَقادَم؛ وأرتبكت الأضداد، وأختَلَطَ الميلاَد؛ والشيخ يقول: فَسَدَ الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحًا؟ أفي الدَّولة العباسيَّة وقد رأينا آخَرها وسمعنا أولها؛ أم المَدَّة المَرَوَاتِيَّة وفي أخبارها: [من السريع]

«لا تَكُسَعِ الشُّوْلُ بأغبارِها»^(٣)

(١) لا نعرف بالضبط من هو محمد هذا صاحب التوقيع. ولكن ابن خلكان ينسبه إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) هذه قراءة أبي عمرو بن العلاء. أما سائر القراءات فهي ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ﴾.

(٣) هذا صدر بيت للحارث بن حلزة الشاعر الجاهلي البكري، وتماه:

«أنك لا تدري من الناتج»

وتفسيره: لا تغزُرِ إيلك تطلب بذلك قوة النسل، واحلبها لأضيافك، فعمل عدوًا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. لا تكسغ: لا تترك حليب الناقة في خلفها. الشول: واحدتها شائل، وهي الناقة التي مضى على حملها سبعة أشهر فقل لبنها أو خف ضرعها. أغبارها: جمع غبر، وهو بقية اللبن في الضرع.

أم السنين الحزينة^(١): [من مجزوء الكامل]

والسيفُ يُعملُ في الطلَى^(٢) والرُمحُ يُركّزُ في الكُلَى
ومبيتُ حُجِرٍ^(٣) في الفَلا والحرَّتَانِ^(٤) وكَرَبَلَا^(٥)

أم البيعة الهاشمية وعليّ يقول: ليت العشرة منكم براس، من بني فراس؛ أم الأيام الأموية والتفكير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؛ أم الإمارة العدوية^(٦) وصاحبها يقول: هلموا إلى النزول؛ أم الخلافة التيمية^(٧) وهو يقول: طوبى لمن مات في نأثاء^(٨) الإسلام؛ أم على عهد الرسالة ويوم ألفتح قيل: أسكني يا فلانة، فقد ذهبت الأمانة؛ أم في الجاهلية وليد يقول: [من الكامل]

* وبقيت في خلف^(٩) كجلد الأجر *

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول: [من الطويل]

بلادٌ بها كنا وكنا نحبها إذ الناس ناسٌ والزمان زمان

أم قبل ذلك ويروى لآدم عليه السلام: [من الوافر]

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

أم قبل ذلك والملائكة تقول لبارئها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] ما فسد الناس، ولكن أطرّد القياس؛ ولا أظلمت الأيام،

(١) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد خلافة معاوية وابنه يزيد. (ابن منظور، لسان العرب، مادة لسم).

(٢) الطلى: واحدها طلية، أي العتق.

(٣) حجر: هو حجر بن عدي الكندي، من أهل العراق، قتله معاوية لتشيعه لعلي ولعنه معاوية. (الطبري، التاريخ، حوادث سنة ٥١ هـ).

(٤) الحرثان: إشارة إلى وقعة الحرة بين يزيد بن معاوية وأهل المدينة شرقي المدينة. وقد قتل فيها الكثير من أهل المدينة سنة ٦٣ هـ.

(٥) كربلاء: موقع قرب الكوفة، قتل فيها الحسين بن عليّ على يد جنود يزيد بن معاوية. (ياقوت، معجم البلدان).

(٦) الإمارة العدوية: أي خلافة عمر بن الخطاب الذي يتسبب إلى عدي بن كعب.

(٧) الخلافة التيمية: خلافة أبي بكر نسبة إلى تيم بن مرة رهط أبي بكر.

(٨) نأثاء الإسلام: أول الإسلام.

(٩) الخلف: بفتح الخاء وسكون اللام: الأرياء الأخساء. وصدر البيت هو:

«ذهب الذين يعاش في أكنافهم»

إنما أمتد الإظلام؛ وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح، ويمسي المرء إلا عن صباح؟ ولعمري إن كان كرم العهد كتاباً يرد، وجواباً يصدر، إنه لقريب المنال، وإني على توبيخه لي لفقيّر إلى لقائه، شفيق على بقاءه، متسبب إلى ولائه، شاكر لآلائه.

وكتب بديع الزمان يستعطفه: إني خدمت مولاي، والخدمة رِقٌّ بغير إشهاد، وناصحته، والمناصحة للودّ أوثق عماد؛ ونادمته، والمنادمة رِضاغ ثان؛ وطاعمته، والمطاعمة نَسَب دان، وسافرت معه، والسفر والأخوة رضيعاً لبان، وقمت بين يديه، والقيام والصلاة شريكاً عنان^(١)؛ وأثنيته عليه، والشناء عند الله بمكان؛ وأخلصت له، والإخلاص مشكور بكلّ لسان.

ومن كلام أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد - وكان وزيراً كاتباً - كتب عن ركن الدولة بن بويه كتاباً لمن عصى عليه:

كتابي وأنا مترجّح بين طمع فيك، وإيأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك؛ فإنك تُذلي بسابق خدمة، وتُمّت بسالف حُرمة؛ أيسرها يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية؛ ثم تشفعهما بحادث غُلُول وخيانة، وتتبعها بأنفٍ خلاف ومعصية؛ وأدنى ذلك يُحيط أعمالك، ويمحق كلّ ما يُرعى لك؛ لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك؛ أقدم رجلاً لصمدك، وأؤخر أخرى عن قصيدك؛ وأبسط يداً لاصطلامك^(٢) واجتياحك، وأثني ثانية نحو استبقائك واستصلاحك؛ وأتوقّف عن أمتثال بعض الأمور فيك ضناً بالنعمة عندك، ومناقسة في الصنعة لديك؛ وتأميلاً لفيتك وأنصرافك، ورجاءً لمراجعتك وانعطافك؛ فقد يعزّب العقل ثم يؤوب، ويعزّب اللبّ ثم يثوب، ويذهب العزم ثم يعود، ويفسد الحزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو؛ وكلّ ضيقة فإلى رخاء، وكلّ غمرة فإلى أنجلاء؛ وكما أنك أثبت من إساءتك ما لم تحتسبه أولياؤك، فلا تدع أن تأتي من إحسانك ما لم ترتقبه أعداؤك؛ وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبيح ما صنعت، وسوء ما آثرت؛ وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيلاء والمطاولّة ما أمكن، طمعاً في إنابتك، وتحكيماً لحسن الظنّ بك؛ فلست أعدم فيما أظاھرُه من إعدارك، وأرادفه من إنذارك،

(١) شريكاً عنان: شريكاً متساويان، لأن العنان يتألف من طاقين متساويين.

(٢) الاصطلام: البتر والقطع. صلّم الأذن: قطعها.

احتجاجاً عليك، وأستدرجاً لك؛ وإن يشأ الله يُرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسدّدك؛ فإنه على كلّ شيء قدير.

وفي فصل منه: وزعمت أنك في طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسّطها، وإن كنت كذلك فقد عرفت حالتها، وحلبت شَطْرَها، فناشدتك الله لما صدقت عما أسألك: كيف وجدت ما زُلت عنه، وتجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظلّ ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل؛ وهواء عذي، وماء روي، ومهادٍ وطي؛ وكنّ كنين، ومكانٍ مكنين، وحصنٍ حصين؛ يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف؛ ويكفئك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق الجذثان؛ عزّزت به بعد الذلّة، وكثرت بعد القلّة؛ وارتفعت بعد الضّعة، وأيسرت بعد العسر، وأثريت بعد المثرة، واتسعت بعد الضيق، وأطافت بك الولايات، وخفقت فوقك الرايات؛ ووطيء عقبك الرجال، وتعلّقت بك الآمال؛ وصرت تكائر ويكائر بك، وتشير ويشار إليك؛ ويذكر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك؛ فقيم أنت الآن من الأمر؟ وما العوض مما ذكرت وعددت، والخلف عما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافتها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلّها عنك؟ أظلّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظليل ولا يُغني من اللهب؟ قل: نعم، فذاك والله أكفّ ظلالك في العاجلة، وأزوّحها في الآجلة؛ إن أقمت على المُحادة والعنود^(١)، ووقفت على المُشاقة والجُحود.

ومنه: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كلامي فستنكرها، والمُس جسدك فانظر هل يحس، وأجسُس عرقك هل يَبْض، وفشش ما حُني عليه أضلاعك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حليّ بصدرك أن تظفر بقوت مُزيح^(٢) أو موت مُريح؟ ثم قس غائب أمرِك بشاهديه، وآخر شأنك بأوله.

وكتب الصاحب أبو القاسم كافي الكفاة في وصف كتاب: ومن هو الذي لا يُحبّه وهو علّم الفضل، واسطة الدهر؛ وقرارة الأدب والعلم، ومجمَع الدّراية والفهم؛ آمن يرغب عن مكائفة من يُنسب الربيع إلى خلقه، ويكتسب محاسنه من طبيعه، ويتوشح بأنواره، ويتوضّح بأنار لسانه ويده؟ وصل كتابه، فارتحت لعنوانه قبل عيانه، حتى إذا فضضت ختامه أقبلت الفقر تتكاثر، والذرر تتناثر؛ والغرر تتراكم،

(٢) مُزيح: مُبعد.

(١) العنود: من عند الطريق إذا مال.

والنكت تتزاحم؛ فإذا حَكَمْتُ للفظة بالسَّبقِ أتت أَخْتُها تتنافس، وأقبلت لديها تتفاخر؛ حتى استعقيت من الحكومة، ونفضت يدي من غبار الخصومة؛ وأخذت أقول: كلُّكَن صَوَادُرُ عن أصلٍ واحدٍ فتسألُمن، وأرفأذ عن معدن رافد فتصالحن، وقد وليت النظر بينهما مَنْ كَمَل لِشُج بُرودهما، ووَفَّى بِنَظْم عَقودهما؛ على أنني يا مولاي أنشأت هذه الأحرف وحولي أعمالَ وأشغالَ لا يسلس معهما فِكْر، ولا يَسَلَم بينهما طبع؛ وتناولتُ قلما كالابنِ العاق، بل العدوُّ المُشاق؛ إذا أردته استقال، وإذا قومته مال؛ وإذا حَثَّته وَقَف، وإذا وقفته انحرف؛ أخدَل^(١) الشَّق، متفاوت البَرْي، معدوم الجَرْي؛ محَرَّف القَط، مَثْبِج^(٢) الحَط؛ ثم رأيتُ العُدول عنه ضربا من الانقياد لأمره، والانخراط في سلكه، فجهدته، على رَغْمه، وكَدَدته على صَعْره؛ لا جَزَمَ أَنَّ جناية اللِّجاج باديةً على صفحات الحروف لا تخفى، وعادية المَحْك^(٣) لائحةً على وجوه السطور تتجلى.

وكتب: واللَّهُ يعلم أنني أخبرتُ بورود كتابه واستفزني الفرخ قبل رؤيته، وهَزَّ عِظفي^(٤) المَرَح أمام مشاهدته؛ فما أدري، أسمعُ بورود كتاب، أم ظفِرتُ برجوع شباب؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلَّع إلى وصوله طويل عريض؛ فتأملته فلم أدر ما تأملت، أخطأ مسطورا، أم روضا ممتورا، أم كلاما منشورا، أم وشيا منشورا؟ ولم أدر ما أبصرْتُ في أثنائه، أبيات شِعْر، أم عقود دُر؟ ولم أدر ما جُمَلته، أغيتُ حلَّ بوادي ظمآن، أم غَوْتُ سَبَقَ إلى لَهْفان؟

وكتب: وصل كتاب القاضي فأعظمتُ قَدْرَ النعمة في مَظْلَعِه، وأجللت محلَّ الموهبة بموقعه؛ وفضضته عن السحر حلالا، والماء زُلالا؛ وسرحتُ الطَرْفَ منه في رياض رقت حواشيها، وحلل تَأَنَّقَ واشيها؛ فلم أتجاوز فصلا إلا إلى أخطر منه فضلا، ولم أتخطَّ سطرًا إلا إلى أحسن منه نَظْمًا ونثرًا.

وكتب أيضًا: وصل كتابك فجعلتُ وُصوله عيدًا أُوَرِّخ به أيامَ بهجتي، وأفتَّيح به مواقيتَ غِبطتي؛ وعرفتُ من خَبَر سلامتك ما سألتُ الله الكريم أن يصله بال دوام، ويرفعه على أيدي الأيام.

(٢) مثير الخط: خفيه.

(٤) العطف: الجانب.

(١) الأخدل: المائل الشق.

(٣) المحك: اللجاج.

وكتب أيضًا: وصل كتابه - أيده الله - يَضَحَك عن أخلاقه الأَرَجَة، وَيَتَهَلَّل عن عِشْرته العَظِرة؛ وَيُخْبِر عن عافية الله لمن رَأَيْتُ شَمَلَ الحُرِّيَّة به منتظِمًا، وشَغَب المروءة له ملتئمًا؛ وَيَحْمِلُ من أنواع بِرِّه ما أَقْصُر عن ذِكْرِهِ، ولا أَطْمَع في شُكْرِهِ؛ وَيُؤَدِّي مِن لطيفِ اعتذارِهِ في أثناء عَتَبِهِ، ما تَزْدَاد أسبابُ المَوَدَّة تمهيدًا به؛ وفِهْمَتُهُ، ورَغِبْتُ إلى الله بِأَخْلَص طَوَيَّة، وأَمَحَضُ نِيَّة.

وقال أبو الفرج البَيْغَاء^(١) من رسالة إلى عُدة الدَّولة أبي تغلب جاء منها: أَصَحُّ دلائلِ الإقبال، وأَصْدَقُ براهينِ السَّعادة - أطال الله بقاء سيِّدنا - ما شَهِدَت العقولُ بصَحَّتِهِ، ونَطَقَت البصائرُ بحَقِيقَتِهِ، ونعمَةُ الله على الدُّنيا والدِّينِ بما أولاهما من اختيار سيِّدنا لِحِراسَتِهما بناظِرِ فضلِهِ، وسِتْرِهما بظُلِّ عدلِهِ؛ مُفَصِّحَةً بتكاملِ الإقبال، مُبَشِّرَةً بتصديقِ الآمال: [من البسيط]

مَحْرُوسَةٌ ضَمِينُ الشُّكْرِ الوَفِيِّ لَهَا على الزِيَادَةِ نَيْلُ السُّؤْلِ والدَّرَكِ
تَحَقُّقُ العَصْرِ أَنَّ المُلْكَ مِنْدُ نَشَا له أَبُو تَغْلِبِ أَسْمٌ غَيْرُ مُشْتَرَكِ
وَاسْتَخْلَفَ الفُلْكَ الدَّوَارُ هِمَّتَهُ فلو وَتَى أَغْنَتِ الدُّنْيَا عَنِ الفُلْكِ

مَأْمُونُ الهَفَوَات، مَتَنَاصِرُ^(٢) الصِّفَات؛ رِبْعِي^(٣) النَّفَاسَةِ، حَمْدَانِي السِّيَاسَةِ، نَاصِرِي الرِّيَاسَةِ؛ عُطَارِدِي الدُّكَاةِ، مَوْفِقُ الآرَاءِ؛ شَمْسِي التَّأثِيرِ، قَمَرِي التَّصْوِيرِ، فَلَكِّي التَّدْبِيرِ؛ لِلضَّدِيقِ كَلَامُهُ، وَلِلْعَدْلِ أَحْكَامُهُ، وَلِلوَفَاءِ ذِمَامُهُ؛ وَلِلْحِسَامِ غَنَاؤُهُ، وَلِلْقَدْرِ مَضَاؤُهُ، وَلِلسَّحَابِ عَطَاؤُهُ: [من البسيط]

دَعْوَتُهُ فَأَجَابَتْنِي مَكَارِمُهُ ولو دَعَوْتُ سَوَى نَعْمَاهُ لَمْ تُجِبِ
وَجَدْتُهُ الغَيْثَ مَشْغُوفًا بِعَادَتِهِ والروضُ يَحْيَا بِمَا فِي عَادَةِ السَّحْبِ
لَوْ فَاتَهُ النَّسَبُ الوَضَاحُ كَانَ لَهُ من فَضْلِهِ نَسَبٌ يُغْنِي عَنِ النَّسَبِ
إِذَا دَعَتْهُ المُلُوكُ الأَرْضَ سَيِّدَهَا طَرًّا دَعَتْهُ المَعَالِي سَيِّدَ العَرَبِ

وكتب أبو الحسن علي بن القاسم القاشاني:

(١) أبو الفرج البَيْغَاء: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م)، هو عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، أبو الفرج المعروف بالبَيْغَاء. شاعر مشهور، وكان مترسل من أهل نصيبين، اتصل بسيف الدولة. ودخل الموصل وبغداد وقاوم الملوك والأمراء. له ديوان مطبوع. [الزركلي، الأعلام].
(٢) متناصر الصفات: تصدق صفاتها بعضها بعضًا.
(٣) رباعي: نسبة إلى الربيع، على غير قياس.

ما أرتضي نفسي لمخاطبة مولاي إذا كنتُ منفيّ الشواغل، فارغَ الخواطر، مُخلى الجوارح، مطلقَ الإسار، سليمَ الأفكار، فكيف مع كلالِ الجِدَّة، وانغلاقِ الفهم، واستبهامِ القريحة، واستعجامِ الطبيعة؛ والمعوّل على النية، وهي لمولاي بظُهر الغيب مكشوفة، والمرجعُ إلى العقيدة، وهي بالولاءِ المَخْصِصِ معروفة؛ ولا مجال للعتب على هذه الأحوال، للعذرِ وراء هذه الخِلال.

وقال محمد بن العباس الخُوَارِزْمِي^(١): الحمد لله الذي جعل الشيخ يضرب في المحاسن بالقِدَحِ المُعَلَّى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى، ولم يجعل فيه موضعاً لَلْوَلَا، ولا مجالاً لِإِلَا؛ فإن الاستثناء إذا عتَرَض في المدح أَنْصَبَ ماؤه، وكُتِرَ صفاؤه، وأنطلق فيه حَسَادُه وأعداؤه؛ ولذلك قالوا: ما أَحَسَّنَ الظَّيْبَ لولا خَنْسُ^(٢) أَنْفِه! وما أَحَسَّنَ البَدَرَ لولا كَلْفُ وجهه! وما أَطْيَبَ الخَمَرَ لولا الخُمَار! وما أَشْرَفَ الجُودَ لولا الإِقْتَار! وما أَحَمَدَ مَغَبَّةَ الصبر لولا فَنَاءُ العمر! وما أَطْيَبَ الدنيا لو دامت: [من البسيط]

ما أَعْلَمَ الناسَ أَنَّ الجُودَ مَكْسَبَةٌ للحمد لَكُنْه يَأْتِي على النَّشْبِ

ذكر شيء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتائبهم
ممن ذكرهم ابن بسام^(٣) في كتابه المترجم بالذخيرة
في محاسن أهل الجزيرة

منهم ذو الوزارتين أبو الوليد بنُ زَيْدُون^(٤)، فمن كلامه رسالة كتبها على لسان محبوبته وَلَادَةَ بنتِ محمد بن عبد الرحمن الناصريّ إلى إنسان استمالها إلى نفسه عنه، وهي:

(١) محمد بن العباس الخوارزمي: (٣٢٣ - ٣٨٣ هـ = ٩٣٥ - ٩٩٣ م)، أبو بكر الخوارزمي، من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء. له مجموعة رسائل وديوان شعر. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.

(٣) ابن بسام: (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م)، هو علي بن بسام الشتريني الأندلسي، أبو الحسن، أديب، من الكتاب الوزراء. اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، ترجم لأعيان الأدب. (الأعلام للزركلي).

(٤) أبو الوليد بن زيدون: (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون: أحد مشاهير المترسلين والشعراء المسلمين في الأندلس، وزير أمراء إشبيلية. ولد بقرطبة. نافس الوزير ابن عبدوس على ولادة بنت المستكفي فسجن. (دائرة المعارف الإسلامية).

أما بعد، أيها المصاب بعقله، المورطُ بجهله؛ البينُ سَقَطُه، الفاحشُ غَلَطُه؛ العاثرُ في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره؛ الساقطُ سقوط الذباب على الشراب، المتهافُ تهافُ الفَرَّاش في الشهاب؛ فَإِنَّ العُجْبَ أَكْذَب، ومعرفة المرء نفسه أَضَوْب؛ وإنك راسلتنِي مستهدياً من صِلتي ما صَفِرَتْ منه أيدي أمثالك، متصدياً من خُلتي لما قُرِعَتْ فيه أنوفُ أشكالك؛ مرسلاً خليلتك مُرتادة، مستعملاً عشيقتك قَوادة؛ كاذباً نفسك أنك ستَنزِل عنها إليّ، وتَخْلِف بعدها عليّ: [من المتقارب]

ولست بأول ذي هَمّة دعت له ليس بالنائل^(١)

ولا شك في أنها قلّتك^(٢) إذ لم تَصْنُ بك، ومَلّتكَ إذ لم تَعَزْ عليك، فإنها أعذرت في السّفارة لك، وما قَصّرت في النيابة عنك؛ زاعمةً أَنَّ المروءة لفظُ أنت معناه، والإنسانيّة أَسْمُ أنت جسمه وهَيولاه؛ قاطعةً أَنَّك أنفردت بالجمال، وأستأثرت بالكمال، وأستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال؛ حتى خيلت أَنَّ يوسف عليه السلام حاسنك فَعَضَصْت منه، وَأَنَّ امرأة العزيز رأتكَ فسَلّت عنه؛ وَأَنَّ قارونَ أصاب بعضَ ما كُنْزْتَ، والنُّطْفُ^(٣) عَثَرَ على فضل ما ركزت^(٤)، وكسرى حَمَلَ غاشيتك^(٥)، وقيصَرَ رعى ماشيتك؛ والإسكندر قَتَلَ داراً^(٦) في طاعتك، وأزدشِير^(٧) جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك؛ والضّحَاك^(٨) أَسْتَدعى

(١) هذا البيت للمنتبي. (٢) قلّتك: من قلّى أي أبغض.

(٣) النُّطْفُ: هو ابن جبير بن حنظة اليربوعي التميمي أغار على قافلة تحمل أموالاً لكسرى من اليمن وحصل على الكثير منها فضرب به المثل. وجاء في اللسان لابن منظور (مادة نطف) أن اسمه حِطّان على رأي ابن دريد. بينما الجوهري وابن بري يقولان إن اسمه النطف. (انظر: سرح العيون، ص ٢٥، المطبعة الأميرية).

(٤) ركزت: من الركاز، وهو دفين مال الجاهلية.

(٥) أراد غاشية السرج، وهي غطاؤه.

(٦) داراً: إشارة إلى مقتل دار الأصفر هذا ابن دارا الأكبر بن أردشير ملك الفرس على يد الإسكندر بن فيليب اليوناني في معركة نصيبين. وقد هزم فيها الفرس. (ابن نباتة، سرح العيون، طبعة بولاق. د.ت. وإليها رجعنا في شرح رسالة ابن زيدون).

(٧) أردشير بن بابك استعاد الملك بعد حكم الإسكندر، وتغلب على ملوك الطوائف الذين عينهم الإسكندر، وتسمى بعد ذلك شاهنشاه الأعظم أي ملك الملوك. (المصدر ذاته).

(٨) ربما كان الضحّاك بن قيس الفهري الذي ثار على بني أمية في الشام وقتل في معركة مرج راهط ٦٨٤م (المنجد).

مسالمتك، وجذيمة^(١) الأبرش تمتى منادمتك؛ وشيرين^(٢) نافست بوران^(٣) فيك؛ وبلقيس^(٤) غايرت الزباء^(٥) عليك؛ وأن مالك^(٦) بن نؤيرة إنما ردف لك؛ وعروة^(٧) بن جعفر إنما رحل إليك؛ وكليب^(٨) بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك؛ وجساسا^(٩) إنما قتله بأنفتك؛ ومهلها^(١٠) إنما طلب ثاره بهمتك؛ والسموال^(١١) إنما وقى عن عهدك، والأحنف^(١٢) إنما أحبتني في بُردك؛ وحاتم^(١٣) إنما جاد بوفرك، ولقي الأضياف بيشرك؛ وزيد^(١٤) بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسليك^(١٥) بن السلكة

(١) جذيمة الأبرش: هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي وقيل الأزدي. أول من قاد العرب وملك على قضاة في الحيرة والأنبار. (المصدر ذاته).

(٢) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز من ولد كسرى أنوشروان. (المصدر ذاته).

(٣) بوران: بنت أبرويز المتقدم، وقد ملكت بعد شهريار. ابن أبرويز. (المصدر ذاته).

(٤) بلقيس: هي ابنة الحرث بن سبأ، ملكة اليمن ورد ذكرها في القرآن (سورة النمل) وكان لها علامة مع سليمان الحكيم. (المصدر ذاته).

(٥) الزباء: ملكة تدمر في بلاد الشام في العهد الروماني. لقبت بالزباء لطول شعرها. اسمها بارعة أو ميسون أو زنوبيا بنت عمرو بن الظرب الذي قتله جذيمة الأبرش وأخذ ملكه، وقامت الزباء بأخذ ثاره. غلبها وأسرها الامبراطور الروماني أوليانوس سنة ٢٧٣ م. (المنجد).

(٦) مالك بن نؤيرة بن شداد اليربوعي التميمي. فارس شجاع من ذوي الرداة في الجاهلية. أدرك الإسلام وأسلم ولكنه ارتد بعد وفاة النبي فقتله خالد بن الوليد زمن أبي بكر الصديق. (انظر اللسان لابن منظور، مادة ردف).

(٧) عروة بن جعفر بن عامر بن صعصعة. عرف بعروة الرحال لكثرة رحلاته إلى الملوك. اتصف بالعقل والشهامة. (ابن نباتة، السرح).

(٨) هو كليب بن ربيعة بن الحارث الوائلي. ساد قبائل وائل وكان له حمى واسع لا يقربه أحد. قتله جساس بن مرة بسبب ذلك.

(٩) جساس بن مرة البكري الوائلي، قاتل كليب لأن كلييا رأى ناقة كانت لخالة جساس في حماه فأنكرها ورمها بهم فغظم ذلك على جساس وخالته فقصده ورماه بهم قتله.

(١٠) مهلهل: هو أخو كليب، اسمه عدي، ولقب بالمهلهل لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي أرقه.

(١١) السموال بن عدياء، من يهود يثرب. ضرب به المثل في الوفاء لأنه رفض تسليم دروع امرئ القيس الشاعر لأعدائه وضحي بابنه. وله شعر جميل.

(١٢) الأحنف: هو الضحاك بن قيس بن معاوية السعدي، وكنيته أبو بحر يضرب به المثل في الحلم والسيادة، توفي بالكوفة سنة سبع وستين هـ. (وفيات الأعيان، لابن خلكان).

(١٣) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو سفانة، وأبو عدي، ويضرب به المثل في الجود.

(١٤) هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، كان فارسا مظفرا أدرك الإسلام وأسلم، وسماه الرسول عليه الصلاة والسلام زيد الخير وكان يسمى قبل ذلك «زيد الخيل» لكثرة خيله.

(١٥) هو السليك بن عمرو بن يثرب أحد بني مقاعس، شاعر جاهلي كان من صعاليك العرب =

إنما عدا على رجلِك، وعامر^(١) بن مالك إنما لاعب الأسيّة بيدِك؛ وقيس بن زهير^(٢) إنما أستعان بدّهائك، وإياس^(٣) بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك؛ وسخبان^(٤) إنما تكلم بلسانك، وعمر بن الأهتم^(٥) إنما سحر ببيانك؛ وأنّ الصلح بين بكر وتغلب^(٦) تمّ برسالتك، والحملات^(٧) في دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك؛ وأنّ احتيال هريم^(٨) لعامر^(٩) وعلقمة^(١٠) حتى رضيا كان عن رأيك؛ وجوابه لعمر وقد سأله عن أيّهما كان ينفر^(١١) وقع بعد مشورتك؛ وأنّ الحجاج^(١٢) تقلّد ولاية العراق بجذك، وقُتبية^(١٣) فتح ما وراء النهر بسعدك؛

= ولصوصهم العدائين.

(١) هو عامر بن مالك بن جعفر بن صعصعة، ملاعب الأسيّة ويكنى أبا براء، وأمه أم البنين أنجب امرأة في العرب ولقب بملاعب الأسيّة لقول أوس بن حجر فيه.

يلاعب أطراف الأسيّة عامر فراح له حظّ الكتاب أجمع

(٢) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء، وكان فارساً داهية.

(٣) هو إياس بن معاوية بن قرّة المزني ولي قضاء البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب الفراسة والأجوبة البديعة ويضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢١ هـ.

(٤) هو سخبان بن زفر بن إياس الوائلي، كان خطيباً يضرب به المثل في البيان واللسن، أدرك الإسلام وأسلم مات سنة ٥٤ هـ.

(٥) هو عمر بن سنان الأهتم التميمي المنقري، من سادات العرب وخطبائهم في الجاهلية، وفد على الرسول ﷺ هو والزيقران بن بدر وأسلم مات سنة ٥٧ هـ.

(٦) بكر وتغلب هما ابني وائل، وأشار بالصلح إلى حرب البسوس التي وقعت بينهما واستمرت إلى وقت طويل...

(٧) الحملات: جمع حمالة وهي ما يتحمّله الرّجل من دية أو غرامة وأشار بهذه العبارة إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان.

(٨) هو هريم بن قطبة بن سنان من بني فزارة، وكان هرم هذا حكماً من حكام العرب يقضي بين ساداتهم فلا يردّ قضاؤه.

(٩) عامر: هو عامر بن الطفيل بن مالك.

(١٠) علقمة: هو علقمة بن علاثة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة وكان عامر وعلقمة قد تنافرا إلى هرم يحكم بينهما أيّهما أفضل، فسوّى بينهما وقال: أنتما كقائمتي البعير تقومان معاً وتعدنان معاً.

(١١) يقال: نافرته إلى الحكم فنفرني عليه، أي حاكمته فغلبنني عليه...

(١٢) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي، ولد ونشأ في الطائف سنة ٤١ هـ، وعمل معلماً في الكتاب، ولاه عبد الملك بن مروان الأموي على العراق فأخمد الفتنة بقسوة وأوهى شوكة

الخوارج. وتوفي بواسط سنة ٩٥ هـ.

(١٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي. ولاه عبد الملك بن مروان على خراسان ففتح بلاد ما وراء

والمهلب^(١) أوهى شوكة الأزارقة بأيديك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأن هزميس^(٢) أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون^(٣) أورد على أرسطوطاليس^(٤) ما حدث عنك؛ وبطليموس^(٥) سوى الأسطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكرة على تقديرك؛ وأبقراط^(٦) علّم العلل والأمراض بلطف حسك، وجالينوس^(٧) عرّف طبائع الحشائش بدقة نظرك؛ وكلاهما قلّدك في العلاج، وسألك عن المزاج؛ وأستوصفك تركيب الأعضاء، وأستشارك في الداء والدواء؛ وأنت نهجت لأبي معشر^(٨) طريق الفضاء، وأظهرت جابر بن حيان^(٩) على سِرّ الكيمياء؛ وأعطيت

= النهر (نهر جيحون في خراسان). وتوفي سنة ٩٦ هـ.

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري، أمره مصعب بن الزبير على البصرة ثم خراسان، قاتل الخوارج وأضعف شوكتهم وتوفي زمن الحجاج سنة ٨٣ هـ.

(٢) هرمس هو نبي الصائبة المرسل الذي أتى بشرائعهم ويعتقدون أنه إدريس ذاته الذي جاء ذكره في القرآن. أما بلينوس فيزعم الصائبة أنه خلف هرمس وأخذ العلوم عنه. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٣) أفلاطون: (٤٣٠ - ٣٤٧ ق.م). فيلسوف يوناني كبير تتلمذ على سقراط وأسس أكاديمية للعلم تخرج منها أرسطو الفيلسوف اليوناني الملقب بالمعلم الأول. خلف نحو ثلاثين كتاباً سميت المحاورات أهمها الجمهورية وتيماوس، والسفسطائي.

(٤) أرسطوطاليس: (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مؤدب الإسكندر ومؤسس الفلسفة المشائية لأنه أنشأ مدرسة في أثينا كان يلقى فيها دروسه ماشياً. أشهر كتبه: الأورغانون في المنطق، والأخلاق، والنفس وما بعد الطبيعة. ترجمت إلى العربية في العصر العباسي وتركت أثراً عظيماً في الفكر العربي.

(٥) بطليموس: (... - ١٦٧ م)، ولد في صعيد مصر، وتوفي في الإسكندرية. عالم هيئة وتاريخ وجغرافية. أشهر مؤلفاته «المجسطي» و«آثار البلاد». قال إن الأرض ثابتة لا تتحرك وأن الفلك يدور حولها. وقد فند كوبرنيكوس نظريته وأبطلها. (المنجد).

(٦) أبقراط (Hippocrate): (... - ٤٦٠ ق.م)، أشهر أطباء اليونان علل الأمراض باضطراب الأخلاط وجعل لها مصدرين: الهواء والغذاء. أرسل إليه ملك الفرس أرتخششتا الهدايا ودعاه للمجيء إلى إيران لفرض خدمة أعداء بلاده ورد الهدايا. نقلت بعض كتبه إلى العربية في العصر العباسي أهمها مقدمة المعرفة، وطبعة الإنسان. (المنجد).

(٧) جالينوس Galien: (١٣١ - ٢٠١ م)، يعتبر آخر الأطباء الثمانية المشهورين عند اليونان الذين أولهم اسقنبليينوس تجول في البلدان مفتشاً عن الحشائش وجربها، وشرح أعضاء الجسم وله اكتشافات خطيرة في علم التشريح. (المنجد).

(٨) أبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور. كان من أصحاب الحديث ينتقد الكندي ويحرض عليه العامة فدان له الكندي من حسن له علم الحساب والهندسة فانصرف إليه وإلى علم الفلك وكف عن الكندي. توفي سنة ٢٧٢ هـ. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٩) جابر بن حيان: (... - ٧٧٦ م) من علماء العرب في الكيمياء. عاش في الكوفة، واتصل =

النظام^(١) أصلاً أدرك به الحقائق، وجعلت للكِندي^(٢) رسماً استخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان اخترعك، وتألّف الأوتار توليدك وأبتدأك؛ وأن عبد الحميد بن يحيى^(٣) باري أفلامك، وسهل بن هارون^(٤) مدوّن كلامك؛ وعمرو بن بحر مستمليك^(٥)، ومالك بن أنس^(٦) مستفتيك؛ وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين؛ وحدّ الماهية، وبيّن الكيفيّة والكميّة؛ وناظر في الجوهر والعرض، وبيّن الصحة من المرض؛ وفكّ المعمّى، وفصل بين الاسم والمسمى؛ وضرب وقسم، وعدل وقوّم؛ وصنّف الأسماء والأفعال، وبوّب الظرف والحال؛ وبنّى وأعرب، ونفّى وتعجّب؛ ووصل وقطع، وثبّى وجمّع؛ وأظهر وأضمر، وأبتدأ وأخبر؛ وأهمّل وفقّد،

= بجعفر الصادق. من كتبه «الرحمة» فيه بحث عن طريقة تحول المعادن إلى ذهب. ولكن صاحب سرح العيون يقول إنه لم يجد ترجمة صحيحة له في كتاب يعتمد عليه. (المنجد، وسرح العيون).

(١) النظام: هو إبراهيم بن سيار النظام، أبو إسحق، شيخ المعتزلة في عصره وأستاذ الجاحظ. ترجم له ابن المرتضى وذكره الجاحظ كثيراً في كتبه. وهو القائل بنظرية الطفرة في حركة الأجسام. توفي في بغداد سنة ٢٣٠ هـ.

(٢) الكندي: هو يعقوب بن إسحق الكندي. أول فيلسوف عربي، كان جده الأشعث بن قيس من أصحاب النبي وكان أبوه والياً على الكوفة من قبل المهدي والرشيد. ترجم له ابن أبي أصيبعة والفقطي، وذكره الجاحظ في البخلاء ورماه بالبخل. له عشرات الرسائل في الفلسفة أهمها رسالة في الفلسفة الأولى، طبعها أبو ريدة.

(٣) عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري، أحد الكتاب المجيدين، كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولما قتل مروان استخفى حتى عثر عليه جنود أبي مسلم الخراساني فسلموه للسفاح الذي قتله سنة ١٣٢ هـ.

(٤) سهل بن هارون بن راهب، من أهل نيسابور نزل البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وعمل كاتباً في بيت الحكمة عند المأمون. له مؤلفات تدل على بلاغته ورجاحة عقله ونسب إليه الجاحظ في البخلاء رسالة يدافع فيها عن البخل. توفي سنة ٢١٠ هـ.

(٥) هو عمرو بن بحر بن محبوب، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، وكني بأبي عثمان. ولد بالبصرة حيث نشأ وتثقف ثقافة موسوعية ونبغ في الأدب وعلم الكلام ثم انتقل إلى بغداد واتصل بخلفاء بني العباس المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل وعندما أفل نجم المعتزلة وضيق عليهم المتوكل عاد إلى مسقط رأسه البصرة حيث توفي سنة ٢٥٥ هـ. أهم كتبه الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين. وعشرات الرسائل. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، وابن خلكان، وفيات الأعيان).

(٦) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي، أبو عبد الله من أصحاب الحديث والفقه، له كتاب الموطأ في الفقه. عاش في المدينة ومات سنة ١٧٩ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان).

وأرسل وأسند، وبَحَثَ ونَظَرَ، وتَصَفَّحَ الأديان، وَرَجَّحَ بين مذهبي ماني^(١) وغِيلان^(٢)؛ وأشار بِذَنجِ الجَعْدِ^(٣)، وقتلَ بِشَارِ بنِ بُزْد؛ وأَنْكَ لو شئتُ خَرَقْتُ العادات، وخالفتُ المعهودات؛ فأحلتُ البخارَ عذبةً، وأعدتُ السَّلامَ^(٤) رَطوبةً؛ ونَقَلْتُ غَدًا فصارَ أَمَسًا، وزدتُ في العناصرِ فكانتَ خَمَسًا؛ وَأَنْكَ المَقولُ فيه: «كلُّ الصيدِ في جوفِ الفَرَا»^(٥): [من الوافر]

و: ليس على الله بمستنكرٍ أن يَجْمَعَ العالَمَ في واحدٍ^(٦)

والمعني بقول أبي تمام: [من الوافر]

فلو صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزدها على ما فيكَ من كرمِ الطباعِ

والمراءُ بقول أبي الطيّب: [من الكامل]

ذِكْرُ الأَنامِ لَنَا فَكانَ قَصيدةً كُنْتُ البديعَ الفَرْدَ من أبياتِها

فـ «كَدَمْتُ غَيْرَ مَكْدَمٍ»^(٧) واستسمنتُ ذا ورمٍ وَنَفَخْتُ في غيرِ ضرمٍ؛ وَلَمْ تَجِدْ لِرُمَحٍ مَهْزًا، ولا لَشَفْرةٍ مَحْزًا؛ بل رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ، وتمنيتُ الرجوعَ بِخَفْيٍ حَنِينٍ^(٨)، لأنِّي قُلْتُ لها: [من الطويل]

* «لقد هان من بالَت عليه الثعلبُ»^(٩) *

(١) ماني: صاحب الديانة المانوية، ظهر أيام سابور بن أردشير، وتبعه كثير من المجوس، وقال بالهين إله النور وإله الظلمة، أو إله الخير وإله الشر. وقتل زمن بهرام بن سابور سنة ٢٧٦ م.

(٢) غيلان: هو غيلان بن يونس الدمشقي، أول من تكلم في القدر وخلق القرآن، وقتل زمن هشام بن عبد الملك بسبب ذلك.

(٣) الجعد: هو الجعد بن درهم مولى بني الحكم. سكن دمشق وعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. قال بتخلق القرآن، فطلب وهرب ونزل الكوفة فأخذ عنه جهم بن صفوان قوله بخلق القرآن فقبض عليه خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وقتله زمن هشام بن عبد الملك.

(٤) السلام: واحده سلمة أي الحجر.

(٥) مثل يضرب للشيء المرئي على غيره. والفرا: حمار الوحش.

(٦) البيت لأبي نواس.

(٧) مثل يضرب لمن يطلب شيئًا في غير مطلبه. ومعنى الكدم العض بأدنى الفم. والمكدم: موضع العض. أي عضضت في غير المحل الذي ينبغي عضه.

(٨) رجع بخفي حنين: مثل يضرب لمن يرجع من مسعاه خائبًا.

(٩) هذا عجز بيت للشاعر غاوي بن ظالم السلمي، أو للعباس بن مرداس السلمي. وصدر البيت:

«أرب يبول الثعلبان برأسه»

وَأَسَدْتُ: [من الطويل]

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب^(١)

وَنَخَرْتُ^(٢) وكفرت، وَعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ^(٣)؛ وأبدأتُ وأعدت، وأبرقتُ وأرعدت و «هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي» ولولا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذَمَّةً، وَلِلضَّيَافَةِ حُرْمَةً؛ لكانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالِ الدُّمُسْتَقِ^(٤)، وَلَكِنَّ النُّعْلَ حَاضِرَةً إِنْ عَادَتِ الْعُقُوبُ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمَذْنِبُ؛ وَهَيْهَا لَمْ تَلَا حِظَكَ بَعِينَ كَلِيلَةٍ عَنْ عِيُوبِكَ، مَلُؤَهَا حَبِيبُهَا، وَحَسَنَ فِيهَا مِنْ تَوَدَّ، وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ، وَوَسَمْتِكَ بِسِمَاكَ؛ وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً، وَلَا تَكَلَّفْتَ لَكَ زِيَادَةً؛ بَلْ صَدَقْتِكَ سَنٌّ بِكَرِّهَا^(٥) فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ، وَوَضَعْتَ الْهِنَاءَ^(٦) مَوَاضِعَ الثُّقْبِ فِيمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ؛ وَلَمْ تَكُنْ (كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنْتَ بِهِ عَلَيْكَ)، فَالْمُعِيدِيُّ^(٧) تَسْمَعُ بِهِ لَا أَنْ تَرَاهُ، هَجِينُ^(٨) الْقَذَالِ، أَرَعُنُ السَّبَالِ؛ طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةُ^(٩)، مُفْرِطُ الْحُمَقِ وَالْغَبَاوَةِ؛ جَافِي الطَّبْعِ، سَيِّئُ الْجَابَةِ^(١٠) وَالسَّمْعِ؛ بَغِيضُ الْهَيْئَةِ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجَبِيئَةِ؛ ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ؛ كَثِيرُ الْمَعَائِبِ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ؛ كَلَامُكَ تَمَتَّمَةٌ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ؛ وَبَيَانُكَ قَهْقَهَةٌ، وَضَحْكُكَ قَهْقَهَةٌ؛ وَمَشْيُكَ هَرُولَةٌ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ؛ وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ: [من الوافر]

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَا أُمْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ^(١١)

(١) البيت لأبي تمام.

(٢) نخرت: من النخير وهو الصوت الخارج من الأنف ومنه سمي المنخار.

(٣) بسرت: من البسر، وهو القطوب.

(٤) قذال الدمستق: إشارة إلى بيت يمدح فيه المتنبي سيف الدولة الحمداني أمير حلب بمناسبة انتصاره على قائد الروم الدمستق الذي ولي منهزمًا. والبيت هو: وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدمستق.

(٥) مثل يضرب لمن يضع الشيء في غير مكانه. والبكر: الفتى من الإبل.

(٦) الهناء: القطران.

(٧) أهل المثل كما جاء في مجمع الأمثال للميداني «تسمع بالمعيدي ولا تراه»، يضرب لمن خبره خير من مرآه. والمقول فيه هو شقة بن ضمرة بن جابر من بني نهشل.

(٨) الهجين: الذي أمه غير عربية. والقذال: مؤخر الرأس. يضرب لمن إذا أدبر عرف لؤم نسبه.

(٩) العلاوة: الرأس.

(١٠) الإجابة.

(١١) البيت لأبي تمام.

حتى إنَّ باقلاً^(١) موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَّتَقَة^(٢) مستحقٌّ لاسمِ ألعقل إذا نُسِبَ منك، وأبا غَبْشَانَ^(٣) محمودٌ منه سَدَادُ الفعل إذا أَضِيفَ إليك، وطُويسًا^(٤) مأثورٌ عنه يُمنُّ الطائر إذا قيسَ عليك؛ فوجودُكَ عَدَمٌ، والاعتباطُ بك ندمٌ؛ والخبيَّةُ منك ظَفَرٌ، والجنَّةُ معك سَقَرٌ؛ كيف رأيتَ لؤمَكَ لكرمي كِفَاءً، وضَعَتَكَ لشرفي وفَاءً؟ وأنتى جهلتَ أن الأشياءَ إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيَرُ إنما تقع على أَلْفَها؟ وهَلَا علمتَ أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعُرتَ أن نارِي المؤمن والكافر لا يترآيان، وقلت: الخبيثُ والطيبُ لا يستويان، وتمثلت: [من الخفيف]

أيها المنكحُ الثريُّ سُهَيْلاً عَمَرَكَ اللهُ كيف يلتقيان^(٥)

وذكرتَ أنتى عِلْقَ لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من أجاد؛ ما أَحَسَبَكَ إلا كنتَ قد تهيَّأتَ للتهنئة، وترشَّحتَ للترفئة؛ أولى لك، لولا أن جرحَ العجماء جُبَارًا^(٦)، للقيتَ ما لقيَ من الكواعب يَسَارًا^(٧)؛ فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تَعَرَّضَ إلا لأيسر ما تَعَرَّضتَ له؛ أين أدعاؤُك روايةَ الأشعار، وتعاطيك حِفْظَ السَّيَرِ والأخبار؟: [من الطويل]

بنو دارِمٍ أكفاؤهم آلٌ مِسْمَعٌ وتُنكحُ في أكفائها الحَبيطاتُ^(٨)

- (١) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، ذكره الجاحظ مراراً في البيان والتبيين وغيره من كتبه ورسائله لمثل يضرب في البيان والفصاحة.
- (٢) هبنقة: هو يزيد بن ثوران بن ثعلبة، لقب بذي الورعات لأنه كان يعلق في عنقه قلادة من ودع مع طول لحيته، فسئل فقال: لثلا أضل. فضرب به المثل في الحمق. ذكره الجاحظ مراراً في رسائله وكتبه.
- (٣) أبو غبشان أو أبو عيشان مضرب المثل في الندم وخسارة الصفقة. لأنه باع من قصي مفاتيح الكعبة التي كان سادناً لها بزيق خمر. اسمه المحترش بن خليل بن سلول بن كعب بن عمرو. (القاموس المحيط).
- (٤) طويس: هو مولى بني مخزوم، كنيته أبو نعيم، من سكان المدينة، ماجن طريف كان يغني بالدف. ضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم قبض رسول الله، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات علي. (القاموس المحيط).
- (٥) البيت لعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة. والثريا هي بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر. وسهيل هو ابن عبد العزيز بن مروان. (ابن نباتة، سرح العيون).
- (٦) العجماء: البهيمة؛ الجبار: الهدر الذي لا قصاص فيه. وهو قول للنبي.
- (٧) يسار: عبد أسود، كانت النساء تضحك من قبحه فيظن أنهن يضحكن إعجاباً به. فحاول مرة مغازلة امرأة مولاة فقالت له: إن للحرائر طيباً أشمك إياه. فقال: هاتيه. فأتت بالطيب وموسى، فأشمته الطيب وجدعت أنفه. وكان يلقب يسار الكواعب. (المصدر عينه).
- (٨) البيت للفردق.

وهَلَا عَشَّيْتُ^(١) ولم تَغْتَرَّ، وما أَمْنَكَ أَنْ تكونَ وافِدَ البراجِمِ^(٢)، أو ترجِعْ بصحيفة المتلمس^(٣) أو أَفْعَلْ بك ما فعله عَقِيلُ بنُ عُلْفَةَ بِالْجُهْنِيِّ^(٤) إذ جاءه خاطبًا فدهنَ أَسْتَه بَزِيْت وأَدْنَاه من قَرْيَةِ النمل؟ ومتى كثر تَلَاقِينَا، واتصل تَرَاثِينَا؛ فيدعوني إليك ما دعا ابْنَةَ الْحُسَّ^(٥) إلى عِبْدَهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ، وقربِ الْوَسَادِ؟ وهل فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ فَأَنْكَحَ فِي جَنْبِ^(٦)، أو عَضَلْنِي هَمَامُ بْنُ مَرَّةٍ فَأَقُولُ: زَوْجٌ مِنْ عُودٍ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ^(٧)؟ ولعمري لو بَلَغْتُ هَذَا الْمِبْلَغَ لَارْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْحِطَّةِ، وما رَضِيتُ بِهِذِهِ الْحِطَّةِ؛ فَ «النَّارُ وَلَا الْعَارُ» وَ «الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ» وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ

(١) مثل يضرب للاحتياط أصله «عش ولا تغتر».

(٢) وافد البراجم: إشارة إلى المثل: «إن الشقي وافد البراجم» ووافد البراجم رجل من تميم وأحد أولاد حنظلة بن مالك. والقصة هي أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين من بني تميم لثأر له عندهم وكان قد حلف على حرق مائة منهم. وبينما هو يبحث عن رجل يتم به المائة مر رجل يسمى عمارًا فشم رائحة القنار فظن أن الملك أولم طعمًا فعدل إليه، فأحرقه. (المصدر نفسه).

(٣) المتلمس: شاعر جاهلي هو خال طرفة بن العبد، وفد مع ابن أخيه على عمرو بن هند ملك الحيرة، فغضب عليهما يومًا لأنهما عرضا به وأراد التخلص منهما فكتب كتابين لعاملة في البحرين يأمره بقتلهما وقال لهما إنني كتبت بصلة لكما من عاملي في البحرين. فسلماهما الرسالتين. فتوجها إلى البحرين، وأثناء الطريق فتح المتلمس صحيفته وعرف ما فيها فألقاها في البحر، ومضى طرفه بصحيفته إلى عامل البحرين فقتله. وضرب المثل بصحيفة المتلمس للرجل يحصل له الضرر من حيث هو يتوقع النفع. (سرح العيون).

(٤) عَقِيل بن علفَة شاعر من شعراء العصر الأموي، اشتهر بهوجه وجفوته وعجرفته، خطب عبد الملك ابنته فأبى، وخطب جار له جهني إحدى بناته فدهن أسته بَزِيْت وأَدْنَاه من قرية النمل. (المصدر نفسه).

(٥) هي هند بنت الحسن الإيادي، عاشت في العصر الجاهلي، ذكروا أنها زنت بعيدها، فلامها الناس في ذلك، وقالوا ما حملك على الزنى؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السواد. والسواد: المسارة. (المصدر نفسه).

(٦) الأرقام: حي من تغلب. وجنب: حي من اليمن. أشار بهذه العبارة إلى بيتين للشاعر الجاهلي امرئ القيس الذي اضطر إلى تزويج ابنته من حي في اليمن بسبب بعده عن قبيلته. والبيتان هما:

اعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدما الأرقام من جنب وكان الحباء من أدم

(٧) همام بن مرة منع بناته الأربع من الزواج، أي عضلن فقالت إحداهن: زوج من عود خير من قعود. (المصدر نفسه).

بثديها: [من الطويل]

فكيف وفي أبناء قومي منكح^(١) وفتيان هَزَان الطوالِ الغرانة^(٢)
ما كنتُ لأتخطى المسك إلى الرّماذ، ولا لأمتطي الثّورَ بعد الجواد؛ فإنما
يتيمّم من لا يجد ماء، ويرعى الهشيمَ من عديم الجميم^(٣)، ويركب الصّعب من لا
دّلّ له؛ ولعلك إنما غرّك من علمت صبوتي إليه، وشهدت مساعفتي له، من
أقمار العصر، ورياحين مصر؛ الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب
شيم: [من البسيط]

من تلق منهم تقل: لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري^(٣)
فيجنّ قدح ليس منها؛ ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا وأو
عمرو فيهم، وكالوشيفة في العظم بينهم^(٤)؟ وإن كنت إنما بلغت قعر تابوتك^(٥)،
وتجافيت عن بعض قوتك؛ وعطرت أزدانك، وجرت هميانك؛ واختلت في
مشيتك، وحذفت فضول لحيتك؛ وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك؛ ودققت
خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك؛ رجاء الاكتتاب^(٦) فيهم، وطمعا في الاعتداد
منهم؛ فظننت عجزا، وأخطأت أستاذك الحفرة؛ والله لو كساك مُحرق^(٧) البردين،
وحلتك مارية^(٨) بالقرطين؛ وقلدك عمرو^(٩) الصمصامة، وحملك الحارث^(١٠) على

(١) البيت للأعشى الأكبر. هزان بطن من العرب. والغرانقة جمع غرنوق وغرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل. (المصدر نفسه).

(٢) الجميم: النبات النامي الذي طال ولم ينضج.

(٣) البيت للعنّيس البكري الكلابي يمدح به أحد الغنوين. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٤) الوشيفة: قطعة عظم زائدة على العظم الصميم مثل يضرب للدخيل على القوم وليس منهم. (المصدر نفسه).

(٥) يعني لازمت فذلك. (٦) يريد رجاء أن تعد فيهم وتكتب منهم.

(٧) يريد عمرو بن هند ملك الحيرة. يحكى أن وفود القبائل اجتمعوا عنده فأخرج بردين وقال ليقيم أعز العرب وليأخذهما فقام عامر بن أحيمر فأخذهما. فقال عمرو بن هند: أنت أعز العرب قبيلة: فقال: أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة الخ... (المصدر نفسه، مادة برد).

(٨) حلتك مارية بالقرطين: إشارة إلى قرطي مارية ابنة ظالم بن وهب الكندي، زوجة الحارث الأكبر الغساني. وكان في قرطيا لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا إلى عبد الملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبد العزيز. ويروى أن مارية أهدتهما إلى الكعبة. (المصدر نفسه).

(٩) عمرو هو عمرو بن معديكرب. والصمصامة اسم سيفه.

(١٠) هو الحارث بن عباد التغلبي. والنعامة اسم فرسه.

النَّعَامَةُ؛ مَا شَكَّكَتُ فِيكَ، وَلَا تَكَلَّمْتُ بِمَلَأِ فِيكَ؛ وَلَا سَتَرْتُ أَبَاكَ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ؛ وَهَبِكَ سَامِيَتَهُمْ فِي دُزُوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ، وَجَارِيَتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ؛ أَلَسْتُ تَأْوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لَكَاع؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ؛ وَأَيْنَ مِنْ أَنْفَرْدَ بِهِ، مِمَّنْ لَا أَغْلِبُ إِلَّا عَلَى الْأَقْلَى الْأَخْسَرِ مِنْهُ؟ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ؛ وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَيَّ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ؛ وَبَيْنَ آخَرٍ قَدْ نَزَحَتْ بِيَرُهُ، وَنَضَبَ غَدِيرُهُ؛ وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَلَمْ يَبَقْ إِلَّا ضَرَاطُهُ؛ وَهَلْ كَانَ يُجْمَعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ^(١) وَسُوءُ الْكَيْلَةِ. وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ^(٢): [مِنَ الْوَافِرِ]

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلَّ الجِرْصُ أعناقَ الرجالِ
(وهذا الشعر لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو ويلومه على حرصه،
ويتلوه):

هَبِ الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالٍ
مَا كَانَ أَحَقُّكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ، وَتَرَبَّعَ عَلَى ظَلْعِكَ؛ وَلَا تَكُونَ بَرَاقِشَ^(٣) الدَّالَّةَ
عَلَى أَهْلِهَا، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا؛ فَمَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى
السُّرْحَانِ^(٤)، وَبِكَ لَا بَظْبِي أَعْفَرُ، قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيْئًا، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ
حَيًّا؛ وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ، وَخَذَرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ. «إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لَذِي الْجِلْمِ»
«وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبِي»^(٥). فَإِنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ، وَرَجَعْتُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ؛
كُنْتُ قَدْ اشْتَرَيْتُ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ؛ وَإِنْ قُلْتُ: «جَعَجَعَةً وَلَا طِخْخَنَا» وَ «رُبَّ
صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ»^(٦) وَأَنْشَدْتُ: [مِنْ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

لَا يُؤْيِسُنَّكَ مِنْ مَخْبَأَةٍ قَوْلٌ تُغْلَظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

-
- (١) إشارة إلى المثل «احشفأ وسوء الكيلة». والاحشف هو الرديء من التمر.
(٢) يشير بهذه العبارة إلى قول عامر بن الطفيل حين ظهرت في رقبتها الغدة التي مات بها وكان في بيت امرأة سلولية، فقال: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية» (المصدر نفسه).
(٣) براقش: اسم كلبة نبحت قومًا قصدوا الغارة على قوم وخفي عليهم مكانهم. فلما نبحت عرفوهم وسطوا عليهم. فضربوا بها المثل «جنت على أهلها براقش». (مجمع الأمثال للميداني).
(٤) السرحان: الذئب. مثل يضرب لمن يريد أمرًا. فيقع على المكروه.
(٥) هذان مثلان يضربان في التحذير.
(٦) هذان مثلان يضربان لمن يتوعد ولا يفعل. والجعجعة هي صوت الرحى.

فَعُدَّتْ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ، وَرَاجَعَتْ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ؛ بَعَثَتْ مِنْ يُزْعَجُكَ إِلَى الْخَضِرَاءِ دَفْعًا، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكَزًّا وَصَفْعًا؛ فَإِذَا صَرَتْ بِهَا عَيْتُ أَكَارِوَهَا بِكَ، وَتَسْلُطُ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ؛ فَمِنْ قَرَعَةٍ مَعُوجَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ، وَفُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ؛ لَكِي تَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ: [مِنَ الْمُتْقَارِبِ]

فَمِنْ جَهَلْتَ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى^(١)

وَقَالَ أَيْضًا فِي رُفْعَةٍ خَاطَبَ بِهَا ابْنَ جَهْوَر - وَهِيَ مِنْ رَسَائِلِهِ الْمَشْهُورَةِ -
أُولَئِهَا:

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَادِي لَهُ، وَاعْتَدَادِي بِهِ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ - أَبْقَاكَ اللَّهُ مَاضِي حَذِّ الْعِزْمِ، وَأَرَى زُنْدَ الْأَمَلِ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ - إِنْ سَلَبْتَنِي أَعَزَّكَ اللَّهُ لِبَاسِ إِنْعَامِكَ، وَعَطَّلْتَنِي مِنْ خَلِيٍّ إِيْنَايِكَ، وَغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ؛ بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ، وَسَمِعَ الْأَصْمُ ثَنَائِي عَلَيْكَ، وَأَحْسَنَ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ؛ فَلَا غَرَوْ قَدْ يَعْصُ بِالمَاءِ شَارِبُهُ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفَى بِهِ، وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّي فِي أَمْنِيَّتِهِ «وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ»^(٢) وَإِنِّي لِأَتَجَلَّدَ، وَأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لَا أَتَضَعُّعُ، وَأَقُولُ: هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاها سِوَارُهَا، وَجَبِينٌ عَضُّهُ إِكْلِيلُهُ، وَمَشْرِفِي^(٣) أَلَصَّقَهُ بِالأَرْضِ صَاقِلُهُ، وَسَمَهْرِي^(٤) عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ: [مِنَ الْكَامِلِ]

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحُمُ^(٥)

وَالْعَثْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ، وَالتَّبَوُّةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي، وَالنَّكْبَةُ «سَحَابَةٌ صَيْفٌ عَنْ قَرِيبٍ تَقْشَعُ» وَسَيِّدِي إِنْ أَبْطَأَ مَعْذُورٌ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَإِنْ يَكُنِ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّاتِي سَرَرْنَ أُلُوفُ^(٦)

(١) البيت للمتنبى. يريد أن يقول إن من جهل قدر نفسه فالناس يعرفون قدره.

(٢) هذا عجز بيت قاله عدي بن زيد. أما صدره فهو:

«قد يدرك المبطل من حظه»

(انظر: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي ص ٤٠ طبعة بغداد وعليها اعتمدنا في الشروحات التالية).

(٣) المشرفي: السيف.

(٤) السمهري: الرمح.

(٥) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق.

(٦) البيت للمتنبى من أبيات كتب بها إلى أبي العشائر الحسين بن حمدان يعاتبه على ما جرى من غلمانه.

فليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسغه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مُسيئاً فأين الفضل؟ وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح: «اركب معنا»، فقلت: «سَآوَيْتُ إِلَى جَبَلٍ يَصْعَدُنِي مِنْكَ الْوَأْءُ» [هود: الآية ٤٣] وتعاطيتُ فَعَفَرْتُ، وأمرتُ ببناء صَرْحٍ ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القَصص: الآية ٣٨] وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ، واعتديتُ في السَّبْتِ، وشربتُ من النهر الذي أَبْتَلَى بِهِ جُنُودَ طَالُوتَ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ^(١)، وعاهدتُ قَرِيشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ^(٢)، وتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ^(٣)، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعِيرِ بِبَذَرٍ^(٤)، وَأَنْخَذْتُ بَثْلَ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ^(٥)، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ^(٦)، وَجِئْتُ بِالْإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ^(٧)، وَأَبَيْتُ مِنْ إِمَارَةِ أَسَامَةَ^(٨)، وَزَعَمْتُ أَنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً^(٩). [من الطويل]

* وَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ^(١٠) *

- (١) يشير في هذه العبارات إلى آيات وردت في القرآن الكريم حول ناقة صالح. واتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه، واعتدادهم بيوم السبت، وشرب جنود طالوت من النهر، وأصحاب الفيل الذين ساروا إلى الكعبة وأرادوا هدمها يقودهم أبرهه.
- (٢) يشير إلى صحيفة قريش التي تعاهدوا فيها على قطع العلاقة مع بني هاشم فلا بيع وشراء ولا زواج.
- (٣) يشير إلى بيعة الأنصار لرسول الله بالعقبة.
- (٤) إشارة إلى وقعة بدر التي جرت بين النبي وأنصاره ومشركي قريش وانتصر فيها عليهم. وبدر ماء يقع بين المدينة ومكة.
- (٥) إشارة إلى وقعة أحد التي نشبت بين النبي وأنصاره وبين مشركي قريش. وانتصر فيها المشركون بسبب انخزال عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، وتركه لرسول الله وحده مع أصحابه، وسط المعركة. وأحد جبل أجرد أحمر يقع شمالي المدينة على بعد ميل منها.
- (٦) يشير إلى غزوة النبي لبني قريظة، وإلى قول النبي لأصحابه: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة. فلما جاء العصر وهم في الطريق صلاه جماعة منهم تلبية لأمر الرسول على قصد السرعة، وصلاه الباقون في بني قريظة بعد مضي الوقت.
- (٧) إشارة إلى حديث الإفك الذي رميت به عائشة زوج النبي.
- (٨) أمر رسول الله أسامة وهو شاب صغير على جيش لقتال الروم فاستنكر بعضهم ذلك فغضب النبي.
- (٩) إشارة إلى قول الخليفة عمر بن الخطاب عندما سمع بعض الناس يقول: لو مات الخليفة لنبايعن فلاناً. فخشي أن يكون في هذا إضعاف لبيعة الناس، فخطب الناس في المدينة وقال: «فلا يفترون امرؤ منكم أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلانة فتمت، فإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها، رواه يونس عن الزهري.
- (١٠) هذا صدر بيت لأبي شجرة السلمي، قاله في حرب الردة وكان هو يقود المرتدين وخالد بن=

وَمَزَقْتُ الْأَيْدِيمَ الَّذِي بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ فِيهِ^(١)، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ الَّذِي عُنْوَانُ
السُّجُودِ بِهِ^(٢)، وَكُتِبَتْ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ أَنْ جَفَّجِعَ^(٣) بِالْحُسَيْنِ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ: [مَنْ
الطويل]

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرَبَ عَلِيٌّ بِالْحَسَامِ الْمَخْذُمِ^(٤)
وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَمَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ^(٥): [مَنْ المديد]

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ
قَدْ قَتَلْنَا الْقُرُونَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرِ فَاعْتَدَلَ^(٦)
وَرَجِمْتُ الْكَعْبَةَ، وَصَلَبْتُ الْعَائِدَ بِهَا عَلَى الثَّنِيَّةِ؛ لَكَانَ فِيمَا جَرَى عَلَيَّ مَا يَحْتَمِلُ
أَنْ يُسَمَّى نِكَالًا، وَيَدْعَى وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ عِقَابًا^(٧): [مَنْ المتقارب]
وَحُسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامْرِيءَ يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا

= الوليد يقولُه المسلمین، وعجزه:

«وإني لأرجو بعدها أن أعمرا»

(١) إشارة إلى بيت قاله أحد الشعراء في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب:

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ يَدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْأَيْدِيمِ الْمَمْرُوقِ

(٢) إشارة إلى قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان:

ضَحُّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَأْنَا

(٣) أشار إلى كلام عبيد الله بن زياد إلى قائده عمر بن سعد في كربلاء حيث يحاصر الحسين بن علي بن أبي طالب: «جمعجج بالحسين...» ومعنى جمعجج: ضيق.

(٤) هذا البيت قاله ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، كان يحب امرأة جميلة بالكوفة، وأراد التزوج منها فشرطت عليه أن يكون صداقها ثلاثة آلاف عبدًا وجارية وقتل علي، فقبل عبد الرحمن بن ملجم وقتل عليًا. وبعده البيت التالي:

فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وَإِنْ غَلَا وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكَ ابْنِ مَلْجَمٍ

(٥) هي حرة واقم شرقي المدينة، بها كانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين بين أهل المدينة وبين جيوش بني أمية وانتهت بهزيمة أهل المدينة وأخذ البيعة منهم ليزيد بن معاوية.

(٦) هذا الشعر لعبد الله بن الزبير. يشير إلى ثأر قومه لجدوده الذين قضاوا في موقعة بدر على يد النبي وأنصاره. والأسل: الرمح. والقرن: السيد.

(٧) إشارة إلى مصرع عبد الله بن الزبير في مكة على يد عامل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان ابن الزبير قد خرج على بني أمية وأعلن نفسه خليفة فحاصره الحجاج في مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير بحجر أصابه. فصلبه الحجاج سنة كاملة سنة ٧٣ هـ.

فكيف ولا ذنبَ إلا نَمِيمةً أهداها كاشح، ونَبأُ جاء به فاسق؛ والله ما عَشَشْتُكَ
بعد النصيحة، ولا أَنحَرَفْتُ عنكَ بعد الصاغية، ولا نَصَبْتُ لكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ فيكَ^(١)،
ففيم عَيْثُ الجَفَاءِ بِأَذْمَتِي، وعَاثَ في مودَّتِي؟ وأَنْتَ غلبني المَغْلَبُ، وفَخَّرَ عَلَيَّ
الضَّعِيفَ^(٢)، وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ^(٣)؟ وما لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَفْتَرِسَ،
وتَدْرِكُنِي وَلَمَّا أُمِرْتُ^(٤)، أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحَ الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ
بِكَ، وَتَقْطَعُ أَنْفَاسَ النَّظَرَاءِ مَنَافَسَةً فِي الْكِرَامَةِ عَلَيْكَ وَقَدْ زَانِي أَسْمُ خِدْمَتِكَ، وَزَهَانِي
وَسْمُ نَعْمَتِكَ وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ، وَقَمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ عَلَى
بِسَاطِكَ: [من الطويل]

ألسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمُ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا^(٥)

وهل لَيْسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بِمَحَامِدِكَ، وَتَقَلَّدْتَ الْجَوَازِءَ إِلَّا عَقْدًا فَضَّلْتُهُ
بِمَآثِرِكَ، وَبَثَّ الْمَسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَدْعَتْهُ بِمَفَاخِرِكَ: «مَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسَرٍّ»^(٦) وحَاشَ اللَّهُ أَنْ
أَعْدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ، وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ.

وفي فَصْلٍ مِنْهُ: وَلَعَمْرِي مَا جَهِلْتُ أَنَّ الرَّأْيَ فِي أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغْتَنِي
الشَّمْسُ، وَنَبَا بِي الْمَنْزَلُ، وَأُضْرِبَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ، وَلَا
أَسْتَوْطِيءُ الْعَجْزَ فَيُضْرَبُ بِي الْمِثْلُ: «خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ»^(٧) وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ

(١) النصب: العداء. والتشييع: الموالاة. إشارة إلى فرقتي الناصبة والشيعة. الأولى تعادي عليًا
والأخرى تواليه.

(٢) إشارة إلى قول امرئ القيس:

وإنك لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٣) ذات سوار: الحرة. لأن المرأة الحرة كانت تلبس السوار دون الأمة.

(٤) إشارة إلى قول الشاعر:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركنني ولما أفرق

وقد تمثل به عثمان بن عفان في كتاب بعث به إلى علي بن أبي طالب وهو محاصر من قبل
الثوار في منزله.

(٥) البيت للبحثري من قصيدة يعاتب فيها الفتح بن خاقان.

(٦) مثل يضرب لكل متعارف مشهور. وحليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني، كان أبوها قد
وجه جيشاً إلى المنذر من ماء السماء ملك الحيرة اللخمي، فأخرجت طيباً فطيبتهم. وسميت
المعركة باسمها.

(٧) أم عامر: كنية الضبع. يضرب هذا المثل لمن عرف الدنيا وركن إليها رغم ما فيها من بلاء بعد
رخاء، واغتر بها كما تغتر الضبع بقول القائل: «خامري أم عامر» وهي عبارة يقولها من أراد أن
يصيدها لتطمئن إليه؛ ومعناها اشترى والجني إلى أقصى مغارك.

الْجَلَاءِ سِبَاءٌ^(١)، وَالثَّقَلَةُ مُثَلَّةٌ، لَعَارَفٌ أَنْ الْأَدَبَ الْوَطَنُ الَّذِي لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ زَوَالُهُ؛ وَالتَّنَسُّبُ الَّذِي لَا يُجْفَى، وَالْجَمَالُ الَّذِي لَا يَخْفَى؛ ثُمَّ مَا قِرَأَ السَّعْدُ لِلْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ؛ فَإِنَّ الْحَائِزَ لِهَمَّا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ مِنْهَلٍ بَرٍّ، وَخَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضَوْحَكَ قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ: [من الطويل]

وقيل له: أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقٌ
غَيْرُ أَنْ الْمَوْطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ؛ وَاللَّبِيبُ يَجَنُّ إِلَى وَطْنِهِ، حَنِينٌ
النَّجِيبُ إِلَى عَطْنِهِ؛ وَالكَرِيمُ لَا يَجْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَائِلُهُ، وَلَا يَنْسَى بِلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ؛
وَأَنْشُدْ قَوْلَ الْأَوَّلِ: [من الطويل]

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَى وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا^(٢)
بِلَادٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تَرَائِمُهَا
هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي فِي تَعَلَّقِ جَوَارِكِ، وَمِنَافَسَتِي فِي الْحِظِّ مِنْ قُرْبِكَ، وَأَعْتِقَادِي أَنْ
الطَّمَعِ فِي غَيْرِكَ طَبْعٌ، وَالْغِنَى مِنْ سِوَاكَ عَنَاءٌ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ أَعُورٌ^(٣)، وَالْعِوَضُ
لَفَاءً^(٤): [من الكامل]

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضُئًا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ^(٥)
«كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا» وَ«فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَأَسْتَمَجِدُ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ»^(٦)؛
فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ تَوَلَّاكَ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟ وَهَلَا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ

(١) الجلاء: الخروج عن الوطن. والسبأ: الأسر.

(٢) منعج: واد يقع بين حفر أبي موسى والنباج، في بطن فلج. (ياقوت معجم البلدان). سلمى: جبل شرقي المدينة (تاج العروس، مادة سلم).

(٣) إشارة إلى قول الناس في قتيبة بن مسلم الباهلي الأعور الذي ولي خراسان مكان يزيد بن المهلب: هذا بدل أعور.

(٤) اللفاء: التراب، أو الشيء القليل، أو ما هو دون الحق.

(٥) نسبه الصفدي في تمام المتون إلى الشاعر عدي بن الرقاع.

(٦) المرخ: نبات يطول حتى يستظل به وليس له ورق ولا شوك ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، والواحد مرخة. والعفار: نبت صغير يشبه الغبيراء، يصلح للزناد. ويضرب بهما المثل في الشرف وعلو المنزلة.

فيك، ورضاك لمن رضاه لك؟: [من البسيط]

يا من يعِزُّ علينا أن نفارقهم وجدأنا كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمٌ^(١)
أعيذك ونفسي من أن أَشِيمَ خُلْبًا، واستمطرَ جَهَامًا^(٢)، وأكْدَمَ غيرَ مَكْدَمٍ،
وأشكوى شكوى الجريح إلى العِقبان والرَّحَم؛ وإنما أبسستُ لك^(٣) لتَذِرَ، وحَرَكَتُ لك
الحَوَارَ لتَحِجَنَ^(٤)؛ وَسَرَيْتُ لك لِيُحَمَّدَ الْمَسْرَى^(٥) إليك؛ بعد اليقين من أنك إن شئتَ
عَقْدَ أُمري تَيْسَر، ومتى أَعْدَرْتَ في فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ؛ وَعِلْمُكَ يُحِيطُ بأنَّ المعروفَ
ثَمَرَةُ النعمة، والشفاعةُ زَكَاةُ المروءة، وَفَضْلُ الجاهِ تَعُودُ به صَدَقَةٌ: [من الكامل]

وإذا أَمَرُوا أَسْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ^(٦)
لعلِّي أَلْقِي العصا بِذِرَاكٍ^(٧)، وَتَسْتَقِرُّ بِي النوى في ظِلِّكَ، فَتَسْتَلِدُ جَنَى شكري
مِنْ غَرَسٍ عَارِفَتِكَ، وَتَسْتَطِيبُ عَرْفَ ثَنَائِي مِنْ رَوْضِ صَنِيعَتِكَ؛ وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ
بِأَدْبِكَ، والاحتمالَ على مذهبيك؛ فلا أُوْجِدُ للحاسدَ مجالَ لحظة، ولا أَدْعُ للقادحِ
مَسَاغَ لَفْظَةٍ؛ واللهِ ميسرُكَ من إطلابي^(٨) هذه الطُّليَّة، وإشكائي^(٩) من هذه الشكوى
لِصَنِيعَةٍ تصيبُ بها طريقَ المَضْئَع، ويدُ تَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظُ مُسْتَوْدَعٍ؛ حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ
لَهُ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ؛ فَذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهَيْئُ عَلَيْهِ. وَشَفَعَهَا بِأَبْيَاتِ فَقَالَ: [من
الخفيف]

الهُوى في طُلُوعِ تلك النجومِ والمنى في هُبُوبِ ذاك النسيمِ
سَرَنَّا عَيْشُنَا الرقيقَ الحواشي لو يدوم السرور للمستديمِ
وَطَرُّ ما أَنْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زَمَنُ ما ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ

(١) البيت للمتنبي في مدح وعتاب سيف الدولة الحمداني أمير حلب.

(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٣) أبسست: قلت للناقة عند حلبها: بُسْ بُسْ لتدر اللبن.

(٤) الحوار: ولد الناقة، يحرك حولها لتحن عليه وتدر اللبن.

(٥) إشارة إلى المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، يضرب للرجل يتحمل المشقة في سبيل الراحة.

(٦) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها إسحق بن ربيعي كاتب أبي دلف.

(٧) ذراك: ظلك وكثفك.

(٨) الإطلاب: مصدر أطلبه إذا أعطاه ما يطلب.

(٩) الإشكاء: مصدر من أشكيت إذا أزلت شكايته.

زار مستخفياً وهيئات أن يخ
فَوَسَّى الحَلْيَ إذ مشى وهفا الطَّيْبُ
أيها المؤذني بظلم الليالي
ما تَرَى البدرَ إن تأملتَ والشمس
وهو الدهرُ ليس ينفكُ ينحو
بِوَأَ اللَّهِ جَهْوَراً أَشْرَفَ السُّؤْ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجميعُ له الفضلُ
قَلَدَ العُمُرُ ذا التجاربِ فيه
ومنها في ذكر اعتقاله:

سَقَمَ لا أعاد منه وفي العر
نارُ بغِي سَرَتْ إلى جَنَّةِ الأَر
بأبي أنت إن تشأْ تَكُ بَرْدًا
للشفيعِ الثناء، والحمدُ في صو
أئِدْ أنسُ يفي بئِرِ السقيمِ
ض بَيَاتًا فأصبحت كالصريمِ
وسلامًا كنار إبراهيمِ
بِ الحيا لِلرياحِ لا لِلغيومِ^(٣)

ثم قال: هاكها أعزك الله يبسطها الأمل، ويقبضها الخجل؛ لها ذنبُ التقصير، وحرمةُ الإخلاص، فهَبْ ذنبًا لحرمة، وأشْفَعْ نعمةً بنعمة، لتأتي الإحسانُ من جهاته، وتسلكَ الفضلَ من طرقاته؛ إن شاء الله تعالى.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال من جواب لابن بسام - وكان قد كتب إليه يسأله إنفاذ بعض رسائله ليضمَّنها كتابه الذي ترجمه بالذخيرة، فكتب:

وَصَل من السيد المسترق، والمالك المستحق، وَصَل الله أنعمه لديه، كما قَصَرَ الفضلَ عليه - كتابه البليغ، وأستدراجُه المريع^(٤)؛ فلو لا أن يَصِلِدَ زَنْدُ^(٥) اقتداجه، وَيُرَدَّ طَرْفُ افتتاحه؛ وَتُقَبَّضَ يَدُ أنبساطه، وَتُغَيَّرَ صَفْقَةُ أغباطه؛ للزمتُ معه قدرِي، وَضُنَّ بسرّه صدرِي؛ لكنه بَنَفْتُهُ سِحْرِهِ يَسْتَنْزِلُ العَصَمَ فَتُجَنَّبُ^(٦)، ويقتادُ

(١) يريد أن يقول إن اليوم الذي ظلم فيه ليس الوحيد. من دهر ظلوم.

(٢) الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور. (٣) صوب الحيا: أي المطر.

(٤) المريع: المخادع. (٥) صلد الزند: صوت ولم يخرج نازًا.

(٦) العصم: جمع أعصم وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض يقال: هو يستنزِلُ العصم بلفظه: أي يذل الصعاب بسحر منطقته وحسن حديثه. تعجب: تنقاد. يقال: جنبت الفرس إذا قذتها إلى =

الصَّعْبَ فيُضْجِب، وَيَسْتَدِيرُ الصَّخُورَ فَتُخَلَّب؛ ولما جاءني كتابُ ابتداه، وَقَرَعَ سمعي نداء؛ فَرِغْتُ إلى الفِكْرِ، وَخَفَّقَ القلبُ بين الأمن والحَذَر؛ فطارَدْتُ من الفقر أوابدَ قَفَر، وشواردَ غُفَر، تُغَيِّرُ^(١) في وجه سائِقِها، ولا يتوجَّه اللِّحاق إلى وَجِهيها ولا حَقِيقها؛ فعلمت أنها الإِهَابَةُ والمَهَابَةُ، والإِجَابَةُ والاستِرابَةُ؛ حتى أَيَّسَّنِي الخواطرُ، وأخلفَتْنِي المَواطِرُ، إلا زبرجًا^(٢) يَعْقُبُ جِوَادًا، وبَهْرَجًا لا يَحْتَمِلُ انتِقَادًا؛ وأنى لِمثلي والقَريحَةُ مُرْجَاةُ^(٣) والبِضَاعَةُ مُرْجَاةُ؛ ببراءة الخطاب، وبراعة الكتاب، ولولا دروسُ^(٤) مَعَالِمِ البَيان، واستيلاءُ العفاء على هذا اللسان؛ ما فاز لِمثلي فيه قِدَحٌ، ولا تحَصَّلَ لي في سوقه رِنَجٌ؛ ولكنه جَوْ خال، ومِضْمَارُ جُهال؛ وأنا أعزك الله أربأً بقدر الذخيرة، عن هذه التَّنَفِّ الأخيرة؛ وأرى أنها قد بلغت مَداها، واستوفت حَلاها؛ وإنما أخشى القَدَحَ في اختيارِك، والإِخلالَ بمِختارِك؛ وعذرًا إليك - أيدك الله - فإني خَطَطْتُ والنومُ مغازل، والقُرُ نازل؛ والريحُ تلعب بالسراج، وتصول عليه صَوْلَةُ الحَجاج.

ثم أخذ في وصف السراج كما ذكرناه في الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأول في السُفَرِ الأول من هذا الكتاب.

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدِّ^(٥)، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعروف بابن القَصِيرَةِ - وقد قربت بينهما المسافة ولم يتفق اجتماعهما -:

لم أزل - أعزك الله - استنزل قَرَبَكَ براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأنصِبَ لك شَرَكَ المني، في حُلَسِ الكرى، وأعلَّلَ فيه نَفْسَ الأمل، بضرب سابقِ المثل: [من البسيط]

ما أَقْدَرَ الله أن يُدْني على شَحْطٍ مَن داره الحَزَنُ مِمَّن داره صُولُ^(٦)

= جنبك فهي جنب ومجنوبة.

(١) تغير: تثير الغبار.

(٢) الزبرج: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٣) مرجاة: من الأرجاء: أي التأخير.

(٤) الدروس: الزوال والعفاء.

(٥) محمد بن عبد الله بن الجد (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) مفتي ليلة بالأندلس. سكن إشبيلية وتقلد وزارة الراضي بن المعتمد بن عباد. له «المغرب في حلى المغرب» قصيدة جيدة: (الأعلام للزركلي).

(٦) الحَزَنُ: بلاد بني يربوع، وهي منطقة طيبة المرعى. صول: مدينة في بلاد الخزر.

فما ظنُّكَ به وقد نزل على مسافة يوم وطالما نفر عن جباله نوم، ودنا حتى همّ بالسلام، وقد كان من خُدع الأحلام، وناهيك من ظمئي وقد حُمْتُ حَوْل المَورد الخَصِر، ودَمَمْتُ الرِّشاء^(١) بالقَصَر، ووقف بي ناهضُ القَدَر، وقفة العَير بين الورد والصَّدْر؛ فهَلَّا وُصِل ذلك الأملُ بباع، وسمح الزمنُ باجتماع؛ وطُوِيَتْ بيننا رقعةُ الأميال، كما زُوِيَتْ مراحلُ أيام وليال؛ وما كان على الأيام لو غفلت قليلاً، حتى أَشْفَى بلفائك غليلاً، وأتَنَسَم من رُوح مشاهدتك نفساً بليلاً؛ ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حُرٍّ، وقضاءٍ بَرٍّ؛ وسَفَرٍ قريب، وظَفَرٍ غريب؛ فما تَحَيَّفْتُ^(٢) ودادي، ولا ارتَشَفْتُ مِدادي؛ ولا غاضت كلامي، ولا أخفت أفعامي؛ وحسبي بلسان الثُّبُل رسولاً، وكفى بوصوله أملاً وسُؤلاً؛ ففي الكتاب بُلغَةُ الوَطَر، ويُسَدِّل على العين بالآثر؛ على أني إنما وَحَيْتُ وَحْي^(٣) المُشير باليسير، وأحَلْتُ فهمَكَ على المسطور في الضمير؛ وإن فرغت للمراجعة ولو بحرف؛ أو لَمَحَةِ طَرْف؛ وصلتَ صديقاً، وبَلَلْتَ ريقاً؛ وأَسَدَيْتَ يدًا، وشَفَيْتَ صَدَى؛ لا زالت أياديكَ بيضاً، وجاهُك عريضاً؛ ولياليك أسحاراً، ومساعيك أنواراً.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن الخياط من رُقعةٍ طويلةٍ إلى الحاجب المظفر، أولها:

حَجَبَ الله عن الحاجب المظفرِ أَعْيَنَ النَّائِبَات، وَقَبَضَ دُونَهُ أَيْدِيَ الْحَادِثَات.

وجاء منها: وَرَدَ لَهُ كِتَابٌ كَرِيمٌ جَعَلَتْهُ عِوَضَ يَدِهِ الْبَيْضَاءِ فَقَبَّلَتْهُ، وَلَمَحَتْهُ بَدَلُ غُرَّتِهِ الْغَرَاءِ فَأَجَلَّلَتْهُ؛ كِتَابُ أَلْقَى عَلَيْهِ الْحَبْرُ^(٤) حَبْرَهُ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ السَّحَرُ فَقَرَهُ؛ أَنْذَرَ^(٥) بِلُغِ الْمَنَى، وَبَشَّرَ بِحُصُولِ الْغَنَى؛ تُخَيِّرُ لَهُ الْبَيَانَ فَطَبَّقَ مَفْصِلَهُ، وَرَمَاهُ الْبَنَانُ فَصَادَفَ مَقْتَلَهُ؛ وَوَصَلَ مَعَهُ الْمَمْلُوكُ وَالْمَمْلُوكَةُ اللَّذَانِ سَمَّاهُمَا هَدِيَّةً، وَتَنَزَّهَ كَرَمًا أَنْ يَقُولَ عَطِيَّةً؛ هِمَّةً تَرْجُمُ السُّمَّاكِينَ، وَنِعْمَةً تَمَلَأُ الْأَذْنَ وَالْعَيْنَ؛ وَمَا حَزَّكَ - أَيْدَهُ اللهُ - بِكِتَابِهِ سَاكِنًا بِحَمْدِهِ، وَلَا نَبَهَ نَائِمًا عَنْ قَصْدِهِ؛ كَيْفَ وَقَدْ طَلَعَتْ أَلْسَمُسُ الَّتِي صَارَ بِهَا الْمَغْرِبُ شَرْقًا، وَهَبَّتْ أَلْرِيحُ الَّتِي صَارَ بِهَا الْحِرْمَانُ رَزْقًا؛ صَاحِبُ لُؤَاءِ الْحَمْدِ، وَفَارَسُ مَيْدَانِ الْمَجْدِ.

وهي رُقعةٌ طويلةٌ قد ذكرنا منها في المديح فصلاً لا فائدة في إعادته.

(٢) تحيف: تنقص.

(٤) الحبر: العالم.

(١) الرشاء: الحبل.

(٣) الوحي: الكتابة أو الإشارة.

(٥) أنذر: أي أعلم.

ومن كلام أبي حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسي، فمن ذلك أمانُ كُتَبِهِ لمن عَصَى وعاود الطاعة:

أما بعد، فإن العَلْبَةَ لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قَدَمِكَ، دون عهد ولا عَقْدٍ يَمْنَعَانِ من إراقة دمك؛ ولكننا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرِّياسة، والحفظ لشرائع السياسة؛ تأملنا مَنْ ساس جهتك قبلنا فوجدنا يدَ سياسته خرقاء، وعينَ حراسته عَوَراء، وقَدَمَ مداريته سَلَاء، لأنه غاب عن ترغيبك فلم ترْجِه، وعن ترهيبك فلم تَحْشِه؛ فأذنتك حاجتُك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقِلَّةُ مَهَابَتِكَ إلى التهالك على المعاصي الوبيّة؛ وقد رأينا أن تُظهِرَ فضلَ سيرتنا فيك، وتُعَبِّرَ بالنظر في أمرِك، فمَهَّدنا لك الترغيبَ لَتَأْنَسَ إليه، وظَلَّلنا لك الترهبَ لَتُفَرِّقَ منه، فإن سَوّتَ أَلحالتان طَبْعَكَ، وداوى الثُّقافُ والنارُ عُوْدَكَ، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حُسْنَ السياسة فيك؛ وأمانُ الله تعالى ميسوْطُ مَنّا، وموائيقُه بالوفاء معقودَةٌ عَلَيْنَا؛ وأنت إلى جهتك مصروف، وبعفوننا والعافية منا مكنوف، إِلَّا أن تَطْيِشَ الصَّنِيعَةَ عندك فتخلعَ الرِّبْقَةَ، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بُغِيَ عليه، ولست بأوّل مَنْ تراءت لنا مقاتلُه من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبواب استتصاليه من أمثالك إن طُليت.

ومن كلامه يعاتب بعض إخوانه:

أظلم لي جو صفائك، وتوَعَّرت عليّ طُرُقُ إخوانك؛ وأراك جَلَدَ الضمير على العتاب، غيرَ نافع العُلَّة من الجفاء؛ فليت شعري ما الذي أقصى بهجة ذلك الوُدِّ وأدبَل زهرة ذلك العهد؛ عهدي بك وصلَّتنا تَفَرِّقُ مِن أَسْمِ القطيعة، ومودُّتنا تَسألُ عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليوم هي آنسُ بذلك مِنَ الرضيع بالثدي، والخَلِيع بالكأس؛ وهذه تُغَرُّ إن لم تحرسها المراجعة، وتَذُكُ^(١) فيها عيُونُ الاستبصار توجَّهت منها الجِيلُ على هدم ما بَنَيْنَا، ونَقُضَ ما اقْتَنَيْنَا؛ وتلك نائحة الصفاء، والصارخة^(٢) بموت الإخاء؛ لا أَسْتَيِدُّ أعزك الله من الكتاب إليك - وإن رَعِمَ أنفُ القلم، وانزوت أحشاء القرطاس، وأُجِرَّ^(٣) فَمُ الفِكر، فلم يَبْقَ في أحدها إسعادٌ لي على مكاتبتك،

(٢) الصارخة: الناطقة.

(١) تذكو: تتوقد، تشتعل.

(٣) أُجِرَّ: منع من النطق. والأصل من الإجرار، وهو أن يشق لسان الفصيل لثلا يرضع. ومنه قول

عمرو بن معديكرب:

فلو أن قومي أنطقنني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

ولا بشاشةً عند محاولة مخاطبتك - لِقَوَارِصِ عَتَابِكَ، وقوارع ملائِكَ التي أَكَلَتْ أَقْلَامَكَ، وَأَغَصَّتْ كُتُبَكَ، وَأَصْجَرَتْ رُسْلَكَ، وضميري طاوٍ لم يَطْعَمَ تَجَنُّبًا عَلَيْكَ، ونفسي وادعةً لم تحرِّكْ ذَنْبًا إِلَيْكَ، وعَقْدِي مستحْكَمٌ لَمْ يَمْسَسْهُ وَهْنٌ فَيْكَ؛ وأنا الآن على طَرَفِ الإِخَاءِ مَعَكَ، فإِذَا أَن تَبْهَرَنِي بِحُجَّةٍ فَأَتَنْصِلُ عِنْدَكَ، وإِذَا أَن تَفِي بِحَقِيقَةِ فَاسْتَدِيمَ خُلَّتْكَ، وإِذَا أَن تَأْزِمَ عَلَيَّ فَأَسْكُ فَأَقْطَعُ حَبْلِي مِنْكَ؛ كَثِيرًا مَا يَكُونُ عِتَابُ الْمُتَصَافِينَ حِيلَةً تُسَبِّرُ الْمَوَدَّةَ بَهَا، وَتُسْتَثَارُ دِفَائِنُ الْأَخَوَةِ عَنْهَا، كَمَا يُعْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى اللَّهَبِ، وَيَصْفَى الْمَدَامُ بِالْفِدَامِ^(١)، وَقَدْ يَخْلُصُ الْوُدُّ عَلَى الْعُتْبِ خُلُوصَ الذَّهَبِ عَلَى السَّبَكِ، فَأَمَّا إِذَا أُعِيدَ وَأَبْدَى وَرَدَّدَ وَتَوَالَى فَإِنَّهُ يُفْسِدُ غَرَسَ الْإِخَاءِ، كَمَا يَفْسِدُ الزَّرْعُ تَوَالِي الْمَاءِ.

ومن كلام أبي الوليد بن طريف من جواب عن المعتمد إلى ذي الوزارتين ابنٍ يحفور صاحب شاطبةً بسبب أبي بكر بن عَمَّار:

وقفتُ على الإشارةِ الموضوعَةِ من قِبَلِكَ على إِيْلَاصٍ دَلٍّ على وجوه السلامة، المستنام فيها إلى شرفِ مَحْتَدِكَ وصفاءِ مُعْتَقِدِكَ أَكْرَمَ اسْتِنَامَةٍ؛ بِالشَّفَاعَةِ فِيمَنْ أَسَاءَ لِنَفْسِهِ حَظًّا الْاِخْتِيَارِ، وَسَبَبَ لَهَا سَبَبَ النُّكْبَةِ وَالْعِثَارِ؛ بِغَمْطِهِ لِعَظِيمِ النِّعْمَةِ؛ وَقَطْعِهِ لِعِلَاقِ الْعَصْمَةِ؛ وَتَخْبِطِهِ فِي سَنَنِ غَيْهِ وَاسْتِهْدَافِهِ، وَتَجَاوُزِهِ فِي ارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ وَإِسْرَافِهِ؛ حَتَّى لَمْ يَدْعُ لِلصِّلَحِ مَوْضِعًا، وَخَرَقَ سِتْرَ الْإِبْقَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوَلِي النِّعْمَةِ عِنْدَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ مَرْقَعًا؛ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ اسْتِشْرَاءِ رَأْيِهِ، وَكَشْفِهِ لَصَفْحَةِ الْمَعَانِدَةِ، وَإِبْدَائِهِ عَذْرَهُ فِي جَمِيعِ جَنَائِيَاتِهِ مَقْبُولًا، وَجَانِبُ الصَّفْحِ لَهُ مَعْرُضًا مَبْذُولًا؛ لَكِنْ عَدَّتْهُ جَوَانِبُ الْعَوَايَةِ، عَنْ طُرُقِ الْهَدَايَةِ؛ فَاسْتَمَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ، وَزَاغَ عَنْ سَنَنِ أَعْتِدَالِهِ؛ وَأَظْهَرَ الْمُنَاقِضَةَ، وَتَعَرَّضَ بِزَعْمِهِ إِلَى الْمَسَاوِرَةِ وَالْمَعَارِضَةِ؛ فَلَمْ يَزَلْ يُرِيغُ^(٢) الْغَوَائِلَ، وَيَنْصِبُ الْحَبَائِلَ؛ وَيَرْكَبُ فِي الْعِنَادِ أَصْعَبَ الْمَرَائِبِ، وَيَذْهَبُ مِنْهُ فِي أَوْعَرِ الْمَذَاهِبِ؛ حَتَّى عَلَقَتْهُ تِلْكَ الْأَشْرَاكُ الَّتِي نَصَبَهَا، وَتَشَبَّثَتْ بِهِ مَسَاوِي الْمَقْدَمَاتِ الَّتِي جَرَّهَا وَسَبَّبَهَا؛ فَذَاقَ وَبَالَ فِعْلِهِ، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: الآية ٤٣] وَلَمْ يَحْصُلْ فِي الْأَنْشُوطَةِ الَّتِي تَوَرَّطَهَا، وَالْمَحْنَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهَا؛ إِلَّا وَجْهُ الْعَفْوِ لَهُ قَدْ أَظْلَمَ، وَبَابُ الشَّفَاعَةِ فِيهِ قَدْ أَبْهَمَ؛ وَمَنْ تَأَمَّلَ أَعْمَالَهُ الذَّمِيمَةَ، وَمَذَاهِبَهُ اللَّثِيمَةَ؛ رَأَى أَنَّ الصَّفْحَ عَنْهُ بَعِيدٌ، وَالْإِبْقَاءَ عَلَيْهِ دَاءٌ حَاضِرٌ عَتِيدٌ.

(١) الفدام: المصفاة للكوز والإبريق ونحوهما. (٢) يريغ: يطلب ويريد.

وفي فصل منه: ففوق لمناضلة الدولة نباله، وأعمل في مكايدها جهده وأحتياله؛ ثم لم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى إطلاق لسانه بالذم الذي صدر عن لوم نجاره، والظعن الشاهد بخبث طويته وإضماره؛ ومن فسد هذا الفساد كيف يرجى استصلاحه، ومن استبطن مثل غله كيف يؤمل فلاحه؛ ومن لك بسلامة الأديم^(١) النغل، وصفاء القلب الدغل؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضت به من وجه الشفاعة غير الجميل، ولا أتعذى فيه حسن التأويل؛ ولو وقدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذي سبق فيه السيف العذل، وأبطل عاقل الأقدار فيه الإلطاف والجبل؛ لتلقت بالإجلال، وقوبلت ببالح المبرة والاهتيال^(٢).

ومن كلام ذي الوزارتين أبي المغيرة بن حزم من رسالة.

لم أزل أزجر للقاء سيدي السانح، وأستمطر العادي والرائح؛ وأروح أقتناصه ولو بشرك المنام، وأحاول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام؛ وأعاب الأيام فيه فلا تغيب، وأقودها إليه فلا تضج؛ حتى إذا غلب اليأس، وشمت الناس^(٣)؛ وضربت بي الأمثال، فقل: أكثر الآمال ضلال؛ تنبه الدهر من رقدته، وحل من عقده؛ وقيل متي، وأظهر الرضى عني؛ وقال: دونك ما طمح فقد سمح، وإليك فقد دنا ما قد جمح؛ فطرت بجناح الارتياح، وركبت إلى الغمام كواهل الرياح؛ وقلت: فرصة تغتنم، وركن يستلم؛ وطرقت روضة العلم غميمة الأزهار، فصيحة الأطيوار؛ ربا الجدول، باردة الضحى والأصائل؛ وطف بكعبة الفضل مصونة الحبر^(٤)، ملثومة الحجر؛ عزيزة المقام، معمورة المشعر الحرام؛ فما شئنا من محاضرة، تجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدي نشر يديني الإعجاز، ونظم ما أشبه الصدور بالأعجاز؛ وحديث ثقف العقول بآرائه، وثروى بصافي مائه؛ فحين شمع بالظفر أنفي، وأهتز لنيل الأمل عظمي - والدهر يضحك سراً، ويتأبط شراً؛ وقد أذهلني الجدل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه - أت ألوانه، وفسا ظربانه^(٥)؛ ونادى: ليقيم من قعد، وينتبه من رقد؛ إنما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة؛ وسمحت لك مرة، لتذوق من الأسف عليها كأساً مرة؛ فرأيت وقد غطى على

(١) الأديم: الجلد. النغل: الفاسد الدباغة. (٢) الاهتيال: الاغتنام، والمراد اغتنام العمل.

(٣) شمت الناس: استطلعتهم وتبصرتهم. (٤) الحجر: أستار الكعبة.

(٥) فسا ظربانه: فاحت منه رائحة كريهة. والظربان: دويبة كالهرة متنتة الريح.

بصري، وعَقَلْتُ وكنت في عمياء من خبري؛ وقلْتُ: هو الذي أعهدَه من لؤمِه، وأعرفه من شؤمِه؛ فما وَهَب، إلا وسَلَب؛ ولا أعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القُطا؛ فيا له من قادرٍ ما أَلأم قدرته، وذابحٍ ما أَحَدُ شَفَرته! ولو تَسَلَّط علينا، من يُظهِر شخصه إلينا، لأدركته رماحنا، وعصفتُ به رياحنا؛ لكنه أميرٌ مِن وراء سَجِف، يسعى بلا رجلٍ ويصول بلا كَف.

ومن كلام الوزير الكاتب أبي محمد بن عبد الغفور إلى بعض إخوانه - وكان قد وصف له امرأة ومدَّحها وحضَّه على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأة سوداء - فأجابه ابنُ عبد الغفور:

بينما كنت ناظرًا من المرأة في شَعِرٍ أَحَم^(١)، ورأسٍ أَجَم^(٢)، لا أخاف معه الدم؛ إذ تَقَدَّم رسولُك إليّ، يخطُبُ بنتَ فلانٍ عليّ؛ ويُرَغِّبُ منها في سَعَةِ مال، وبراعة جمال؛ ويقسِمُ إنها لَبْرَةٌ بالزوج بَرِيكة، لا تحوجه عند النوم إلى أَرِيكة؛ ولو يُسَرْتُ - وعيادًا بالله - لهذا النكاح، لَرُزِقْتُ قَبْلَ الولدِ منها آلَةُ النُّطاح؛ ولا حاجة لي بعد الدَّعَةِ والسكون، إلى حربِ زبون^(٣)، وقِرَاعِ بالقُرون^(٤)، ولو حَمَلْتُ إليّ تاجَ كسرى وكنوزَ قارون؛ فاطلب لهذه السَّلعة المباركةَ مشتريًا غيري، ولا تُسْقِها ولو في النوم إلى...؛ وأبتغها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسيك، وأضِفْ عاجَها النفيسَ إلى آبنوس^(٥) عُرْسِك؛ ولا عَذْرَ لها في الثُّشُوزِ والإعراض، فإنما يَحْسُنُ السَّوادُ الحالِكُ بالبياض؛ والله يمدِّك بقرنين قَبْلَ الحين^(٦)، وَيَضْعُ لك صِنْعَيْنِ وبيلين^(٧)، فيُسْقِطَكَ بهذا النكاح الثاني للفم كما أُسْقِطَ بالأوّل لليدين.

كامل السفر السابع من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري

رحمه الله تعالى - ويليهِ الجزء الثامن منه، وأوّلُهُ

ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضل

-
- (١) الأحم: الأسود.
 (٢) الأجَم: الكثيف الشعر.
 (٣) الحرب الزبون: الشديدة المتدافعة.
 (٤) القرون: السيوف، والقرن: حدّ السيف.
 (٥) الآبنوس: شجر إفريقي خشبه أسود صلب.
 (٦) الحين: الهلاك.
 (٧) الصنعين: تثنية صنع، وهو سفود الشعراء والوبيل: الوخيم العاقبة.

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - البيان والتبيين، للجاحظ، دار الهلال، بيروت.
- ٣ - تاج العروس، للزبيدي.
- ٤ - تاريخ أبي الفداء، للملك المؤيد، ط، القسطنطينية.
- ٥ - تاريخ البشرية، لتوينبي.
- ٦ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، للصفدي.
- ٧ - الحيوان، للجاحظ، دار الهلال.
- ٨ - دائرة المعارف الإسلامية.
- ٩ - الذخيرة، لابن بسام.
- ١٠ - سرح العيون، لابن نباتة، ط، بولاق.
- ١١ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.
- ١٢ - صبح الأعشى، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.
- ١٣ - طبقات المعتزلة، لابن المرتضى، المطبعة الكاثوليكية.
- ١٤ - لسان العرب، لابن منظور، دار صادر.
- ١٥ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي التميمي.
- ١٦ - معجم الأدباء، لياقوت الحموي.
- ١٧ - معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر.
- ١٨ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.
- ١٩ - معجم الأمثال، للميداني.
- ٢٠ - مفتاح البلاغة، للسكاكي.

- ٢١ - مفتاح العلوم، للخوارزمي.
- ٢٢ - الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، دار الهلال.
- ٢٣ - وفيات الأعيان، لابن خلكان.
- ٢٤ - يتيمة الدهر، للشعالبي.

فهرس المحتويات

الباب الرابع عشر من القسم الخامس من الفن الثاني في الكتابة وما تفرع من	
أصناف الكتاب	٣
ذكر كتابة الإنشاء وما أشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع في المعنى	
الواحد بين الحقيقة والمجاز؛ والتلعب بالألفاظ والمعاني والتوصل إلى بلوغ	
الأغراض والأمانى	٦
ذكر صفة البلاغة	٨
فصول من البلاغة	١١
جُمِّل من بلاغات العجم وحكمها	١٢
صفة الكاتب وما ينبغي أن يأخذ به نفسه	١٣
ذكر شيء مما قيل في آلات الكتابة	١٩
ذكر شيء مما قيل في القلم	١٩
ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الأمور الكلية	٢٥
فصل فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله	٤٦
فصل في أقسام الاستعارة	٤٩
فصل في مواضع التقديم والتأخير	٥٩
فصل في حذف المبتدأ والخبر	٦٦
فصل	٦٧
فصل	٧١
الطباق	٨٣
السجع	٨٧
فصل في الفقر المسجوعة ومقاديرها	٩٠
[المذهب الكلامي]	٩٥
[حسن التعليل]	٩٦

١٥٢	ذكر ما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز
١٧١	ذكر شيء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنه والتابعين وشيء من كلام الصدر الأول وبلاغتهم
١٨٢	ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها
١٩١	ومن مكاتباته إلى المهلب بن أبي صفرة وأجوبة المهلب له
١٩٦	ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين
١٩٩	ذكر شيء من رسائل وفصول الكتاب والبلغاء المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين من المشاركة والمغاربة
٢٠٧	ذكر شيء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتابهم ممن ذكرهم ابن بسام في كتابه المترجم بالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة
٢٣٣	المصادر والمراجع